روايات تاريخ الإسلام

أحمد بن طولون

Bibliotheca Alexandrina
0197659

جرجي زيدان

دار الجيل
بيروت

روايات تاريخ الإسلام

أحمد بن طولون

تتضمن وصف مصر وبلاد النوبة في أواسط القرن الثالث للهجرة ، على عهد احمد بن طولون . ويتخلل ذلك وصف أحوالهما السياسية والاجتماعية والادبية

تأليف
جرجي زيدان

دار الجيل
بيروت - لبنان

تحميل كتب http://abbassa.wordpress.com

أبطال الرواية

★ احمد بن طولون	: امير مصر
★ ابو الحسن البغدادي	: من الشيعة العلوية
★ دميانة بنت مرقص	: من سراة الاقباط
★ سعيد الفرغاني	: مهندس مسيحي
★ أحمد المارداني	: متولي الخراج
★ اسطفانوس بن يوحنا	: كاتب الخراج
★ زكريا	: خادم دميانة
★ البطريرك ميخائيل	: بطريرك الاقباط
★ ابو حرملة	: امير قبيلة البجة

مراجع رواية أحمد بن طولون

هذه هي المراجع التي اعتمد عليها المؤلف في تأليف الرواية ووقائعها التاريخية :

★ تاريخ المقريزي ★ الخريدة النفيسة

★ تاريخ التمدن الاسلامي ★ بتلر (Butler I)

- ١ -

دميانة

خرجت دميانة من منزل ابيها بقرية «طاء النمل» بمديرية الدقهلية ــ في أصيل يوم من ايام سنة ٢٦٤ للهجرة ؛ ومشت تسترق الخطى في البساتين تلتمس كنيسة هناك بنيت لصلاة اهل تلك الناحية والقرى المجاورة . وكانت دميانة تذهب للصلاة فيها كل صباح ــ وخاصة في ايام الآحاد والاعياد ــ لكنها ارادت الذهاب في ذلك الاصيل لتخلو بقسيسها وتسر اليه امرا خالج ضميرها وأقلق راحتها ، وهي ترى في الاعتراف راحة او مشورة او مؤاساة ، ولو كانت امها على قيد الحياة لاستغنت بالشكوى اليها عن مكاشفة القسيس . وأما ابوها مرقس فلم تكن ترتاح لمصارحته بما يجول في خاطرها لاختلاف ما بين ميولهما وطباعهما ؛ اذ كانت هي تقية ورعة تصلي كل صباح ، وكان لا يعبأ بالصلاة ولا يدخل الكنيسة الا نادرا . وكانت تكره الخمر ؛ في حين يتعاطاها هو مسرفا في المجون لا يهمه الا متاع دنياه والتأنق في الطعام والشراب .

وكانت دميانة طفلة حين توفيت امها . فلم يتزوج ابوها بعدها ؛ لا

احتفاظا بعهد الزوجة الوفية ، ولا مراعاة لوحيدته ، ولكنه رأى الزواج قيدا شاغلا فعمد الى التسري واقتناء الجواري اقتداء بسراة المسلمين في ذلك العهد ــ عهد البذخ والترف والقصف ، شأن بعض الاقباط من اهل الثروة في ذلك الحين •

كان مرقس من ملاك الضياع وأهل الثروة لا يشغله طلب الرزق عن شيء من ملاذ الحياة • فيقضي نهاره في الاكل والشرب بين الاصدقاء والخلان الذين هم على شاكلته ، وكان العقلاء ينتقدونه ويقبحون عمله، ولاسيما الذين عاشروه منذ الصبا وعرفوا حداثة عهده بالثروة ، لانه نشأ متوسط الحال لا يزيد دخله على الكفاف ، ثم جاءته الثروة فجـــــأة فصادفت قلبا شرها ونفسا ضعيفة فاتجه وجهة المتاع الجسدي •

اما دميانة فربيت في حجر امها حتى الثامنة من عمرها ، وأخذت عنها كثيرا من الفضائل كالتقوى والصراحة في القول وصدق اللهجة والاتكال على الله والمحافظة على الصلاة اليومية • وماتت امها فجأة وهي غائبة ولو شهدت نزعها لسمعت منها حديثا يهمها ذا شأن في مستقبل حياتها • فأصبحت وحيدة لا انيس لها في تلك القرية لان اكثر سكانها مـــــن الفلاحين العاملين في ارض ابيها وهم تابعون للارض ينتقلون معها من مالك الى مالك او من متقبل الى متقبل على نحو ما كانت عليه الحال يومئذ في اكثر البلاد • ففي المملكة الرومانية بأوربا كانت الارض تنتقل من بارون الى بارون وينتقل فلاحوها معها ويسمونهم سيرف وهو ما يعبر عنه في العربية بالقن اي العبد المملوك بالوراثة وجمعـه أقنــان •

فلم تكن ترتاح الى معاشرة بنات الفلاحين ، ولم تخرج في علاقتها بهن الى اكثر من الاحسان والبشاشة • وكن يتقربن اليها بالهدايـــــا والخدمة ، غير ان ذلك لم يكن ليشبع ما في نفسها من الميل الغريزي

الى المصادقة والمكاشفة على عادة بنات المدن مع الصواحب او الجارات او ذوات القربى ، فكانت اذا طرأ عليها امر يقتضي الترويح عن النفس انصرفت الى الصلاة فتتعزى الى حين •

اما في ذلك اليوم فشعرت بانقباض . وضاقت ذرعا بكتمان ما في نفسها وهي تحسبه مخالفا لشروط التقوى والتدين ؛ فقضت معظم النهار في التفكير منفردة في غرفتها ، حتى اذا مالت الشمس الى الاصيل لاح لها ان تبوح بسرها الى الاب منقريوس قسيس القرية ، وكانت تأنس به لطول عهده بخدمة الكنيسة ولكبر سنه • هذا الى ان الاعتراف للقسيس قاعدة متبعة عندهم •

وخرجت دميانة تمشي في البساتين كأنها تتمتع بمناظر الطبيعة وتنظر في الاغراس . وصبيان الفلاحين وبناتهم يقفون احتراما لها او يفرون خجلا منها . وبعضهم في شاغل عنها بثور يسوقه الى مربطه او حمار يحمل عليه قضبانا او فاكهة الى بيت مولاه •

★ ★ ★

مشت دميانة متظاهرة بأنها مهتمة بتلك المناظر ، وهي في الحقيقة في شاغل عنها بما يتردد فيذهنها من الامر الذي تهم بكشفه للاب منقريوس، فلم تكن تسمع غناء الغلمان وهم يحصدون الزرع ، ولا صياح الادياك ولا رفرفة الاطيار التي تلتقط الحب • ولما دنت من الساقية الكبرى على ضفة النيل لم تنتبه لانينها او طقطقة اخشابها او خوار ثورها والغلام يستحثه على الدوران •

وكانت دميانة في نحو العشرين من عمرها ، ربعة القامة ، سمراء اللون مع صفاء ونضارة ، كبيرة العينين سوداء الحدقتين مع ذكاء ووداعة ، صغيرة الانف والفم ، ممتلئة الشفتين لها ميسم ينم عن صدق

طويتها ورقة احساسها ، وفي أذنيها قرطان من ذهب يمثلان ابا الهول، وقد ضفرت شعرها الاسود ضفيرة واحدة ارسلتها على ظهرها ، وغطت رأسها بنقاب من الحرير ــ نسج دمشق ــ اهدته اليها امها في طفولتها وقد طرزت لها حواشيه ببعض الدعوات والآيات باللغة القبطية ، وارتدت ثوبا رقيقا من القاطي واسع الاردان ، التفت فوقه بمطرف من الخز مما كان يحمله تجار فارس الى الفسطاط ، واحتذت نعلا من الجلد والخوص، وفي عنقها قلادة من الذهب في وسطها صليب •

* * *

كانت المسافة بين المنزل والكنيسة نحو ميل ، قطعت دميانة معظمه على ضفة النيل وعيناها تتنقلان بين الماء واليبس ، فمرت بها قوارب تحمل تبنا او حبوبا او غير ذلك من الغلال وهي لا تعيرها انتباها ولا تكاد تسمع صراخ ملاحيها او نقر الريح على أشرعتها ، ولكنها انتبهت فجأة الـى سفينة لم تشاهد في النيل مثلها ضخامة واتقان بناء وزخرفة وكبر شراع• وكانت لما احتوت عليه من غرف ونوافذ كأنها بيت سابح فوق الماء ، يشبه ما يعرف اليوم «بالذهبيات» ، فعلمت ان مثل هذه السفينة لا تخلو من ان تنقل بعض السراة ، وربما كان فيها بعض اصدقاء ابيها وهي لا تحب ان يراها احد منهم • وكانت قد اشرفت على الكنيسة فأسرعت اليهـــا تتوارى بين جذوع الشجر وأغصانها حتـــى دنت من باب الكنيسة ، فاستترت وراء نخلة ضخمة عند الباب قديمة العهد ، والتفتت الى النيل لتعيد نظرها في تلك «الذهبية» لعلها تعرف اصحابها ، فتفرست فـــي الراية المنصوبة في مقدمها فرأت عليها كتابة بالعربية وهي لا تقرؤها لان اهل القرى كانوا الى ذلك العهد لا يعرفون العربية لقلة اختلاطهم بالعرب، ولأن المسلمين كانوا منذ الفتح يقيمون بمعزل عن اهل البلاد • امـــا

بالفسطاط مقر رجال الدولة ومن يلحق بهم من الحاشية والاعوان ، واما في اطراف البلاد بالمضارب والخيام ، ولم ينزلوا القرى الا بعد قدوم المأمون الى مصر في اوائل القرن الثالث للهجرة لاخماد ثورة نشبت بها، فأمر المسلمين بنزول القرى ، فابتنوا فيها القصور وحولوا بعض الكنائس الى مساجد .

فلما رأت دميانة الراية علمت انها لبعض رجال الدولة او بعض الخاصة او الجباة من القبط قد خرجوا لجمع الخراج والجزية ، ولولا علمها بمنزلة ابيها من صاحب الخراج لخافت ان يمسه ضر من اصحاب تلك السفينة . ولو كانت تقرأ العربية لقرأت على الراية اسم «احمد المارداني» متولي الخراج وأحد ذوي النفوذ الاكبر عند ابن طولون صاحب مصر .

وانتبهت لما جاءت من اجله فتوجهت نحو الكنيسة ودخلت بابها الغربي .

* * *

كان لتلك الكنيسة في اول امرها بابان : احدهما غربي والاخر شمالي . فلما نزل المسلمون القرى بعد قدوم المأمون واحتاجوا الى اماكن للصلاة ابنى بعضهم المساجد واغتصب آخرون بعض الكنائس وجعلها مساجد . اما قرية دميانة فنزلها رجل من الشيعة العلوية اسمه «ابو الحسن البغدادي» جاء من بغداد في حملة المأمون ، ثم احب المقام بمصر فاستأذنه في البقاء فيها فأذن له . وظل زمنا يقضي فروض الصلاة في منزله . وكان معتدلا منصفا فلم ير ان يسلب اهل تلك الناحية كنيستهم فاتفق مع صاحبة القرية وهي يومئذ مارية القبطية المشهورة على ان يقتطع من الكنيسة جانبا يتخذه مسجداً يصلي فيه كما فعل المسلمون بالجامع

الاموي لما فتحوا دمشق ، فأذنت له • وقسم الكنيسة شطرين وأصبح الباب الشمالي خاصا بدخول المسلمين وليس منهم هناك الا ابو الحسن البغدادي وحاشيته ، وظل الباب الغربي مدخلا للنصارى •

دخلت دميانة من ذلك الباب ومشت في الدهليز باحترام وخشوع حتى اقبلت على واجهة الهيكل وعليها الايقونات الملونة والاستار المصورة، فرسمت علامة الصليب ، وعرجت على أيقونة مريم العذراء في جهـــة اليمين وهي تمثل العذراء تحمل طفلها في شكل جميل ، وقد جلبت هذه الصورة من القسطنطينية ؛ فجثت دميانة امامها وأخذت تصلي بحـرارة وخشوع ، وتمثل لها الامر الذي جاءت من اجله فخفق قلبها تهيبا من الخوض فيه ، ولكنها تجلدت وأخذت تتضرع الى العذراء ان تقويهـــا وتسدد خطواتها ، ولمست وجه الصورة بأناملها ثـم مسحت بهـــا وجهها تبركا •

وفيما هي في ذلك سمعت تمتمة القسيس بالصلاة التي اعتاد اقامتها بالهيكل قبل الغروب في كل يوم ، ويندر ان يحضرها احد ، وشمت رائحة البخور ، ورأت ضوء الشموع ، فازدادت خشوعا وتهيبا وهي وحيدة في ذلك المكان المقدس ، ولم تر القسيس لان باب الهيكل مغطى بستارة من الديباج المزركش من صنع دار الطراز في تنيس •

ولما فكرت فيما قدمت من اجله أكبرته ، وحدثتها نفسها بأن تعدل عن مكاشفة القسيس بسرها وهمت بالرجوع ، واذا بالقسيس قد ازاح الستار ووقف بباب الهيكل وبيده الصليب والانجيل وهو يتلو الصلاة ، فلم تتمالك عن التقدم نحوه واحناء رأسها تحت الكتاب فقرأ فصلا من الانجيل بالقبطية على عادته فتشددت ورجعت الى عزمها على الاعتراف•

فلما فرغ القسيس من الصلاة مد يده اليها فقبلتها ، وأحس القسيس ارتعاش انامليها ــ وكان الاب منقريوس شيخا طاعنا في السن عـــرف

دميانة منذ طفولتها اذ كان هو الذي عقد اكليل امها وعمدها هي ، وكان عطوفا عليها ؛ طيب السريرة صادق التدين مع سذاجة وصفاء طوية • وقد اطلع على اسرار اعترف له بها اصحابها زادته حنوا على دميانة ورعاية لها •

وقسيس الشعب الذي يطلع على اسرار رعيته اذا كان صادق التدين طيب السريرة كان ميمون الطالع لانه يستخدم تلك المعرفة التوفيق بين بنيه وازالة ما يكدر صفوهم من سوء التفاهم ، اما اذا كان طماعا منافقا فانه يكون شرا عظيما عليهم لانه يستخدم تلك الاسرار لسلب الاموال والتمتع بالسيادة وغيرها من مطالب العالم •

وكان الاب منقريوس شيخا جليلا قد ابيض شعره واسترسلت لحيته، لا مطمع له في شيء من حطام الدنيا وانما همه خدمة رعيته والتوفيق بينهم ، فلما رأى دميانة على تلك الحال في ساعة لم يتعود ان يراها بالكنيسة فيها ، ابتدرها بالكلام ليجرئها فقال : «كيف انت يا ابنتي ؟»

فهمت بالكلام فسبقتها العبرات فأطرقت حياء ووجلا فقال : «ما بالك تبكين ؟ ان من كان في مثل حالك من التقوى والايمان بالسيد المسيح لا ينبغي له ان يحزن او يخاف» •

فتشددت وقالت : «نعم يا سيدي صدقت ، وأنا قد جئت الان لاعترف لك بأمر اتعبني وأقلق ضميري فهل تسمعه ؟»

قال : «كيف لا ؟ تعالي الى كرسي الاعتراف» •

قال ذلك واتجه الى كرسي بجانب الهيكل يقعد عليه لسماع اقوال المعترفين ، وأشار بأن تقعد على كرسي بين يديه ، وبعد ان تلا بعض الصلوات او الطقوس التي تتلى في مثل هذا الموقف قال لها : «قصي خبرك يا دميانة ولا تخافي فانك تخاطبين نفسك ، ومهما يكن من خطورة سرك فانه يبقى مكتوما لا يعلم به احد ، كأنك تناجين الله في ضميرك» •

فأطرقت دميانة خجلا وقد بدا الاصفرار في وجهها ، وسكتت ، فقال: «قولي يا ابنتي» .

فرفعت بصرها اليه وتناولت يده وقبلتها وبللتها بدموعها فاجتذب يده منها وقال : «قولي يا دميانة لا تخافي يا ابنتي ، ولا أظنك تقولين شيئا أجهله لاننا معشر القسيسين لا يخفى علينا شيء من اسرار الرعية ، وذلك بما وهبنا السيد المسيح من سر الاعتراف ، وعلينا ان نستخدم هذه المعرفة في الاصلاح بين الناس وتخفيف متاعبهم ، وأنت تعلمين اني بمنزلة ابيك، وقد عرفتك طفلة وعرفت امك من قبلك ولا تخفي علي خافية من احوالك » .

فلما سمعت منه ذلك قالت : «تعرف ما في نفسي ؟ كيف ؟ قل بحياة قدسك ، قل ما تعلمه وخفف عني مشقة القول» .

فتنحنح القسيس ومسح فمه ولحيته بمنديله وقال : «لا يا ولدي لا يجوز ان ابدأ بالقول ، ولكنني قلت لك ذلك لأيسر عليك التصريح» .

فقالت : «أتعرف جارنا ابا الحسن البغدادي نزيل هذه القرية ؟»

قال : «كيف لا أعرفه ؟ أليس هو صاحب القصر الذي بجانب قصر ابيك ؟ »

قالت : «نعم ، وانه والحق يقال لعلى خلق عظيم ، وأراه يحب القبط ويلاطفهم ويحاسنهم ، خلافا لسواد اهل الدولة» .

فلم ير القسيس رابطة بين ما سمعه وما كان يتوقع ان يسمعه ، ولكنه ظنها تتدرج في الحديث فقال : «اراك تحسبين اضطهاد اهل الاسلام للاقباط قاعدة من قواعد حكومتهم ، والواقع ان ذلك يختلف باختلاف الرجال ، فقد كان المسلمون في أوائل دولتهم بمصر اكثر الناس رعاية لنا ورفقا بنا واحتراما لعاداتنا وطقوسنا ، وتخلل ذلك اضطهادات تأى الحق في بعضها بجانبه عنا لطمع كبارنا في أموال الدولة والامساك عن دفع

الخراج او الجزية ، ومن ذلك ما وقع في العام الذي جاء فيه المأمون الى مصر وعاقبنا أشد العقاب مما لا محل لتفصيله الان ، اما ابو الحسن فرجل عاقل معتدل : عرفت اعتداله من تساهله في معاشرتنا واقتناعه بجزء من هذه الكنيسة لصلاته ، وقد رأينا غيره يحولون الكنائس الى جوامع. وهناك سبب اخر لتقربه منا لا أظنك تعرفينه ، وهو ان ابا الحسن هذا ينتمي الى طائفة من المسلمين يقال لها الشيعة يضطهدها رجال الدولة لانها تخالف مذهب الخليفة وأمرائه . كما كان حالنا قبل الاسلام اذ انقسمت الكنيسة الى ملكية ويعقوبية وكانت دولة الروم تنصر الملكية لانهم على مذهبها ، وتضطهد اليعاقبة حتى تمنى هؤلاء خروج هذه البلاد من حوزتها وقد حصل . ألا تذكرين يوم جاء امر المتوكل خليفة بغداد الى قبط مصر منذ بضع عشرة سنة . أظنك لا تذكرين ذلك اذ كنت طفلة. انه بعث الى عامله بمصر ان اهدم الكنائس المستحدثة بعد الاسلام ، ونهى عن الاستعانة بالنصارى في الاعمال او ان يظهروا الصلبان في شعانينهم . وأمر ان يجعل على ابوابهم صور شياطين من الخشب وأن يلبسوا الطيالسة العسلية ويشدوا الزنار ، ويركبوا السروج على بكر الخشب بكرتين في مؤخرة السرج ، وأن يرقعوا لباس رجالهم برقعتين تخالفان لون الثوب قدر كل واحدة اربع اصابع ولون الواحدة غير لون الاخرى ، وأن تخرج كل من نساؤهم لابسة ازارا عسليا . وحرم عليهم لبس المناطق وغير ذلك مما بقي معمولا به حتى تولى ابن طولون فأبطله».

وسكت قليلا ، ثم استأنف الكلام فقال : «وقد اصاب الشيعة في ذلك الوقت من الاضطهاد مثل ما اصابنا ، فان ابن الخليفة الذي نحن بصدده كتب الى عامله بمصر ألا يقتني علوى ضيعة ولا يركب فرسا ولا يسافر من الفسطاط الى طرف من أطرافها ، وأن يمنعوا من اتخاذ اكثر من عبد واحد ، ومن كان منهم له خصومة قبل قول خصمه فيه ولم

يطالب ببينة •

«ومن طبيعة الاشياء يا ابنتي ان الذين يقاسون الذل معا يتآلفون ويتحابون ولو بعدت أصولهم وتباينت مذاهبهم» •

★★★

كان القسيس يتكلم ودميانة تنظر كمن يصغي وذهنها يعمل في تهيئة عبارة تبدأ بها شكواها او تبث بها غرامها ، فلما فرغ من كلامه قالت: «وسعيد المهندس ضيف ابي الحسن او ابنه او مولاه ، هل تعرفه ؟»

فنظر القسيس اليها خلسة فوجد سحنتها قد تغيرت ولونها امتقع وأبرقت عيناها • فأدرك ان ظنه لم يكن مخطئا فأراد ان يشجعها على التصريح فقال : «وأنت ألا تعرفينه يا دميانة ؟»

فلما سمعت سؤاله نزلت عن الكرسي وجثت بين يديه وأخذت تبكي وتهم بالكلام فيمنعها البكاء ، فصبر حتى هدأ روعها وقال : «أظنك تحبينه • انه شاب حميد الخصال بارع ماهر» •

فتنهدت دميانة ومسحت دموعها وقالت : «نعم يا ابتي ، اني احبه • وهذا هو الامر الذي جئت لاعترف به وأستغفر لذنبي • لقد احببته عفوا ومحض اتفاق يا سيدي ، وأنا لم آكلمه بعد ، وانما كنت اراه داخلا الى منزله او خارجا منه وربما حياني بكلمة او اشارة لا تتجاوز الكلمة وجوابها • ولكنني كنت أسمع بخصاله ومناقبه ومهارته في الهندسة • ولم يتفق لي ان اجتمعت به في مكان لان ابي يحجبنا عن ابي الحسن ، كما يحجب هذا نساءه عن رجالنا ، وحسنا فعل فان في ذلك دفعا للشر • وكثيرا ما حاولت البعد وغض الطرف لعلي انسى فلم اقدر» • قالت ذلك وعادت الى البكاء •

فقال القسيس : «أتبكين لانك احببت سعيدا ؟ وهل الحب محرم ؟»

قالت : «انما ابكي لاني احببت رجلا لا سبيل اليه فاني وان كنت لم اسع الى حبه ، احسبني اخطأت خطيئة كبيرة لاني احببته وهو مسلم» .

ففهم القسيس سر اضطرابها فأنهضها وأجلسها على الكرسي بجانبه وهو يبتسم . فلما رأته يبتسم خف اضطرابها ولبثت تنتظر ما يقوله . فقال : «وما الذي جعلك تحسبينه مسلما ؟»

قالت : «لان اسمه سعيد ولم أعرف احدا سمي بهذا من غير المسلمين وقد سمعت انه يلقب بالفرغاني وهذا ايضا من ألقاب المسلمين ، ورد على ذلك اني لم اره في الكنيسة ، ورأيته مقيما مع ابي الحسن كأحد اولاده» .

قال : «اما اسمه فان أبا الحسن سماه به وليس ما يمنع تسميته سعيدا . وكذلك اللقب فانه لقب به نسبة الى احد اساتذته المسلمين الذين اخذ الهندسة والرياضيات عنهم في بغداد مدينة العلم ، لانه سافر اليها مع ابي الحسن وتلقى العلم فيها . وقد يكون نسبة الى قرية مصرية اسمها فرغانة . وأما الصلاة في الكنيسة فانه لم يتخلف عنها الا اثناء غيابه عن القرية في عمل او سفر ولعله كان يأتي متأخرا فلا ترينه» .

قالت والدهشة بادية في محياها : «أليس سعيد مسلما ؟»

قال : «كلا يا ابنتي انه مسيحي مثلك» .

فلما سمعت قوله وثبت من مجلسها وحملقت في القسيس وقالت : «مسيحي ؟ نصراني مثلنا ؟!» . قال : «نعم مسيحي يا ابنتي» .

قالت : «هل انت على يقين من ذلك ؟»

قال : «لا ريب عندي في ذلك ، وقد جلس على هذا الكرسي واعترف لي مرارا» .

قالت : «جلس على كرسي الاعتراف ؟ واعترف لك ؟ أطلعك على مكنونات قلبه ؟ آه ، هل اعترف لك بأنه ؟..»

وهمت بأن تسأله اذا كان قد اعترف بحبه لها ثم امسكت خجلا ،

وعلمت ان سؤالها يخالف أصول الاعتراف فأطرقت وسكتت .

فقال : «يكفي انك عرفت انه مسيحي» .

فتنهدت وقالت : «نعم يكفي» . ثم رفعت رأسها نحو السماء وقالت: «أشكر الله على ذلك» . وغلب عليها الفرح حتى ضحكت والدمع يقطر من عينيها وهي تردد قولها : «مسيحي ؟. سعيد مسيحي ؟» . ثم اتنبهت الى ان مسيحيته لا تكفي وحدها ليطمئن قلبها ، فسكتت وجعلت تتشاغل بمسح عينيها واصلاح نقابها ثم قالت : «وهل يعد حبي له خطيئة يا أبانا ؟ »

فأجاب القسيس : «ان الحب الطاهر يا دميانة ليس خطيئة بل هو من الفضائل التي يثاب الناس عليها ، ونظرا لما أعلمه من تقواك وتعقلك لا اخاف تورطك وخروجك عن الحدود التي وضعتها الكنيسة» .

فقالت : «معاذ الله ان أفعل ما يخالف تعاليم الكنيسة ، ولكن هل تظن ابي» . ومنعها الحياء عن تتمة الكلام .

فأدرك انها تسأل هل ابوها يمانع في زواجها منه فقال : «ان أباك صعب المراس ولا ادري هل يرضى به بعلا لك ام لا ؟»

فقالت : «اذا كنت انت مكان ابي هل ترى سعيدا كفؤا لي ؟»

قال : «نعم فانه من خيار الشبان تعقلا وذكاء ومهارة ولاسيما الان فانه قد احرز ثقة صاحب مصر احمد بن طولون لمهارته في فن الهندسة فآثره على جميع مهندسي مصر . وأظنك تعلمين السبب» .

قالت : «كلا ، ما هو ؟»

قال : «لما افضت حكومة مصر الى ابن طولون هذا ، وهو تركي الاصل وجنده اتراك ، كان عرب الفسطاط (قصبة المسلمين بمصر) لا يقبلونه اذ يرون انهم اصحاب الدولة وفيهم ظهر النبي صاحب الشريعة الاسلامية ، وكانوا في اول الاسلام يعدون الاتراك والفرس ومن اليهم

من الامم الاخرى أقل منهم ويسمونهم الموالي . فلما تغلب العنصر التركي في بغداد على ايام المعتصم انحط شأن العرب وخرجت مقاليد الدولة من أيديهم ، وتولاها الاتراك والفرس وغيرهم ، وصار العرب ينظرون الى هؤلاء بعين البغض والحسد . ولم يعد ابن طولون يأمن القيام بينهم فعزم على ان يبني لنفسه بلدا يجعله معقلا له ولجنده فابتنى بين الفسطاط والمقطم قطائع انزل فيها رجاله ، وبنى بها قصرا له ، فأعوزه الماء لان القطائع بعيدة عن النيل ومرتفعة عنه ، فأراد ان يجري الماء اليها فلم يجد من يستطيع ذلك سوى سعيد فانه تعهد له بجره ، وقد وضع له رسما هندسيا لم يستطعه سواه وباشر العمل وأظنه فرغ منه الان وجرى الماء الى القطائع في جهة تعرف بالمغافر ، وعما قليل يحتفل ابن طولون برؤية هذا الماء يجري ، فاذا رأى العمل متقنا كافأ سعيدا مكافأة يحسده عليها كثيرون » .

فسرت سرور المحب بما يناله حبيبه من التقدم ، ثم انقبضت نفسها مخافة ان يحول ذلك الرقي دون مرادها وهي لم تعلم رأيه فيها بعد وان كان قلبها يدلها على الحب المتبادل ، فأصبحت في شوق الى مقابلته لترى ما يبدو منه ، ولا تعرف وسيلة للاجتماع به لانه كان يقضي معظم ايامه في الفسطاط او القطائع .

وانتهت من الاعتراف ، فوقف القسيس ورفع يده على رأسها وباركها وصلى ودعا لها ، فقبلت يده والصليب الذي يحمله وخرجت ، وانصرف هو الى غرفة يقطنها ملاصقة للكنيسة . ولم يعرض عليها ان يوصلها الى بيت ابيها وقد امسى المساء لعلمه انها لا تخرج الا وخادمها العم زكريا معها . ولم يدر انها اتت وحدها خلسة في ذلك اليوم .

- ٢ -

سعيد

خرجت دميانة من الكنيسة وقد غربت الشمس ، وأخذت الظلال تتكاثف ، ولكن القمر كان في ربعه الاول • فظلت بضع دقائق تتردد ثم مضت تخطو بغير انتباه حتى تجاوزت النخلة وأطلت على البساتين • وأشرفت على النيل وقد اكسد لون مائه من غيوم الجو فوقه لكن سطحه ازداد لمعانا لتكسر ضوء القمر على وجهه المتجعد ، كأن الزمان آثر فيه فتكمش مثل تكمش وجوه الشيوخ ، فسارت وحدها وهي تستغيث بصاحب الكنيسة وحامية تلك الناحية كيلا يراها احد حتى تدخل غرفتها•

وفيما هي كذلك سمعت وقع حوافر جواد آلفت سماع مثله مارا بجانب منزل ابيها ، وسمعت صهيل الجواد فخفق قلبها ، وآدركت انه جواد سعيد ، وانها ستلتقي به وحده في الليل هناك ، وليس لها عهد بمثل هذه الحرية ولا سبق لها ان كلمت سعيدا بغير التحية امام والدها ، وكانت منفعلة مما قالته وسمعته على كرسي الاعتراف ، فوقعت في حيرة لا تدري أتتوارى من الطريق حتى لا يراها ام تقف له وتتحين الفرصة لمعرفة ما في قلبه ، وكلا الامرين شاق •

وكان هو قد بلغ موضعها ، وما كاد يقع بصره عليها حتى عرفها فترجل مسرعا وتقدم وهو ممسك لجام جواده بيساره ، ووقف بين يدي دميانة وقفة الاجلال وعليه لباس السفر وعلى رأسه الكوفية والعقال بدل القلنسوة او العمامة وقد التف بعباءة من الحرير فوق القباء والسراويل، وكان اسمر بيضي الوجه عسلي العينين مع وداعة وذكاء قصير الحاجبين صغير الفم خفيف الشاربين واللحية ، تلوح الصحة في محياه ويتدفق الذكاء والحدة من عينيه • وكان وقوفه مواجها للقمر فظهرت تلك الملامح

ظهورا واضحا وزادها ضوء القمر هيبة .

اما هي فكان الضوء واقعا على جانب رأسها فاكتسب وجهها رونقا من تكسر الاشعة واختلاف كثافتها على تقاطيعه ، وكانت عيناها قد ذبلتا من البكاء بين يدي القسيس فازدادتا ذبولا عند رؤية سعيد ، لما جاش في نفسها وما ينازعها من عوامل الدهشة والرجاء والخوف . فوقفت لا تتحرك ، ولكنك لو جسست يديها او سمعت حركة قلبها لظننتها بطارية كهربائية عليها مرجل يغلي ماؤه ويتدفق بخاره لما يبدو لك من ارتعاش انامِلها وخفوق قلبها واصطكاك ركبتيها .

فتقدم اليها باحترام وقال : «هل تأذن سيدتي دميانة في ان اكلمها ؟»

فلم تجب بلسانها وانما اجابت بعينيها ولم تحركهما فقال : «اراك وحدك هنا ، ولعل خادمك ابطأ عليك فهل تأذنين لي ان اماشيك الى المنزل او الى ان يأتي الخادم» .

فأطرقت وهي تصلح طرف نقابها وقالت بصوت تخامــــره بحة : «اشكرك يا سيدي وآخشى ان يكون في ذلك تعب عليك» .

قال : «كلا . واذا خفت التعب لطول الطريق فاركبي هذا الفرس وأنا اقوده ولا بأس عليك منه» .

فقالت وقد استأنست بتلطفه واستدلت منه على انه يضمر مثامـــا تضمر : «لقد بالغت في التلطف يا سيدي ، بل يكفيني حظا ان امشي الى جانبك فأكون في ظلك لا اخشى بأسا ولا اخاف تعبا» .

قالت ذلك وهي تكاد تشرق بريقها من شدة الاضطراب ، وسارت تتعثر بثوبها وركبتاها ترتعدان .

فماشاها سعيد يقود جواده ، وقد رأى المقام ذا سعة ليشكو لها ما يكنه فؤاده فقال : «اني اسير معك ولكنني في الواقع في حماك يــــا سيدتي فانك صاحبة هذه الارض ومالكة رقاب اهلها وقلوبهم» .

فالتفتت اليه وقالت : «لا تقل يا سيدتي» •

فقال : «وماذا اقول اذن ؟» • قالت : «قل يا دميانة وكفى» •

فتهلل وجهه فرحا وقال : «هل تأذنين في ذلك ، هل تأذنين ان ادعوك باسمك فقط ؟»

قالت : «على ان ادعوك انا سعيدا فقط» •

قال : «انت صاحبة الاذن ، والفضل للمتقدم فقد سمحت بأن اكون في خدمتك هذا المساء اثناء الطريق ، ويا لها من خدمة قصيرة الامد ، فهل لي ان اطمع في امتدادها» •

فنظرت اليه وقالت : «لا تقل خدمة فانما هي انس المرافقة» •

فقال : «وهل تأذنين ان تطول يا دميانة ؟» • وأدركت من بحة صوته المعنى الذي اراده فأخذ الهيام منها مأخذا عظيما وسرها ان يسألها هذا السؤال • فنظرت الى وجهه على ضوء القمر وعيناها شاخصتان اليه وقالت وصوتها يرتجف : «طول الحياة» • وغلب عليها الحياء وتوردت وجنتاها وأطرقت • فلما ابطأ بالجواب خافت ان تكون قد تسرعت ، فتباطأت في المسير ، فطاوعها سعيد وقال : «قد تستغربين سكوتي يا دميانة بعد ان قلدت عنقي بعقد كلامك الحلو الشهي • وانما سكت من الدهشة والاكبار ، فقد شعرت بالانتقال فجأة من مصاف الضائعين الى مراتب اهل السعادة ، ان دميانة كتاب كبير ومجلد ضخم ، بل هي وحي سماوي نزل على قلبي فأناره فأراني مستقبلا مجيدا لم اكن أحلم به لانه فوق ما كنت أطمع فيه • ان دميانة روح حلت في ميت آمالي فبعثته • ولقد طالما مرت بي احلام الصبا يا دميانة ، وحدثتني نفسي بضروب من السعادة مما يخطر في أذهان الاحداث ويندر ان ينالوا عشر معشارها ، فلم يخطر ببالي سعادة كالسعادة التي اكتنفتني عند سماع هذه الكلمة الثمينة ، انها أبلغ ما نطق به الشعراء وأسمى ما خطر على بال بشر • طول الحياة ؟ أطال

الله حياتك يا دميانة حتى تطول اسباب سعادتي» .

ثم وقف وقد انتبه لتسرعه في تفسير قولها ، والتفت اليها وهي تنظر اليه وقد حدقت بصرها في وجهه كأنها تهم بأن تحتضنه بأجفانها ، فأحس بسهم اصاب قلبه وانه غلب على امره فقال : «اخشى يا دميانة ان اكون قد تسرعت في فهم مرادك ، هل تعنين ما فهمته ؟ ام غلب علي الوهـــم ففهمت ما أتمناه ؟»

فتنهدت تنهدا عميقا وقالت : «أبعد ما تراني فيه من دلائل الـ ... تغالطني وتطلب مني زيادة الايضاح ؟ اكتف بما تراه من اضطرابي ، فانك اخذت كلمتي البسيطة وغاليت في قيمتها ، كانك تقرأ افكاري وهي تعبير عما يجول بخاطري . ولكنك ألبستها ثوبا قشيبا من عواطفك . ولا عجب فانك مقيم في قلبي» .

فقال : «يا لنعيمي ويا لهنائي . مقيم في قلبك ؟ حبذا المقام السماوي، ماذا اقول يا دميانة وقد غلبتني على امري وضيقت علي ابواب الكلام ، فأنا مقصر عنك في هذا البيان ، وأكتفي بعبارة بسيطة فأقول : انـــي احبك حبا يكفي للتوفيق بين الملكية واليعاقبة ونزع ما بينهما مـــن الضغائن ، او التأليف بين الاقباط والمسلمين حتى يصيروا أمة واحدة» .

وأخذا يتشاكيان ويتكاشفان الهيام وهما يسيران والجواد يسير في اثرهما لا يسمعان لحوافره وقعا كأنه شعر باتقاد ذينك القلبين وأدرك حاجة صاحبيهما الى السكينة فشارك الطبيعة في الهدوء تهيبا من سلطان الحب واكراما لذينك الحبيبين في ذلك المساء المقمر ، وأما الحبيبان فكانا ينقلان الخطى وهما لا يعلمان الى اين يسيران ، ولو مشيا على تلـــك الحالة اياما لحسباها لحظات قليلة ، فكانا في شاغل عن حفيف الورق وتنادي الفلاحين ونباح الكلاب وصهيل الخيل ، كأنهما في عالم اخر .

وفيما هما في هذه الغيبوبة المحببة رأيا شبحا مقبلا من جهة بيت

مرقس فقال سعيد : «ارى شبحا مقبلا أظنه رجلا ، هل ترينه ؟ وهـل تعرفينه ؟ »

فالتفتت وتفرست فيه ثم قالت : «انه خادمي العم زكريا ، وأظن ابي استبطأني فبعث به يستعجلني» .

فقال : «ان هذا العم سيأخذك مني او بالحري سيفصل بيننا» .

فقطعت كلامه قائلة : «مؤقتا ان شاء الله» .

فردد قولها : «مؤقتا ان شاء الله» ، مرارا ، ثم جذب اللجام حتى اقترب الجواد منه ، وقال وهو يحك جبهة الجواد : «انت ذاهبة الان الى بيت ابيك ، وستلهين عني بالخدم والجواري وبالاصدقاء ، وأما انا فلا انيس لي الا خيالك» .

فقالت : «لا يشغلني عنك شاغل بعد ما دار بيننا» . وكأنها ارادت اتمام الحديث فمنعها الحياء فقاطعها قائلا : «لن يطول الفراق ان شاء اللـه » .

قالت : «ذلك اليك و ...»

قال : «انا ذاهب في الغد الى الفسطاط لأرى ما يأمر به اميرنا ابن طولون بعد ان انهيت بناء العين وجر المياه وسبعين يوما يحتفل فيه بجرها فأنال المكافأة وأرجو ان تسرك ، وعند ذلك اتقدم الى الامر الذي جرأتني عليه بصادق فضلك ، فأستودعك الله الان» .

ومد يده اليها فمدت يدها ، فصافحها وضغط اناملها فأجابته بمثل ذلك ، وأومأت الى القمر وهي تنظر في عينيه ولم تقل شيئا ، ففهـم مرادها وقال : «وأنا أستشهد هذا الكوكب السيار على عهدنا» .

والتفت فرأى العم زكريا يتباطأ في مشيته عمدا كأنه علم بما بينهما فلم يشأ ان يفصل بينهما ، فلما رآهما يتصافحان تقدم اليهما وحياهمـا هادئا رزينا .

وكان زكريا كهلا أجرودا اصله خصي اسود ، نشأ في صباه عند ملك النوبة ثم تنقل من يد الى يد حتى وهب لدميانة ليلة ولادتها على ان يكون في خدمتها الى اخر حياته ، وقد اخلص لها الخدمة • وهؤلاء الخصيان اذا صدقوا في حبهم كانوا اقرب مودة لاسيادهم من الاخوة او الوالدين ، وكانت دميانة تأنس بزكريا وتكرمه وتناديه : «يا عماه» • وكان يعرف سعيدا معرفة جيدة ، ولم يفته ما يكنه لدميانة ولا ما في قلب دميانة له ، مع انها لم تذكر له شيئا من ذلك • وكان يرى بينهما تناسبا ويتمنى ان يتم زواجهما • فلما التقى بهما في تلك الخلوة بادرها قائلا : «لقد شغلنا عليك يا مولاتي لغيابك ، ولو علمت انك التقيت بمولانا المهندس لما تحملت مشقة السعي اليك ولكن سيدي والدك استبطأك فأمر بتعجيل مجيئك» •

قالت : «نعم ابطأت فقد شعرت بحاجة الى الصلاة والاعتراف فجئت الى الكنيسة وطال وقوفي امام صورة سيدتنا ، فغابت الشمس قبل خروجي واتفق مرور جارنا الشهم فترجل عن فرسه ومشى معي» •

فابتدرها زكريا قائلا : «فوجب علينا شكره على هذه الاريحية» •

والتفت الى سعيد وقال : «اشكرك على تحملك هذه المشقة ، فاذا شئت فاركب فرسك الى منزلك وأنا امشي في خدمة مولاتي الى البيت فاننا على مقربة منه» •

فنظرت دميانة فاذا هي بجانب بيت ابيها ولم تكن تحسب انها على مثل هذا القرب منه ، فبغتت وجعلت تصلح من شأنها وتهدىء روعها لئلا يبدو حالها لابيها • أما سعيد فودعها وركب فرسه وتحول الى منزل ابي الحسن وما زال يلتفت نحوها ويشير مودعا حتى توارت عن بصره •

* * *

مشت دميانة خطوات قليلة حتى رأت الانوار في حديقة بيت ابيها، ووقع نظرها على ضفة النيل التي تليه فرأت انوارا عديدة لم تعهد مثلها هناك فقالت : «ما هذه الاضواء التي اراها في النيل ؟»

قال : «هذه سفينة المارداني صاحب الخراج وأهلها اضياف عندكم».

فتذكرت انها رأتها تجري في الماء أصيل ذلك اليوم فقالت : «ما لنا وللمارداني ، لا أذكر انه يزورنا ولا أعرف وجهه فما الذي اتى به اليوم؟»

قال : «ان السفينة للمارداني ولكنه هو لم يأت فيها» .

قالت : «من اتى بها اذن ؟» . قال : «اسطفانوس ابن المعلم يوحنا كاتب المارداني ، وهو صديق سيدي والدك ، وقد جاء في هذه السفينة الفخمة مبالغة في الأبهة» .

فلما سمعت اسم اسطفانوس امتقع لونها ووقفت وقد جمد الدم في عروقها . ولم يجهل زكريا سبب المفاجأة ، ولكنه تجاهل وقال : «هيا بنا يا سيدتي فقد طال بأبيك انتظار قدومك» .

قالت : «طال انتظاره قدومي ؟ وهل يهمه امري ؟ وعنده من السراري والجواري ما يشغله عن هذه اليتيمة المسكينة التي فقدت سعادتها بفقد والدتها ، رحمك الله يا أماه» . قالت ذلك وحرقت اسنانها ثم قالت : «ما غرض هذا الشاب الجاهل من هذه الزيارة يا ترى ؟. أظنه جاء لمعاقرة الخمر مع ابي وليمضيا الوقت في المجون والخلاعة على جاري العادة» .

فتأثر زكريا مما شاهده من المها ، فأراد تشجيعها فقال : «وما الذي يهمك من ذلك يا مولاتي ؟»

قالت : «كيف لا يهمني امر والدي يا عماه ؟ ألا يهمني ان يكون من معاقري الخمر وأهل المجون ؟ هل رأيته ذاهبا الى الكنيسة يوما ما ؟ ام هل سمعته يصلي ؟ وما الذي ابقاه لآخرته وأنت تراه يقضي اوقاته في

الخلاعة والمجون ، وهو الذي لا يصاحب الا من كان على شاكلته ، ما قولك في رجل يتخذ اسطفانوس هذا صديقا حميما له ينفق أمواله عليه؟»

فأجابها على الفور : «ألا تعلمين لماذا يصاحبه ويكرمه ؟ وهل يخفى عليك ان سيدي والدك صاحب ضياع وأموال يلحقها من الخراج الكثير، وهذا الشاب ابن كاتب الخراج وله دالة على المارداني فيخدم أباك في تخفيف وطأة الخراج ، وقد مضت عدة أعوام لم يؤد ابوك من الخراج شيئا» .

قالت : «بئس لاقتصاد هذا ، اراه ينفق عليه في المآدب والولائم والهدايا فوق ما يقتصده من الخراج ، ثم ان الخراج حق للدولة لا ينبغي امساكه عنها كأننا نسرقها . ان اهل الذمة والضمير لا يقبلون ذلك» .

وكان زكريا يمشي بين يديها وهما يسيران الهوينا لاتمام الحديث قبل الوصول الى المنزل ، فأعجب بتعقلها وصدق نظرها لانه سمع منها قولا لم يسمعه الا من كبار الرجال المتفانين في نصرة الحق والعدل ، ثم تذكر تقواها وتدينها فأدرك حفظها قول المسيح : «اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» . وفكر في امرها وما يهمها من امر ابيها فاستوقفها وقال :

«ان الذي يهمك من هذه الشكوى امران : الاول انك تخافين ان يبذر امواله فيضيع حقك في الارث و ...»

فقطعت كلامه قائلة : «ان المال لا يهمني كثيرا ولكن لدي امرا اخر اهم منه» .

فقال : «لو صبرت لأتمم حديثي لاستغنيت عن هذا البيان . الامر الثاني انك تكرهين اسطفانوس وتكرهين عشرته وتخافين ان تؤول صداقته لابيك الى تمكين عرى القرابة معه فتعود العائدة عليك ، وأنا أعلم انك تبغضين هذا الشاب كما تبغضين جهنم» .

فسرها ان العم زكريا فهم مرادها وعرف ما يكنه ضميرها وأحسن

التعبير عن مقدار بغضها اسطفانوس . وفي الواقع ان أباها كان قد لمح لها مرة بأنه يحب لو يزوجها منه فلم تجبه ، على انها لا ترى كل ذلك شيئا يستحق الذكر بالقياس الى حرمانها من سعيد . ولاسيما بعد الذي سمعته في تلك الليلة . وهمت بأن تبوح بذلك لزكريا فمنعها الحياء . وكان زكريا يمشي بجانبها والمصباح بيده فلما آنس منها الاطـــراق والسكوت والتفكير رفع المصباح الى وجهها وتفرس فيه وهو يبتسم وقال: «وقد قرأت في وجهك شيئا اخر» . وتنحنح وسعل وصبر هنيهة ثـم قال : «ان سعيدا رجل شهم وهو وحده اهل لك» .

فلما سمعت منه هذا التصريح اسرع خفقان قلبها وتولاها الخجل ولم تجب ، فابتدرها هو قائلا : «وهذا الامر على خطورته لا ينبغي ان يهمك كثيرا ، انك ستنالين كل ما تريدين باذن الله ونعمة يسوع المسيح (وكان العم زكريا نصرانيا مثل سائر اهل النوبة في ذلك العهـــد) . ستنالين سعيدا ، وسيذهب اسطفانوس هذا مخذولا ، وستكونين صاحبة هذه الثروة وحدك متى شئت . انما يجب علينا ان تتوخى التؤدة والحكمـة والله المستعان» .

قال ذلك وامارات الجد بادية في صوته ، ولو استطاعت دميانة التفرس في وجهه لرأت في عينيه معاني لا يعبر عنها النطق ، على انها فهمت قوة عزمه من لحن صوته كأنه يتكلم عن ثقة وسلطان ، لكنها حملت قولـه محمل الحماسة لها تخفيفا عنها لانه يحبها ويريد راحتها .

فقالت : «اني لا أفتر عن الصلاة والدعاء مساء وصباحا ، وأتوسل الى السيد المسيح ان يبعد عني هذه التجارب وأرجو ان يصغي لطلبتي» . وقد سرها تصدي العم زكريا للاخذ بناصرها فزادت استئناسا به وارتكانا عليه ، وهي تعتقد صدق ولائه واخلاصه . ومشيا حتى اقتربا من الدار ففتح لهما البواب فدخلا فأطلا على حديقة أنيرت بمصابيح ملونة معلقة

بأغصان الشجر . وقد مدت المائدة تحت شجرة كبيرة تدلت المصابيح من اغصانها كالعناقيد ، وعلى المائدة الاقداح والاباريق فيها أصناف الخمر، يتخللها أطباق الفاكهة والاطعمة وباقات الرياحين . فتحولت دميانة الى غرفتها ، وظل زكريا في طريقه حتى أقبل على سيده وكان جالسا علـــى وسادة عالية بجانب المائدة وبجانبه صديقه اسطفانوس وقد لعبت الخمر برأسيهما .

- ٣ -

مرقس واسطفانوس

كان مرقس كهلا متصابيا يؤلمه التفكير في كهولته ، واذا بدا له انه اشرف على الستين غالط نفسه وزعم ان أباه اخطأ في رصد عام ولادته. فكيف اذا سئل عن سنه ، اذن لاستشاط غضبا من قحة السائل ! . ومثله مثل كثيرين من كهول هذا الزمان الذين يشق عليهم ان يعـــرف الناس حقيقة أعمارهم ، فاذا ظهرت سن احدهم ظهورا لا سبيل الى انكـــاره ملكت قياده اذا قلت له : «يظهر انك اصغر سنا من ذلك كثيرا» . فيعد قولك تقريظا له فيثني عليك كأنك اطريت مناقبه فذكرت مآثره في المجتمع الانساني او تفوقه في العلم على أقرانه او بلاءه في الدفاع عن وطنه !

هكذا كان شأن صاحبنا مرقس ، وقد زاده تمسكا بظواهر الشباب انصرافه الى ارضاء سراريه الكثيرات واكتساب اعجابهن ، فكان لا يدخر وسعا في اخفاء علامات الكهولة ، وأصبح منذ انصراف الشباب عنه اذا ابيضت شعرة في شاربيه او لحيته او رأسه نزعها ، فلما تكاثر الشيب عمد

الى الخضاب يسود به وجهه ، فبدلا من ان يكون الشعر نظيفا كما خلقه الله يطليه بكلس اسود كما تطلى الجدران بالكلس الابيض ، او يصبغه بالعقاقير كما تصبغ الجلود او الانسجة . فهو يخدع نفسه لانه يود ان يظهر من حاله غير ما هو عليه ، ولكن خداعه لا يجوز على اكثر الناس. ولو ان واحدا من هؤلاء توسم فيك مداجاة او خداعا لاحتقرك وتجنب عشرتك ، مع انه يداجي الناس بخضابه فيريهم من احواله غير الواقع ، ويوهمهم انه شاب وهو كهل . وانه اصغر سنا مما هو ، فكأنه سئل عن عمره فكذب ، ومع انهم يكرهون انواع الرياء والكذب فانهم يعدون الخضاب من قبيل المبالغة في اصلاح الهندام ، ناسين ان النظافة اول شروط جمال الهندام .

وكان كل امل مرقس ان يحتفظ بمظاهر الشباب بين يدي اهله ، ولذلك كان اذا أحس بانحطاط في قواه الجسدية عمد الى المنبهات فشرب الخمر وأكثر في طعامه من اللحوم الطازجة والأفاويه ، وتنشق العطور ولازم الراحة والخمول — وهما من بواعث السمن — فانتفخ وجهه وجحظت عيناه وغلظ عنقه وتعالى صدره وبطنه فأصبح لقصر قامته اذا لبس السراويل والقباء يكاد يكون عرضه كطوله ، وتراه اكثر ما تراه ضاحكا طروبا ، كأن الطبيعة طوع ارادته لا يخاف مستقبلا ولا يرهب قدرا مخبأ ، همه ان يتمتع بالحياة جهد طاقته فلا يروق له الا مجلس المتهتكين المستهترين ، وينفر من احاديث الجد ، بل هو لا يقوى على اعمال الفكر برهة ، ولا يلبث حتى يمل ويضيق صدره فقد اعتاد ان ينأى بجانبه عن التعب بعد ان اتته الثروة فأغنته عن العمل .

ولرغبته في الشباب كان لا يصاحب الكهول اذ يغلب فيهم الرزانة والبعد عن المجون والتهتك ، فكان يعاشر الشبان ويقلدهم في حركاتهم وسكناتهم فيجالسهم ويشاربهم ويؤاكلهم ، وكان حديثه طليا فكها

يتخلله كثير من النكات والمغامز اللطيفة فاذا سمع نكتة ضحك لهـــا وقهقه طويلا .

وكان اسطفانوس من بين عشرائه الشبان ، وهو في نحو الخامسة والعشرين من عمره ، وكان مرقس عشير ابيه من قبله . وكان هذا رجلا عاقلا وجيها اسمه المعلم حنا ترقى في مناصب الدولة حتى صار كاتبا للمادراني صاحب الخراج ، ونال نفوذا كبيرا وجمع ثروة حسنة ، وقد أحسن كل عمل الا تربية ابنه اسطفانوس فلقد غلب ضعفه على عقله في امره . او لعل الذنب ليس ذنبه بل للفطرة ، لانك اذا تدبرت احـــوال الناس في تربية ابنائهم قلما رأيت للتربية تأثيرا في ذلك ، وما هي الا كالصقل للمعدن تجلو ظاهره ولا تغير جوهره ، ومهما يكن السبب فقد شب اسطفانوس على الانهماك في اللذات والاخلاد الى الرخاء ولم يكن مضطرا الى العمل ولا فيه ميل اليه ، فنشأ في عيش سهل لا هم له الا اكله او شرابه . وكان وحيدا لابيه وله دالة عليه ، لا يطلب امرا الا ناله ، وعرف مرقس ذلك فازداد رغبة في تقريب اسطفانوس منه فضلا عن اتحاد الطباع ، وقد استفاد من عشرته اغضاء جباة الخراج عـــن تحصيل خراج أطيانه عدة أعوام .

وكان اسطفانوس يتقرب من مرقس لثروته ، وقد عرف دميانة من صغرها فأحبها ، وكان جميل الطلعة معجبا بشبابه ، وعنده ان الانسان انما تقاس منزلته برواء طلعته . وقد يصح هذا الزعم في النظرة الاولى وربما تعداها الى ما بعدها فانك ترى اكثر الناس يأخذون الامـــور بظواهرها فيبنون أحكام سيرتهم ومعايشهم على وسامة الشكل ، فيخلف ظنهم الرجل الطرير . واعتبر ذلك في اختيار الازواج ، فكم من فتى غره الطرف الكحيل والخد الاسيل والقد الرشيق ، وكم من فتاة خدعها جمال الطلعة وفخامة المظهر ، وقد يكون وراء ذلك ما يبكي العيـــون

ويدمي القلوب . ولم يخل عصر من شبان يعولون في الزواج على جمالهم فقط . وكان اسطفانوس من هؤلاء وقد طمع في دميانة لجمالها ومالها ، وخيل اليه ان امرها بيد ابيها فجعل يتزلف اليه باسدائه الخدمات او باطراء ذكائه وطلاوة حديثه ، ويأتيه من مواضع الضعف فيه فينوه بما في وجهه من نضارة الشباب حتى لتكاد تظنه ابن ثلاثين ، وكان من الجهة الاخرى يحسب رضا الفتاة امرا مقضيا ، ان لم يكن لجاه ابيه او تبعا لرأي ابيها فلجماله ، فكان اذا زارهم أصلح من شأنه وتطيب ولبس احسن ثيابه وأثمنها ، وكانت دميانة تنفر من تأنقه ومن تطيبه وتعدهما تخنثا او خلاعة ، ولاسيما بعد ان عرفته من المدمنين على الخمر، ولكنها لم تكن تظهر شعورها وتكتفي بتجنب مجلسه فتدخل غرفتها تصلي او تقرأ ، او تجالس بعض جواري القصر ممن ربينها منذ صغرها.

***

لما أطل زكريا على مرقس واسطفانوس وهما على المائدة قال له مرقس: «اين كانت دميانة ، وما الذي عاقها ؟»

فقال : «كانت في الكنيسة تصلي وتعترف وقد عادت» .

قال : «ادعها لتتناول شيئا من الفاكهة» .

فأشار مطيعا وذهب اليها فرآها واقفة امام المرآة الفضية تبدّل ثيابها وتتأهب للرقاد فقال : «ان سيدي يدعوك اليه» .

قالت : «قل له اني ذهبت الى الفراش» .

قال : «لا يصدقني لانه رآك داخلة ، ولا ارى بأسا من جلوسك هنيهة معه ثم تعتذرين بالنعاس وتذهبين» .

فأطاعت والتفت بمطرفها وخرجت الى الحديقة فاستقبلها ابوها ضاحكا مازحا وقال : «لقد طال غيابك في الكنيسة يا دميانة ، ألا تشبعين

من الصلاة ؟»

قالت وهي تجلس على وسادة في طرف البساط المفروش هناك : «ان الصلاة لذيذة يا ابي» • قالت ذلك وابتسمت •

فقال : «اذن ستفرحين كثيرا اذا عرفت اننا ذاهبون غدا الى شبرا لحضور الاحتفال بعيد الشهيد» • وضحك •

فأطرقت وقد علمت من غثة صوته انه يعبث بها ويعرض باكثارها من الصلاة ، ولما رأت ضحكه قالت : «ان عيد الشهيد عيد مبارك وفيه فضل وبركة لانه يبشر ببدء الفيضان اذ يلقون فيه التابوت واصبع الشهيد، فاذا استقر في النيل يأخذ ماؤه في الفيضان ، ولكنني أعلم انهم شوهوا الاحتفال فلا يرضى الله اذ يتخذه بعض الناس فرصة لاراقة الخمور والتمتع بالشهوات» •

فقال وقد تناول تفاحة جميلة قدمها اليها : «ما لك وللناس ، نحن نذهب لحضور الصلاة والاحتفال باخراج التابوت و•••»

فتناولت التفاحة من يده وقالت : «اصبح احتفالا تتزاحم فيه الاقدام وتتحاك المناكب ويختلط الحابل بالنابل فلا يجد المرء موطئا لقدميه» •

فنظر اليها مستخفا بما تقوله وقال : «كأنك تحسبيننا ذاهبين لنقف مع الرعاع والعامة ، اننا ذاهبون مع صديقنا اسطفانوس في سفينة صاحب الخراج الراسية على الشاطىء فنركبها وفيها الغرف للنوم والمطابخ للطعام، ونخترق بها النيل فنقف حيث نشاء ، ونتفرج على ازدحام الناس ، ونحن في سعة من المكان ونشاهد الاحتفال على مهل ، فلنشكر صديقنا اسطفانوس على دعوته» •

فلما سمعته دميانة وعلمت انها ذاهبة مع اسطفانوس استعاذت بالله وتراجعت حتى بدا التردد في عينيها ، أما اسطفانوس فتذرع بشكر مرقس فقال : «العفو يا مولاي فانما علي انا ان أقدم فرائض الشكر اذا

تنازلت الآنسة دميانة ورضيت بالذهاب معنا» •

فلم يزدها هذا التلطف الا نفورا ووقعت في حيرة بين ان تقبل الدعوة فتقضي بضعة ايام مع اسطفانوس وهو ثقيل على قلبها ، وبين ان ترفضها فلا تأمن ان يلح عليها والدها فتضطر للذهاب مرغمة فظلت ساكتة فقال ابوها : «ما بالك لا تتكلمين يا دميانة ، ألست مسرورة بهذه السياحة والزيارة ؟ »

فسبقها اسطفانوس الى الكلام وقد تناول الابريق بيده وأخذ يصب منه الخمر في قدح من الزجاج المنقوش وقال : «لا حاجة الى سؤالها فقد قالت انها لا تريد الذهاب» • وفرغ من الصب فأدنى القدح من فيه وقد ارسل رأسه الى الوراء فاسترق نظرة اليها بين القدح وكمه فرآها مطرقة تتشاغل بالتفاحة بين اناملها وقد غلب الحياء عليها حتى توردت وجنتاها •

فتصدى مرقس للجواب عنها وبيده اليمنى القدح يبعده عن فيه بعد ان شربه، ويمسح بليسرى شاربيه وفمه وقال: «كيف فهمت انها لا تريد الذهاب وهي ارغب الناس في الصلاة والاحتفالات الدينية ، وقد كانت تخاف الازدحام فبعد ان علمت بذهابنا بالذهبية لا اظنها تمانع ، فهي تذهب مع ابيها حيثما سار» •

فأدركت دميانة انه يذكرها سلطته الابوية وانه سيأخذها رضيت ام لم ترض ، فرأت ان القبول أليق فالتفتت الى اسطفانوس وقالت : «ظننتني رفضت الذهاب ، ولا رأي لي في وجود والدي فاذا أمر اطعت» •

فبش لها ابوها وقال : «بورك فيك يا ولدي ، اني لا احب ان أحملك الا على ما لا تريدين ، ونحن ذاهبون ، فاستعدي» •

فانبسطت اسارير اسطفانوس وأبرقت عيناه وأخذ ينتفخ ويعالج مجلسه ليلفتها الى جمال عينيه وعظيم هيبته ، وهي لا تزداد بذلك الا

نفورا منه حتى ضاقت ذرعا بتلك الجلسة وهمت بالنهوض • واذا بالعم زكريا أقبل مسرعا يقول : «ان جارنا ابا الحسن بعث يستأذن في السهرة عندنا» •

فلما سمع مرقس ذلك بغت وقال : «دعه يدخل من الباب الاخر ، ونحن قادمون لملاقاته وأنر القاعة الكبرى بالشموع جيدا» • ونهض ، وأخذ يمسح شاربيه ولحيته ويصلح هندامه ، ودعا اسطفانوس للدخول معه ؛ وتركا دميانة لتذهب الى غرفتها من طريق اخر لئلا يراها الضيف او الجار • ولم يكن الحجاب يومئذ شائعا عند القبط ، او لعله كان في اول شيوعه وسببه على الغالب ان المسلمين كانوا يحجبون نساءهم عن النصارى كما يحجبونهن عن سواهم ، فلما كانت اقامتهم بالمدن لم يكن لذلك تأثير على القبط ، فلما نزلوا القرى وجاوروا القبط اصبح القبطي اذا زار جاره المسلم رآه يحجب عنه امرأته وسائر نسائه فأصبح هو يفعل ذلك اذا زاره المسلم فيحجب اهله عنه ، وتنوقل ذلك في الاعقاب بتوالي الاجيال حتى صار عادة محكمة فرضها تقليد المحكوم للحاكم •

* * *

اما دميانة فأخذ قلبها يدق عند سماعها اسم ابي الحسن وعزمه على الزيارة في تلك الساعة • وكانت زياراته نادرة قلما يأتي الا لغرض • وتذكرت مقابلتها سعيدا في ذلك المساء فحدثتها نفسها بأنه قد يكون قادما لشأن يتعلق بها ، وأصبحت شديدة الشوق لمعرفة ما اذا كان سعيد آتيا مع ابي الحسن• ووقفت هنيهة تفكر في ذلك بعد ذهاب ابيها اسطفانوس، ثم اتجهت الى غرفتها وهي تتوقع ان يأتي زكريا ليطمئن بالها ، فتشاغلت بتبديل ثيابها حتى اتى فسألته فقال : «اتى ابو الحسن وحده يا سيدتي

وهذه الزيارة لاسطفانوس وليست لوالدك فقد سمعت ابا الحسن يذكر انه لما علم بوجود اسطفانوس ابن المعلم حنا في القرية اغتنم الفرصة للسلام عليه» .

فأجابت دميانة بقلب شفتها السفلى وهي تعجب تهكما واستخفافا ولسان حالها يقول : «ما شاء الله ، ابن المعلم حنا ، شيء عظيم ، وزيارته فخر كبير !»

فلحظ زكريا ذلك منها فقال : «لا تستخفي به يا مولاتي فان أباه يكاد يكون صاحب النفوذ الاول وليس اكثر نفوذا منه الا الماردانـي صاحب الخراج ..»

فقطعت حديثه قائلة : «هل جاء ابو الحسن وحده ؟»

فابتسم وقال : «نعم وحده» .

فقالت : «اراني أهم بأن انام» .

قال : «ألا تتناولين العشاء ؟» . قالت : «لا اشعر بالجوع» . فتركها وخرج .

اما ابو الحسن فقد كان كهلا جليل القدر مع انس ولطف ، جاء في ذلك المساء بلباس البيت وهو جلباب من الحرير المخطط فوقه عباءة رقيقة، وعلى رأسه طاقية حولها عمامة صغيرة . وكان مرقس واسطفانوس قد سبقاه الى القاعة وهي غرفة واسعة مفروشة بالبسط والسجاد الجميل وعلى نوافذها ستائر من الديباج المطرز صنع (تنيس) مما يندر اقتناؤه في القرى ، وعلى جدران القاعة صور دينية ، وفي الوسط مشمعة كبيرة قد أنيرت شموعها ، وحول الابسطة وسائد مطرزة بقرب الجدران .

فلما أقبل ابو الحسن خف مرقس لاستقباله والترحيب به ، فسلم ابو الحسن عليه ثم سلم على اسطفانوس وقال له : «لقد آنست قريتنا يا معلم اسطفانوس» .

فقال : «ان الانس بجوارك يا سيدي» •

ودعاه مرقس الى الجلوس على وسادة قدمها له فقعد عليها ، وبعد ان تبادلوا التحية والسلام مرارا قال ابو الحسن : «لماذا لا يأتي المعلم حنا والدكم لقضاء بضعة ايام عندنا يستريح فيها من عناء الاعمال ويبعد عن ضوضاء الفسطاط ؟»

قال وهو يشمخ بأنفه افتخارا بوالده : «ان الشواغل عنده كثيرة يا سيدي ، اذ لا يخفى عليكم اهمية مركزه • وقد ألف العمل حتى غدا لا يرى راحة الا به وكثيرا ما اتوسل اليه ان يخرج للتنزه فلا يرضى» •

قال ابو الحسن : «أظنه الان منهمكا في حسابات الخراج والعشور لهذا الفصل » •

قال : «نعم ولا ادري متى يفرغ من العمل ، فان كل ايام السنة عمل عنده ، حتى اننا لا نراه في منزله الا نادرا واذا جاء المنزل تهافت عليه الوجهاء بين زائر يستشيره او صاحب حاجة يتوسل اليه او متخاصمين يحكمونه» • قال ذلك تفاخرا وبدا الاعجاب في وجهه فهو يفاخر الناس بحكمة ابيه ووجاهته ونسي انه غر خامل قد يكون سببا في ذهاب تلك الوجاهة ــ وذلك دأب كثيرين من ابناء الوجهاء لا يضيع احدهم فرصة يدخل فيها اسم والده في الحديث ، واذا سنحت له تلك الفرصة استأثر بالجلسة وأخذ يعدد مناقب الوالد ووجاهته فيقص على سامعيه من نوادره ومعجزاته ما يثقل سمعه ويعسر تصديقه ، وقد يتلطف في الاستطراق الى التحدث عن والده بأسلوب يوهم به السامعين ان ذكر الوالد جاء عرضا ثم يعمد الى القص والاطراء ــ ذلك هو شأن صغار الاحلام ضعاف الرأي واسطفانوس واحد منهم •

***

وكان ابو الحسن من ذوي العقول الراجحة ، واسع الصدر يغضي عن الصغائر وينظر الى الجوهر فقال : «أظنكم تقيمون بالفسطاط الان ؟»

قال : «كنا نقيم هناك ثم انتقلنا الى بابلـون بجانب الفسطاط لان الفسطاط كثيرة الازدحام وأبي يحب السكينة في ساعة الرقاد» .

قال : «لا أظنه ترك الفسطاط لازدحامها فقط ولكنكم تفضلون الاقامة ببابلون لان سكانها من القبط فتكون اماكن العبـــادة قريبة منكم» . وتبسم .

فأدرك اسطفانوس اشارته فقال : «يستطيع الانسان ان يعبد ربه حيثما يكون ، والقبط الان كما لا يخفى عليك في راحة وطمأنينة بفضل اميرنا الحالي» .

فتنهد ابو الحسن وأطرق ، فابتدره مرقس قائلا : «احمـد الله ان الاحوال تبدلت وأدرك حكامنا المسلمون ان محاسنة القبط أولى» .

قال : «أتحسب ما ارتكبه بعض الامراء المسلمين من ظلم القبط كان بأمر الخلفاء او انه من قواعد الدين الاسلامي ؟ كلا ، ان الاسلام يأمر بالحسنى ، يدلك على ذلك ما كان من رفق المسلمين في صدر الاسلام على ايام الخلفاء الراشدين ، وان النبي عليه الصلاة والسلام قد اوصى بالقبط خيرا ، وانما هي مطامع بعض الولاة لا يريدون لها التعصب على دين بل يرمون من ورائها الى ابتزاز الاموال . ولو ارادوا بها غير ذلك لما اصابنا نحن الشيعة ما تعلمونه من الاضطهاد ، حتى منعونا ركـــوب الافراس والخروج من الفسطاط وحظروا علينا اتخاذ العبيد الا العبـد الواحد ، واذا كان بيننا وبين احد الناس خصومة قبل قول خصمنا فينا بلا بينة» . وسكت ابو الحسن هنيهة ثم استأنف الكلام قائلا : «حتى هذا الوالي احمد بن طولون فانه انما يحاسن ويجامل لغرض في نفسه..»

فاعترضه اسطفانوس قائلا : «وكيف ذلك يا سيدي ؟ وقد أحسن

جوار القبط ورفع عنهم كثيرا من المظالم وهل في الرفق بهم وسيلة الى تحقيق مطمع لحاكم ؟»

قال : «ان ابن طولون داهية كبير النفس ذو تعقل ودهاء ، ألا ترى انه لم ينزل في الفسطاط ؟ فلماذا ؟ لماذا ترك قصر الامارة والمسجد فيها وابتنى لنفسه وجنده قطائع خارج الفسطاط بجوار المقطم انفق فيهـــا الاموال الطائلة ؟»

فأطرق اسطفانوس ولم يحر جوابا . فاستأنف ابو الحسن كلامه وقال: «اعلم يا بني ان ابن طولون هذا تركي الاصل، وهذا العصر عصر الاتراك، فبعد ان كانت الدولة للعرب وكان امراؤها وقوادها من العرب اخذت السياده تتحول عنهم الى الاتراك حتى اصبحوا اهل النفوذ والسطوة في بغداد وسامرا ، ومنهم اكابر الولاة والامراء والاشراف ، وأظنكم لحظتم انحطاط شأن العرب في مرافق الدولة في الفسطاط نفسها ، حتى صار الولاة الاتراك يعدون العرب منافسيهم ويخافون من انتقامهم فلا يأمنون القيام بينهم فأخذوا يبنون المنازل الحصينة لانفسهم خارج المدن التـــي يقيم بها العرب ، وقد بدأ بذلك الخليفة المعتصم فخرج بأتراكه من بغداد وابتنى لهم مدينة سامرا . والفسطاط كما تعلمون بلدة عربية فلما استتب الحكم لابن طولون ابتنى القطائع بين الفسطاط والمقطم على بعد الماء عنها، واضطر الى انفاق الاموال الطائلة في جر المياه ، وأظنكم تعلمون ان حبيبنا سعيدا قد اخذ على نفسه جر الماء الى القطائع وأخبرني ان الامير أنفق في ذلك مالا كثيرا» .

فقال مرقس : «صدقت يا جارنا العزيز ، وقد لحظت انا ايضا ان اميرنا المشار اليه يطمع فيما لم يطمع فيه سواه من الامراء السابقين . يطمع في ان يستقل بحكم مصر» .

فقطع ابو الحسن كلامه قائلا : «لقد استقل بها وقضي الامر وفاز

على ابن المدبر صاحب الخراج الذي كان يسوم الناس الخسف والذل ويبتز الاموال بغير حساب ، سبحان من انقذكم منه ..»

قال مرقس : «شكرا لله على ذلك . ونشكره على شيء اخر ايضا كان له أثره في تحسين احوالنا وتخفيف الضرائب عنا» .

قال : «أظنك تعني الكنز الذي عثر عليه ابن طولون في الجبل ، ان عثوره على الكنز سد كثيرا من حاجاته فخفف المظالم عن الناس» .

قال ابو الحسن : «ان المال المذكور خفف الضرائب . أما محاسنته القبط وتقريبهم اليه فسببها رغبته في اكتساب الاحزاب لما قدمته من سوء ظنه بالعرب فاتخذ القبط حزبا له ؛ وكذلك قل عن الشيعة فانه يرى في محاسنتهم سياسة ودهاء» .

قال مرقص : «فهو يبني القطائع اذن خوفا من مساكنة العرب بالفسطاط ؟ ما شاء الله ، شيء جميل !»

فضحك ابو الحسن وقال : «والقبط يسكنون بابلون خوفا من العرب ايضا ، حتى اصبحت لهذه الديار الان ثلاث عواصم : الفسطاط للعرب المسلمين ، والقطائع للاتراك المسلمين ، وبابلون للقبط» .

***

سكتوا جميعا هنيهة ، ثم اراد مرقس ان يجامل ضيفه ويسايره فلا يقطع الحديث فقال لابي الحسن : «اظن سعيدا ما زال في القطائع يعمل في جر المياه ولو كان هنا لزارنا معك» .

فاستبشر ابو الحسن لفتح الحديث فقال : «بل هو هنا وقد جاء اليوم وأخبرني انه فرغ من بناء العين وسيعود قريبا للاحتفال بجر الماء اليها وهو يتوقع من نجاحه تقدما كثيرا» .

فقال : «ولماذا لم يزرنا معك ؟»

فسعل ابو الحسن ومسح لحيته بكمه استعدادا للحديث وقال : «لم يأت لانه وصل الساعة فقط وهو تعب ، على ان هناك امرا اخر أغتنم وجود حبيبنا اسطفانوس هنا لأعرضه عليك» •

فتطاول الرجلان نحوه لسماع ما يقول فوجه خطابه لمرقص وقال : «لا تخفى عليك منزلة سعيد عندي فهو على كونه نصرانيا قد اتخذته صفيا لي ، وأحببته كما يحب الوالد ولده ، وهو ماهر في الهندسة ولم يوجد في مصر كلها من استطاع الاقدام على بناء تلك العين سواه» •

فصادق مرقس واسطفانوس على قوله بالرأس وبالعينين ، فقال ابو الحسن يخاطب مرقص : «أظنك تعرف سعيدا ، كيف تراه ؟»

قال : «اراه شابا جميلا ماهرا في الهندسة ويحبه كل من عرفه» •

قال : «هل تحبه انت ؟» • فقال : «كيف لا احبه ؟»

قال : «بناء على ذلك ، وقد قلت لك اني بمنزلة ابيه جئت بالنيابة عنه لألتمس منك امرا ارجو من الحبيب اسطفانوس ان يساعدني في الحصول عليه» •

فخفق قلب اسطفانوس لانه ادرك الغرض المطلوب ، ولكنه تظاهر بالقبول وقال : «اني طوع امرك يا سيدي» •

فقال ابو الحسن : «جئت أخطب اليك ابنتك دميانة الى حبيبي سعيد فهل تخذلني وترفض طلبي ؟»

فوقع الطلب وقوع الماء الحار على بدنيهما وأجفلا وسكت اسطفانوس، اما مرقص فأجاب جوابا مضطربا مجاملة ، فأدرك ابو الحسن اضطرابه وتردده ولم يأبه بالمجاملة لانه قرأ الانكار في عينيه واكتفى بما لحظه وأهل الاحساس يقرأون الفكر خلال الانكار ، وبعضهم يدرك مرادك قبل ان تتكلم • وكان ابو الحسن من هؤلاء فأيقن بفشل مهمته لكنه تجاهل وقال : «انا أعلم ان اجابة طلبي تقتضي ترويا ونظرا فأمهلك ريثما

تتبصر فيه» •

فأحس مرقص عند هذا الاعتذار كأنه كان في سجن وأفرج عنه ولو كان له شجاعة ادبية لقال له : «انها مخطوبة» • اذ قد سبق ووعـد اسطفانوس بها ولكنه خشي الصراحة وحسبها خشونة فلما سمع كلام ابي الحسن ابتسم وقال : «طبعا سأنظر في الامر والذي يقدره اللـه يكـون» •

وأسرع ابو الحسن حالا الى تغيير الحديث فطرق موضوعات مختلفة ثم وجه خطابه الى مرقص قائلا : «ارجو من فضلك يا جارنا العزيز ان تساعدني على الحبيب اسطفانوس فاني احب ان يؤانسني بزيارة وآن تتفضل انت معه» •

فتصدى اسطفانوس للجواب قائلا : «اشكرك يا سيدي . كنت أود ذلك من صميم قلبي اولا اني عزمت على العودة غدا» •

قال : «الى اين ! • لقد تعجلت الرجوع وأنت لم تأتنا الا الساعة» •

قال : «نعم جئت لاخذ المعلم مرقص معـي» • قال : «تاخذه ؟ الى اين ؟»

فضحك مرقص وقال : «لا تخف . ليس الى السجن ولا الـى الصلاة » •

فقطع اسطفانوس كلامه قائلا : «بل الى الصلاة ألست ذاهبا لحضور عيد الشهيد ؟»

قال : «اننا ذاهبون لحضور الاحتفال ولا بأس من حضور الصلاة» •

فقال ابو الحسن : «أظنكم ستذهبون على هذه الدهبية ، لمشاهدة الاحتفال في النيل» •

فرأى اسطفانوس من اللياقة ان يدعوه لمرافقتهم فقال : «ان منظـر الاحتفال في النيل بهيج جدا فهل تتفضل وترافقنا في هذا السفر ؟ وهذا

الاحتفال مع كونه نصرانيا فان المصريين على اختلاف أديانهم يشتركون فيه لانه في الحقيقة احتفال وطني» .

فاستغرب ابو الحسن قوله وقال : «هل هو عيد شم النسيم او النيروز او فتح الخليج حتى يعد قوميا !»

قال : «اعتبروه وطنيا لانه حل محل احتفال كان شائعا في مصر قبل دخول العرب فلا شك انك تسمع بضحية النيل الفتاة الجميلة التي كان أسلافنا يزفونها الى النيل ويلقونها فيه كل سنة استدرارا لمائه» .

فقاطعه ابو الحسن قائلا : «نعم سمعت حديثها، ولكن المسلمين ابطلوا هذه العادة على ما أعلم» .

قال : «نعم أبطلوها ، ولكن القبط ما زالوا يخافون غضب النيل اذا لم يزفوا اليه شيئا فابدلوا بالضحية المشار اليها اصبعا من اصابع شهدائنا الاولين تلقي في النيل كل سنة قبيل فيضانه فيحتفلون بذلك في الثامن من بشنس ويضعون الاصبع في تابوت يلقونه في النيل فياخذ في الزيادة من ذلك اليوم» .

* * *

وكان ابو الحسن مصغيا يسمع فلما فرغ اسطفانوس من كلامه اظهر سروره بما استفاده وقال انه كان يود ان يجيب دعوته ويرافقه ، ولكنه يؤثر البقاء في المنزل اكراما لسعيد لانه قادم من سفر وربما لحق بهم بعد حين ، الى ان قال : «واذا لحقنا بكم نعرف دهبيتكم من رايتها ، أليست هي راية الماردان؟»

فخشي اسطفانوس اذا ألح في الدعوة ان يرافقه في الدهبية وربما جاء سعيد معه وقد اصبح لا يطيق رؤيته غيرة منه على دميانة فاكتفى بقوله : «نعم هي للماردان وأرجو ان تلحقوا بنا فيكون حظنا كبيرا» .

وسكت وانتبه ابو الحسن الى انه اطال الجلوس قبل العشاء فاعتذر وانصرف . ولما خلا اسطفانوس بمرقس نظر اليه نظرة استعطاف واستفهام. فضحك مرقس واتخذها ذريعة لاظهار فضله على اسطفانوس وقال : «لا تخف يا عزيزي ، لو طلب دميانة ابن طولون وكان نصرانيا لما سمحت بها لسواك » .

فأثنى اسطفانوس على تفضله وحسن رأيه فيه ، ووضع يده على كتفه تحببا كأنه يحاول ضمه وقال : «بارك الله فيك يا اخا الرجال . لقد طالما اثنى ابي على لطفك وفضلك ، وذكر العلاقات الودية القديمة بين أسرتينا » .

فاغتنم مرقس ذكر ابيه فقال :«ان أباك المعلم حنا ينسى القديم ولا يذكر غير الجديد ، فقد فرحنا بتقدمه في ديوان الخراج حتى اصبح كاتب الماردانى ولكن هذا قلما افاده او افادنا» .

فأدرك اسطفانوس انه يلمح الى امر يريده من ابيه فقال : «لا تظن ابي ينسى اصحابه ، ولا أظنك نسيت تخليه عن الضريبة المتأخرة على ضيعتك من ايام الظلم» .

فقال : «انه فعل ذلك بأمر ابن طولون كما تعلم ، على اني لا أشك في ان أباك لا يدخر وسيلة في التخفيف عنا ، ولي عنده ملتمس لا يكلفه عناء . سأذكره لك بعد حين» .

وكانا يتكلمان وهما خارجان من القاعة بعد ان ودعا ابا الحسن . وكان الخدم قد أعدوا الطعام فوضعوه على المائدة حالما علموا بخروج ابي الحسن فقعد الصديقان ساعة اخرى للطعام والشراب ، ثم أوى كل الى فراشه .

- ٤ -

الصعود في النيل

نهض الخدم في صباح اليوم التالي يحضرون اللحـــوم والخضر والفاكهة والخمور لتحمل الى الدهبية طعاما اثناء الرحلة . والتصعيد في النيل في فصل الربيع جميل جدا لان السفينة تجري فيه هادئة لا يزعجها نوء ولا يكدر ركابها رائحة البحر المالح فلا يخافون خطرا ولا دوارا يقضون نهارهم مستمتعين بمناظر الطبيعة ، فاذا توسطوا النيل شاهدوا روعة الضفتين وما وراءهما من السهول الملونة بين خضراء وحمـــراء وصفراء على اختلاف حال الزرع من النمو او النضج . واذا جاوروا احدى الضفتين استأنسوا تارة بأنين السواقي وخوار ثيرانها ، وطورا بسعاء الماعز تسرح في بساتينها ، وآونة بغناء الغلمان الذين يرفعون الماء بالشادوف ويوقعون الحانهم على حركاته . وترى هنا غلاما راكبا حمارا يسوق امامه بقرة ، وهناك رجلا يسوق بعيرا ، ويعترض منظر السهول الخضراء كثير من الشجر والنخل الذي كأنه مظلات مغروسة في الارض او كما قال الشاعر (١) :

وللنخيـــل منظـر مهيب　　　تراع مـــن جماله القلـــوب
فوق الضفاف ظلهـا رهيب　　　صفا بصـــف زانهـا الترتيب
من كل جبار عظيم القدر

تحسبها مـردة طـــوالا　　　تحت مظـــلات زهت جمـــالا

١ ـ الياس فياض ، من قصيدة في وصف ليالي مصر .

في النيل جاءت تبتغي اغتسالا　　سحرها النيـــل فلـــن نزالا
واقفة هنا بفعل السحر

ويزداد منظر الشاطئين جلالا وجمالا في الليل ولاسيما اذا كانت الليلة مقمرة وقد هدأت الطبيعة وسكنت الرياح وأوت الطيور الى أوكارها وتكسرت أشعة القمر على سطح الماء كما وصفها ذلك الشاعر بقوله :

والنيـــل يجري تحتنا غزيـــرا　　تهزنـــا موجاتـــه سرورا
كما تهـــز غادة سريـــــرا　　قد نام فيـــه طفلها قريـــرا
في مأمن من عاديات الدهر
والبدر يلقـــي وجهه في المـــاء　　سبائكا مـــن فضة بيضـــاء
تلمع اذ تمـــوج بالهـــواء　　كأنهـــا السيوف في الهيجاء
ما بين كر دائم وفر

وقد يتكاثر النخيل في بعض الاماكن حتى تتألف منه غابات غضـــة تتغنى فوقها الطيور وتتخللها أكواخ الفلاحين ٠

ناهيك بما يقع عليه بصرك من الابنية الفخمة من آثار الفراعنـــة وأكثرها في الصعيد ٠ اما الصاعد في السفينة الى الفسطاط فلا يقع بصره من تلك الآثار الا على اهرام الجيزة وقد يرى أبا الهول ٠

هذا والسفينة تسير نهارا وترسو ليلا ، ولاسيما في الربيع اذ يكون النيل في معظم انخفاضه وفي قاعه صخور يعرف الربان مواضعها فـــي النهار ويخشى ان يخدعه بصره او تخونه ذاكرته في الليل فلا يسيرون في النيل فيه ٠

قضى ركاب دهبية الماردائي اياما في طريقهم من قرية طاء النمل الى شبرا ، وقد تباطأوا عمدا لكي يصلوا الى الاحتفال في ابانه ، وكانـــوا

يتمتعون بمناظر الضفتين على نحو ما ذكرنا الا دميانة فقد كانت تقضي معظم نهارها منفردة تصلي او تتذمر ، وزكريا يؤانسها ويعزيها وقد ندمت على مجيئها وآثرت ان يغضب ابوها يوما او يومين ولا تحمل نفسها ما لا طاقة لها به من تكلف اللطف والمسايرة على الطعام او عند الكلام • وكانوا قد نصبوا في الدهبية مظلة جميلة فرشوا ارضها بالطنافس وزينوا جوانبها بأغراس الرياحين والازهار يجلسون فيها للحديث او الشرب او التفكه • ولم تجلس دميانة هناك قط ولم يظهر ذلك غريبا لابيها لانه تعود ان يراها منفردة في البيت تقضي اوقاتها في الصلاة او القراءة او تشغل نفسها بأمور بيتية لا تهمه • اما اسطفانوس فلم يكن يدخر وسعا في التحبب اليها تارة بتقديم الفاكهة او الزهور ، وآونة بلفتها الى منظر جميل او موقف غريب ، لعله يسمع منها كلمة استحسان او تلطف او ما يدل على وقوعها في شرك جماله او الافتتان بحديثه او ذكائه او الاعجاب بمنصب ابيه ونفوذه • وكان يحسب ركوبه في دهبية المارداني كافيا لرفع منزلته في عيون الناس • ولو كان من اهل الشعور الرقيق لادرك من اول مقابلة انها لا تطيق رؤيته ولا تريد عشرته ولو اظهرت اللطف احيانا عملا بأدب السلوك او احتراما لرأي ابيها •

وأطل ركاب الدهبية على شبرا في ظهر يوم صفا جوه فلم تقع أبصارهم الا على خيام مضروبة وأعلام منصوبة ، وبين ذلك شجر النخيل يناطح السحاب على ضفتي النيل وفي الجزر بينهما • فانتهز اسطفانوس تلك الفرصة وتقدم الى دميانة ، وكانت واقفة قرب السارية تتلهى بما يقع عليه بصرها في الضفتين محاذرة ان تلتقي به او يقابل وجهها وجهه فرارا من سماع حديثه ، فلما رأته يمشي اليها استعاذت بالله وعلا وجهها الاحمرار فتلهت بصليب معلق في عنقها كانت شديدة الحرص عليه اذ اهدته اليها راهبة من دير المعلقة كانت قد زارت طاء النمل لجمع النذور

وهي تعتقد فيه القداسة والكرامة • فلم يبال اسطفانوس ارتباكها • او لعله حسبها استحيت من مقابلته كما يستحي الحبيب من محبه • واغتنم انفرادها عن سائر اهل السفينة ليطارحها الغرام وأحب ان يتدرج الى ذلك بأساوب لطيف فقال : «لا ادري أأهنئك بهذا الصليب يا دميانة او أهنئه بك» •

فأدركت قصده وأحبت ان تؤنبه فقالت : «أبمثل هذا الكلام يتحدثون عن صليب السيد المسيح ؟»

فظنها تداعبه فقال : «لا أعني صليب المسيح وانما اعني هذا الصليب فانه نال مقاما يتحسر عليه كثيرون» • وتنهد وأبرقت عيناه ووقف ينتظر جوابها •

اما هي فتوردت وجنتاها وشق عليها ما يجول في ذهنه فأرادت ان تغير الموضوع فقالت : «حقا اني لم أشاهد احتفالا مثل هذا» ووجهت نظرها الى تلك المضارب •

فلم يشعر بما ينطوي عليه نقل الحديث من الاحتقار ، وسر لانها فتحت بابا للكلام فقال : «انه احتفال باهر ولذلك احببت ان تحضريه فجئت في خدمتك بدهبية صاحب الخراج ، وسننزل بعد قليل في فسطاط نصبوه لنا خاصة امام تلك الجميزة الكبيرة ؟» • وأشار بيده الى شجرة كبيرة امامها سرادق ثمين نصب ببابه علم يشبه العلم المنصوب على السفينة •

فعلمت دميانة انه سرادق المارداني ، وشق عليها النزول به مع اسطفانوس وهي تكره رفقته وتعلم فوق ذلك انها ستلاقي هناك ما تكرهه من موائد المدام وأباريق الراح ، فقالت وقد بدا في وجهها الاشمئزاز : «لا •• لا •• اسمح لي ألا أذهب» •

فقال معاتبا : «لا تخافي يا دميانة لست بنازلة فيه وحدك فان أباك

ذاهب معنا» •

فرفعت كتفيها وهزت رأسها اشارة الرفض ولم تتكلم •

فلم يكتف الشاب بذلك فقال : «وان كنت في ريب مما اقول فصديق والدك آت الان ويقول لك ما قلت» •

فتراجعت والتفتت لفتة من سمع صوت قادم فرأت العم زكريا آتيا نحوها وهو يهم بأن يكلمها فتوجهت اليه بكليتها فقال لها : «ألا تزالين عازمة على زيارة هذه الكنيسة يا مولاتي ؟» • وأشار الى كنيسة شبرا التي يختلفون باخراج التابوت منها كل عام •

ففهمت انه ينتحل وسيلة لتخليصها من اسطفانوس فقالت : «كثيرا ما اشتهيت زيارتها والتبرك بها ولاسيما في مثل هذا الاحتفال» •

فقال : «ان السفينة لا تلبث ان ترسو عند الشاطىء وقد استأذنت أباك في الامر» •

فقالت : «لقد احسنت يا عماه» • ومشت معه لتبديل ثيابها ، وتركت اسطفانوس على مثل الجمر وقد أحس انها تتعمد احتقاره فكظم ما في نفسه وذهب الى مرقس فقص عليه ما قالته له فقال : «وهل ساءك ذلك؟• ان بعدها في مثل هذا اليوم نعمة لان وجودها معنا في الفسطاط لا يوافق هوانا • ام جئنا لحضور الصلاة ؟• انها لا يلذ لها ان تحضر موائد الشراب فدعها تذهب لصلاتها ونحن نذهب الى مجلس السنا وسماع الغناء والضرب على العود والنفخ بالمزمار ، انها فرصة نادرة المثال فلا ينبغي اضاعتها» •

فلم يحر اسطفانوس جوابا ولكن قلبه اتقد غيظا • اما مرقس فتظاهر بأنه كان يود دميانة ان ترافقه فتحول اليها وقد تزملت بمطرفها ولفت رأسها بخمارها ووقفت تنتظر رسو السفينة فلما رأته توجهت اليه فابتدرها قائلا : «بلغني انك ذاهبة الى الكنيسة على ان صاحبنا اسطفانوس قد

أعد لنا فسطاطا لجلوسنا» •

قالت : «اني أوثر الذهاب الى الصلاة . وربما وافيتك الى المكان الذي تعنيه» •

قال : «لا احب ان ألجئك الى امر لا تحبينه • افعلي ما بدا لك • ومتى تفرغين من الزيارة ؟»

قالت : «لا أدري الان ولعلي آتيكم نحو الغروب» •

فقال : «حسنا • وأنا مطمئن لوجود العم زكريا معك • سيري بسلام» • قال ذلك ومشى الى صديقه •

– ٥ –

بين سعيد واسطفانوس

وقفت دميانة تنظر الى القوارب والحراقات الماخرات في النيل على عرضه وفيها الناس زرافات ووحدانا وقد مدت عليها الموائد للطعام والشراب • وما من حراقة الا وفيها أوعية الخمر وأطباق الفاكهة • وقد تزاحم الناس رجالا ونساء من اصحاب اللهو وأرباب الملاعب والمخنثين، وعلت ضوضاء المغنين والمغنيات والراقصين والراقصات وقد خلع بعضهم انعذار وفتكوا برقع الحياء • كانوا يرتكبون في ذلك الاحتفال انواع القصف ويجاهرون بالمنكرات حتى لتثور الفتن ويقتل الناس ويباع من الخمر خاصة في ذلك اليوم بما ينيف على مائة الف درهم او خمسة آلاف دينار • وقد ذكروا ان واحدا باع في يوم واحد باثني عشر الف درهم

فضة من الخسر . وكان اعتماد فلاحي شبرا دائما في وفاء الخراج على ما يبيعونه من الخسر في عيد الشهيد اذ يجتمع في ذلك الاحتفال عالم عظيم يملأ البر والبحر لا يحصيهم الا خالقهم ، بعضهم في القوارب والحراقات والبعض الاخر في الخيام .

واخذ ربان الدهبية يزاحم القوارب والحراقات والناس يوسعون لها لانها لصاحب الخراج حتى دنت من الشاطىء وقد مالت الشمس نحو الاصيل فتسارع البحارة الى انزال الركاب .

وتأهبت دميانة للنزول واذا هي تسمع بعضهم يقول : «هذه سفينة الوالي ، انظروا انظروا . انها سفينة ابن طولون ؟»

فلما سمعت ذلك أجفلت والتفتت فرأت بقرب الضفة الاخرى من النيل سفينة فخمة عرفت انما هي التي يعنونها لكنها لم تشاهد عليها الراية ، وتذكرت علاقة حبيبها سعيد بابن طولون فقالت في نفسها : «لعله على ظهر هذه السفينة» . وأطالت النظر اليها ترجو ان ترى ما يدلها على ذلك فلم تستطع تمييز شيء ولكنها سمعت الناس يستغربون مجيء هذه السفينة وهم بين مصوب ومخطىء ولم تنتبه دميانة الا والعم زكريا يناديها لتنزل فنزلت ووقفت تنظر الى تلك السفينة فرأتها تقترب من الشاطىء ودهبية المادراني تتقهقر الى الوراء لتخلي لها مكانا لترسو . فرجح عندها انها سفينة الوالي ولكنها لم تشاهد علمه عليها واستطالت الوقوف فاستحيت ومشت نحو الكنيسة . فمشى زكريا امامها وهو يوسع لها الطريق بين الباعة وأهل الشعوذة والغوغاء ، فقطعت مسافة طويلة بين الخيام وقد تصاعد الغبار وعلا الضجيج وهي مطرقة لا تلتفت يمينا ولا شمالا حتى وصلت الى الكنيسة وقد تزاحم الناس في صحنها وقل بينهم من جاء للزيارة او للصلاة . فدخلت الكنيسة وما تنسمت رائحة البخور الممزوج بدخان الشموع حتى انتعشت وخشعت فاستفهمت عن الصلاة

متى تكون ، فقيل لها انهم يبدأون بها نحو الغروب ويتولى رياسة القداس أسقف الفسطاط وكان من كبار الاساقفة وقد عهد اليه ان يرأس القداس هناك لقربه من شبرا ففرحت دميانة لان القداس سيكون فخما .

وأحبت ان تغتنم فرصة الانتظار لمشاهدة التابوت الذي فيه اصبع الشهيد فقيل لها انه موضوع في حجرة مقفلة بجانب الكنيسة لا يخرجونه الا في حينه . فاكتفت بالصلاة تشغل بها نفسها حتى يبدأ الاسقف قداسه، فتحولت الى أيقونة ولادة السيد المسيح وأخذت تصلي بحرارة وتطلب ما تشعر بأنها في حاجة اليه وهي لا تحتاج الى شيء مثل حاجتها الى التخلص من الشراك التي نصبت لها فتوسلت الى الله ان ينقذها من اسطفانوس فقد كان قلبها دليلها على انه ليس النصيب الذي تريده .

* * *

كانت دميانة تصلي وتتضرع ولا يلتفت احد اليها لاشتغال كل بنفسه، والعم زكريا منتح مكانا في الكنيسة يرى منه دميانة ويشاركها احساسها، وفيما هي غارقة في تضرعاتها سمعت سعالا أجفلها لانه وقع في أذنها وقوعا نبه عواطفها ولفت قلبها ، فالتفتت بغير قصد الى جهة السعال فرأت سعيدا مقبلا نحوها فتسارعت دقات قلبها وتولتها الدهشة وتوهمت انها في حلم لانها لم تكن تتوقع قدوم سعيد في تلك الساعة . فلما وقع نظرها عليه ابتسمت ووقفت لا تدري ماذا تفعل .

اما هو فمشى نحوها يبتسم ويقول : «أظنني أزعجتك يا دميانة ، سامحيني » .

قالت : «لم تزعجني يا سعيد ولكنك ادهشتني بهذا اللقاء على غير انتظار ، العلك اتيت لتحضر قداس الاسقف ؟»

قال : «أي أسقف ؟ كلا ، انما جئت لاراك» •

قالت : «جئت لتراني ؟ ومن انبأك اني هنا ؟»

فتنهد وقال : «علمته من وقوف سفينة المارداني بقريتكم ومن دعوة ذلك الشاب اياكم لتحضروا الاحتفال بعيد الشهيد» •

فأدركت ان ابا الحسن أخبره بما حدث ، وعلمت ان سعيدا لم يوافها الى شبرا الا غيرة عليها فانبسطت أسرة وجهها وازداد ميلها اليه فقالت : «وكيف انت ؟ هل تنوي البقاء هنا الى صباح الغد ؟ وأين تقيم ، وكيف؟» وتلعثم لسانها من شدة الفرح •

فقال : «اتيت في سفينة الوالي احمد بن طولون» •

قالت : «ان قلبي كان دليلي منذ رأيت تلك السفينة ، وهل ابن طولون فيها ! »

فأطرق سعيد وسكت لحظة ثم قال لها همسا : «هو فيها لكنه لا يريد الظهور للناس ، وقد اوصاني بأن أكتم مجيئه لانه جاء بناء على ترغيبي ، فقد كان دعاني في هذا الصباح ليكلمني بشأن العين والاحتفال بجر الماء اليها • فانتهزت هذه الفرصة المواتية ، وذكرت له الاحتفال بعيد الشهيد وما يجري فيه من الغرائب ، ورغبته في مشاهدته ليلا فرضي وأركبني معه على ان يشاهد ذلك سرا • فلما رست بنا السفينة استأذنته في زيارة الكنيسة ريثما يخيم الظلام ويبدأ الاحتفال فجئت ومررت بالفسطاط الذي كنت أحسبك فيه ، فرأيت أباك وصاحبه في زمرة من الشاربين والمغنين ، وعلمت انك اتيت الكنيسة فجئت» •

فقالت : «انها منة لا أستحقها ، فأنت باق هنا الى الصباح ؟»

قال : «سأبقى في السفينة عن بعد ، كيف انت الان ؟»

فهاج سؤاله أشجانها فأطرقت وتنهدت وأرسلت دمعتين رآهما سعيد تتدحرجان على خديها فأحس بهما كأنهما جذوتان وقعتا على قلبه فقال :

«ماذا ارى ، ما بالك ، ما الذي يخيفك يا دميانة ؟» وأدرك سبب بكائها فاستأنف الكلام قائلا : «لا تخشي احدا اذا كنت شجاعة كما أعهدك . ان ذلك الغلام سيرجع القهقرى كما رجعت سفينته امام سفينتي الليلة : انه لا يستطيع ان يلثم موضعا وطأته قدمي» . قال ذلك وبانت عليه امارات الاريحية والانفة .

فأعجبت به ولكنها كانت تخاف أباها فانقبضت نفسها ، وتجلدت فقالت : «أراجع انت الى السفينة الان ؟»

قال : «لا بد من ذهابي قبل الغروب ، الا اذا آمرتني بالبقاء لامر تخافينه فلا أبالي رضي الوالي ام غضب» .

قالت : «اما بقاؤك معي فغاية مرادي» . وتوردت وجنتاها وأتمت الحديث قائلة : «ولكنني لا اريد ان تغضب ابن طولون وهو الذي قدمك ورفع منزلتك ولكنني» . وسكتت .

قال: «لن يطول افتراقنا فاننا عما قليل نحتفل بجر مياه العين وبعد ذلك نجتمع ويكون اجتماعنا دائما ان شاء الله ، هذا اذا كنت تريدين» .

فتنهدت وقالت وهي تخفض صوتها لئلا يسمعها احد : «تسألني اذا كنت أريد ؟» هذا امر لا اجيب عنه ، سل قلبك يدلك عليه ولكن ماذا أفعل ؟» . وشرقت بدموعها .

فأدرك غرضها فقال : «فهمت . أما هذا المغرور الذي يتطاول اليك فانه لن يحصل منك على قلامة ظفر ، ومهما يكن من طول باعه عند صاحب الخراج فان صاحب مصر أطول باعا وأرفع مقاما» . وحانت منها التفاتة. فرأت العم زكريا مسرعا نحوها يقول : «ان الرجل آت» . قالت : «أي رجل ؟ »

قال همسا : «اسطفانوس» .

فلما سمعت اسمه تراجعت وامتقع لونها ، ونظرت فرأت اسطفانوس

داخلا يتمايل ويزيح الناس بيده ويمشي مختالا ، فبغتت حتى كاد الدم يجمد في عروقها .

ولحظ سعيد اضطرابها فهبت فيه الحمية وعزم على التفاني في الدفاع عنها . فتقدم حتى وقف بحيث يعترض اسطفانوس اذا اتجه نحو دميانة وقد كاد الشرر يتطاير من عينيه . ووصل اسطفانوس يترنح من السكر، فلما وقع نظره على سعيد ثاب الى رشده وتبخر سكره وثارت الغيرة فيه، وأخذته العزة بمنصب ابيه بعد ان رأى الناس يوسعون له ويحترمونه ، فأشار الى سعيد ان يفسح له طريقه فلم يجبه ؛ فمد يده وهم بأن يزيحه من الطريق وهو يخاطب العم زكريا وينهره ويقول : «ما هذا الوقوف هنا الى هذه الساعة ؟ ان مولاك ينتظركما وقد غربت الشمس» .

فلما رأى سعيد يد اسطفانوس ممدودة اليه دفعها عنه بعنف ، فتقهقر اسطفانوس حتى كاد يقع على الارض ، وكبر ذلك عليه في مشهد من الناس ، فعاد اليه وقد شرع يده كأنه يهدده وقال : «ما هذه القحة ؟ انا لا أخاطبك . امش في سبيلك» .

فدفع سعيد يد اسطفانوس عنه وقال : «امش انت . عد الى مكانك حتى تنتهي من سكرك» .

فأكبر اسطفانوس هذه الاهانة ، ومد يده الى جانبه كأنه يحاول ان يستل خنجرا ، فابتدره سعيد بلطمة على خده فدار على نفسه وقلب على ظهره وكان لوقوعه صوت لفت أنظار الجمهور . فارتبكت دميانة وخافت الفتنة وأمسكت سعيدا بيده وتوسلت اليه ان يتركه ويمضي لسبيله خوفا من الفضيحة فقال : «لا خوف عليك ليس للامر علاقة بك» . وتقدم الى اسطفانوس وهو يتحفز للقيام وهم بأن يركل بقدمه ، فتهافت الناس ومنهم من يريد الدفاع عن اسطفانوس لوجاهته عندهم وهم لا يعرفون سعيدا، وأراد بعضهم ان يرده فصاح سعيد : «ارجعوا والله لولا حرمة هذا المعبد

لأرقت دماءكم على بلاطه» •

فتراجعوا وعمدوا الى اللين ، وكان اسطفانوس قد نهض ورجع الى رشده وأدرك عجزه عن مناوأة سعيد فلجأ الى الحيلة فتحول من غضب الى عتاب ، وقال لسعيـــد : «اني لم أكلمك فلماذا تعتدي علي • ان أبا هذه الفتاة استبطأ غيابها فكلفني ان أدعوها ، فكأنك ظننتني أريد بها سوءا فأخذتك الغيرة عليها لانك جار ابيها على ما أذكر فتعرضت لي؟»

فلما رأى سعيد جبنه واحتياله ازداد احتقارا له فقال : «مهما يكن السبب فمثلك لا يليق ان يأتي لهذه المهمة وهو يترنح من السكر • فاذا كان ابو الفتاة يطلبها فليأت هو ليأخذها وأنا واقف هنا في خدمتها حتى يصـــل » •

فضحك اسطفانوس جبنا ورياء وقال : «كأنك لم تصدق قولي • اسأل العم زكريا فانه يعرفني • ثم اني لم أخاطب السيدة نفسها وانـــا خاطبت خادمها» •

فتقدم العم زكريا لفض المشكلة بالحسنى فخاطب سعيـــدا قائلا : «اشكرك يا مولاي • والمعلم اسطفانوس يشكرك ايضا على غيرتـــك وتفضلك ، ولعلك لا تعرف علاقته بسيدي فاننا جميعا في ضيافته اليوم» • ثم وجه خطابه الى اسطفانوس قائلا : «وأظنك يا مولاي تعلم ان المهندس سعيدا من ابناء طائفتنا ، وهو جارنا في المنزل وعزيز على سيدي ؛ ولم يقصد لك الا لامر انت •••»

فقطع اسطفانوس كلامه وعمد الى المداجاة والملاينة قائلا : «قد علمت انه من طائفتنا وان كان مقيما مع ابي الحسن • ولكنه لم يمهلني حتى أفهمه مرادي فنحن اذن اصدقاء» • وضحك •

فأتم العم زكريا كلامه قائلا : «وأما سيدتي دميانة فانها ستبقى هنا لحضور قداس الاسقف الليلة وأنا معها ولا خوف عليها» •

فقال : «اذا كان الامر كذلك فقد انقضت مهمتي وها أنذا راجع لاخبر صديقي المعلم مرقس بذلك» . والتفت الى سعيد وقال : «انا ذاهب يا صاحبي فهل باق انت هنا ؟»

فاستغرب سعيد ما رآه من جبنه وذله وصغر نفسه ، وأجابه بلا اكتراث : «نعم انا باق» .

فخرج اسطفانوس ولسانه يقول : «استودعك الله» . وقلبه يضمر الحقد وتدبير الاذى لسعيد .

وظل هذا واقفا حتى خرج اسطفانوس ، ثم هز رأسه والتفت الى دميانة وقال : «انه لخلق غريب ، هذا هو منافسي فيك . وكنت أود البقاء في خدمتك الى اخر الليل لولا اضطراري الى العودة بالسفينة وقد غابت الشمس وأخاف ان يغضب الوالي وأنت لا ترضين ان يغضب» .

فوقعت دميانة في حيرة وقد زاد احتقارها اسطفانوس واحترامها سعيدا وقالت : «لا أريد ان يغضب الوالي ، سر في حراسة الله» .

فأدرك من لحن صوتها انها لم تقل كل ما في خاطرها ، فنظر اليها وعيناه تتكلمان ، وهي تجيبه بعينيها وكلاهما يحاذر ان يلحظ الناس حاله . ولولا اشتغال الجمع بشؤونهم لم تتح لهما فرصة للكلام . فلما رأته دميانة ينظر في عينيها ادركت انه يستفهمها عن مرادها فقالت ثانية : «سر في حراسة المولى ورعاية السيد المسيح» .

قال : «فهمت ذلك من قبل ولكنني احسبك تضمرين شيئا اخر» .

قالت : «لا أضمر شيئا سوى اني ...» . ففهم مرادها وقال : «لا تبالي شيئا فما هي الا بضعة ايام حتى يخلو لنا الجو فاني عندما انتهي من جر الماء افوز برضاء الوالي فلا تبقى لصاحبنا هذا جسارة الكلام معك . ويظهر انه لم يعد يجسر على ذلك منذ الان ، ألم تري جبنه وخوفه ؟ اطمئني لا تخافي . أستودعك الله» . ومد يده وودعها وخرج .

اما دميانة فوقفت بعد خروج سعيد جامدة وقد ندمت على مجيئها الى الكنيسة لعلمها بأخلاق اسطفانوس . وأدرك العم زكريا قلقها فأخذ يخفف عنها ويحقر امر اسطفانوس في عينيها ويهون عليها غضبه وانه لا يستطيع امرا . ثم علت الضوضاء في الكنيسة وتصاعدت رائحة البخور وتعالت اصوات الترتيل وصلصلة المباخر فتوجهت الانظار نحو الاسقف داخلا بأثوابه الكهنوتية تتلألأ وبين يديه الشمامسة بالشموع والمباخر ، فاشتغلت بسماع القداس عن هواجسها اذ كانت تجد في سماعه لـذة عظيمة .

قضت في الصلاة وسماع القداس برهة وهي تفهم كل ما يقال ، لان الصلاة كانت لا تزال كلها بالقبطية وهي تفهمها جيدا . وكان الظلام قد أسدل نقابه فازدادت انوار الشموع ظهورا ، وكثر الزحام حتى تضايقت دميانة في موقفها . ولحظ العم زكريا ذلك فاستسهلها وذهب الى شماس يعرفه واستأذنه في كرسي ترتاح عليه بحيث تسمع الصلاة بعيدة عن الضوضاء . فأجاب الشماس طلبه ودعاها الى كرسي بجانب الهيكل بعيد عن الناس . فجلست عليه ووقف العم زكريا بين الحضور وهو يراعيها وينتظر اشارتها .

فلما جلست هناك اشرفت على الجماهير وأكثرهم من اهل القرى والعمال ، بين مصغ للقداس ومشتغل بالحديث . وفيهم النساء والاطفال والضوضاء غالبة لشدة الازدحام . ومع تلذذها بما تسمعه من التراتيل الروحية فان صورة سعيد لا تزال تعترض تصوراتها فاذا تذكرت ما دار بينهما اختلج قلبها ، واذا تذكرت اسطفانوس انقبضت نفسها . وفيما هي في ذلك رأت الجماهير يتفرقون وقد فتحوا في وسطهم طريقا دخلـه جماعة يحملون تابوتا عليه رسوم كنائسية . حتى اذا توسطوا الكنيسة، وضعوه على منضدة قائمة هناك وخشع الناس لرؤيته ، ودنا الاسقف منه

بالمباخر وأخذ يتلو الصلوات والادعية ويتضرع الى الله ان يقبل احتفالهم ويبارك النيل اذا القوا التابوت فيه والناس على دعائه •

* * *

فرغ الاسقف من الصلاة وأخذ الناس ينفضون ويخرجون ، فنظرت دميانة الى العم زكريا في المكان الذي عهدته فيه فلم تجده ، فارتبكت في امرها وأجالت نظرها في الجمع لعلها تجده بينهم فلم يقع بصرها عليه ، فازداد قلقها اذ خافت ان يخرج الناس كلهم ولا تراه • لكنها ما عتمت ان رأته داخلا مسرعا ، فسرى عنها ، ولما دنا منها سألته عن سبب غيابه فقال: «فكرت فيما نعمله بعد انقضاء القداس وأنا اعلم انك لا تحبين الذهاب الى فسطاط اسطفانوس فذهبت الى ابيك واستأذنته في ان نعود للمبيت في الدهبية» •

ففرحت لهذه الفكرة وقالت : «وهل أذن لك في ذلك ؟»

قال : «نعم ، هيا بنا اذا شئت» •

فنهضت ومشت في أثره حتى خرجت من الكنيسة فرأت ما ادهشها من الانوار الكثيرة في الخيام على الضفتين وفي الجزر وفيها المصابيح والمشاعل ، وقد تزاحم الناس وعلت ضوضاؤهم بين غناء ونداء وعربدة وقهقهة • ولفت نظرها ما شاهدته هناك من الانوار السابحة في النيل على الحراقات فانها كانت كثيرة ، وفي كل حراقة جماعة يشربون ويعربدون ويصيحون وقد اختلط حابلهم بنابلهم رجالا ونساء •

فأضاء العم زكريا مصباحه ومشى بين يدي دميانة في طريق قليل الزحام بعيد عن الشاطيء ، حتى اذا قابل الدهبية تحول نحوها ودميانة تقتفي أثره وعيناها شائعتان في عرض النيل تتفرس السفن لعلها تميز سفينة ابن طولون فلم تجدها ، وما زال العم زكريا حتى صعد بها الى

دهبيتهم ، وما دخلت غرفتها وبدلت ثيابها وجلست للاستراحة ، حتى جاءها العم زكريا بطعام تناولت بعضه وهي لا تشعر بالنعاس ، فصعدت الى مجلسها في اعلى السفينة وأعادت نظرها في الحراقات والسفن وهي تبحث عن سفينة ابن طولون وتظهر انها تتفرج على الحراقات فتحققت غياب السفينة . وكانت قد ضاقت بما تسمعه من ألوان العربدة في السفن حولها فأوت الى فراشها .

وأفاقت في فجر اليوم التالي على صراخ الناس عند خروج الاسقف والكهنة بالتابوت . وكانوا قد حملوه على قارب وعليه الازهار والرياحين وقد اخذ الكهنة في الترتيل والادعية ، والقارب يخترق النيل ، حتى اذا وقف في مكان يعرفونه أنزلوا التابوت في الماء ثم اعادوه وأخذت جماهير الناس تتفرق برا وبحرا .

ولم تشرق الشمس حتى رأت أباها عائدا مع اسطفانوس في حالة تشمئز منها النفس من السكر ، وهما يحاولان اخفاء حالهما حياء من دميانة وهي تتجاهل ما تراه وتتشاغل بشئونها .

وذهب اسطفانوس توا الى غرفته وبدل ثيابه ولبس ثوبا نظيفا وبالغ في التطيب والتعطر ولكن رائحة الخمر بقيت تتصاعد من فيه .

واغتنم اشتغال مرقس عنه وأتى الى دميانة وكانت وحدها جالسة على وسادتها ، فلما رأته قادما استعاذت بالله وأقبل اسطفانوس عليها وألقى التحية وهو يتضاحك واللؤم باد في وجهه وقال : «حقا ان جاركم رجل شريف غيور» .

فلم تجبه ولكنها تشاغلت باصلاح خمارها لعلمها انه يتذرع بما قاله الى الايقاع بسعيد وهي لا تطيق ذلك . فلما رآها ساكتة قال : «لماذا لا تجيبين يا دميانة ؟ لعله اوصاك بألا تكلميني ؟»

فنظرت اليه شزرا وأنكرت هذا التلميح . وبان الانكار في عينيها

وعمدت الى تغيير الحديث فقالت : «هل جاء ابي ؟ اين هو ؟»

قال : «نعم جاء وهل تريدين ان أقص عليه ما جرى بالامس في الكنيسة ؟ »

قالت وقد غلبت عليها الانفة : «كما تشاء ، افعل ما بدا لك» .

فضحك وقال : «لا . لا اقول شيئا لاني لا أحتاج الى نصرته في هذا الامر . ان اسطفانوس ابن المعلم حنا كاتب الماردانى لا يصبر على ما سمعه من دلت الجار العزيز» .

فلم تستطع صبرا على كذبه وريائه فقالت : «ولماذا صبرت على ذلك بالامس ؟»

قال : «أتريدين ان أبارزه في الكنيسة ؟» . وكأنه ادرك انه لا ينبغي له ان يبوح بما عزم عليه فقال : «ذلك حديث مضى . وقد اعجبتني غيرته على جارته . ولكنه اظهر طيشا وحمقا في دفاعه عنها . لا بأس . سامحه الله» . ثم تظاهر بالتلطف والتودد اليها وقال وهو يجلس على الطنفسة بجانبها : «اننا الان على أهبة الرحيل ، وقد قابلت الاسقف في هذه الكنيسة قبل مجيئي الى هنا» . قال ذلك وابتسم .

فلم تفهم مراده ، ولم تشأ ان تستوضحه فسكتت ، فقال وهو يدنو منها : «ألا تزالين مستسلمة الى الحياء مني ؟ ألم تفهمي حقيقة امري ؟»

فلما كلمها عن قرب فاحت رائحة الخمر من فيه فتباعدت عنه وأظهرت النفور ، فحسبها تداعبه فقال : «ما بالك تهربين مني وأنا لم ازد على التكلم معك فكيف اذا فعلت غير ذلك» .

فقالت : «انما هربت من رائحة الخمر فاني لا اطيقها» .

قال : «يا للعجب !. هكذا تنفرين من رائحتها . ينبغي لك ان تعتاديها والا فيكون عيشنا منغصا» .

فلم تزد على هز كتفيها وهي تنظر الى النوتية وهم يشتغلون برفع

المرساة وحل الشراع وادارة الدهبية للاقلاع . وسمع اسطفانوس خطوات مرقس فنهض لاستقباله وهو يقول : «أحس بالدهبية تدور بنا هل أقلع الربـان ؟ »

قال : «نعم اننا ذاهبون الى الفسطاط» . ثم وجه خطابه الى دميانة فقال : «ارجو ان تكوني سررت بهذا الاحتفال والفضل في ذلك لصديقي اسطفانوس فانه والحق يقال لم يدخر وسعا في سبيل راحتنا . أقدرنا الله على مكافأته» .

فسكتت هنيهة ثم قالت : «الى اين نحن مقلعون يا أبتاه ؟»

قال : «اننا ذاهبون الى مدينة الفسطاط نقضي فيها اياما . أظنك لا تعرفينها » .

قالت : «كنت احسبك راجعا بنا الى بيتنا» .

قال : «اراك شديدة الحرص على غرفتك وكتبك وأيقوناتك . وأنت الى هذا اليوم لم تخرجي من طاء النمل ولا شاهدت شيئا من مدائـــن مصر . ان الفسطاط مقر الوالي وأجناده المسلمين ، وفيها من الأبهـــة والزخارف ما لا تجدين مثله في القرى» .

قالت : «مالي وللابهة والزخارف . ان هذا لا يهمني كثيرا» .

قال : «انا اعلم انه لا يهمك ، ولكني احببت ان اريك شيئا جديدا» .

قالت : «أوثر الرجوع الى البيت» .

قال : «سترجعين قريبا . ولكن صديقي اسطفانوس دعانا الى قضاء بضعة ايام في منزل ابيه بمحلة بابلون قرب الفسطاط ، فـاذا كنت لا تحبين المرور بالفسطاط سرنا توا الى بابلون» .

ولما سمعت قوله استعاذت بالله وقالت : «اين نحن من دير المعلقة الان ؟ »

قال : «هو في طريقنا بين الفسطاط وبابلون» .

قالت : «اذا لم يكن بد من الذهاب الى غير بيتنا فاني احب زيارة هذا الدير ، لاني نذرت ان ازوره متى سنحت لي الفرصة ، وفي عنقي صليب من صلبانه» •

فسر مرقس لرغبتها في تلك الزيارة فقال : «ننزل في الدير اذا شئت » •

* * *

وكانت السفينة قد اقلعت ونشرت أشرعتها وأخذت تخترق عباب الماء ، ولم تمض بضع ساعات حتى أطلوا على قصر الشمع ، ودير المعلقة جزء منه • فمرت السفينة بين الروضة وقصر الشمع حتى رسب بباب القصر وهو يومئذ قريب من النيل ، فأخذت تنظر اليه وهو اشبه بالحصون منه بالقصور ، ووقفت السفينة بجانب بابه الغربي وهو باب عظيم الارتفاع قائم بين برجين عظيمين مستديري الشكل ، وفوق الباب نقش عليه صورة النسر الروماني • فأراد اسطفانوس مخاطبتها فقال : «ان دير المعلقة يا دميانة في احد هذين البرجين» •

فسكتت ولم تجبه فلما رست السفينة هناك ، اشتغل البحارة بوضع السلم للنزول • فنزل مرقس ونزلت دميانة في اثره ودخل بها الباب ثم صعد الى الدير وفيه بعض الراهبات فلما علمن بقدوم الضيوف خرجن للقائهم • ودعا اسطفانوس الرئيسة كي ترحب بدميانة• فخرجت لاستقبالها ورحبت بها وسارت معها الى الكنيسة وأرتها ما فيها من الاعمدة على اختلاف أشكالها والايقونات الثمينة فخشعت دميانة من تلك المشاهد وظهر السرور في وجهها على عكس ابيها • ولكنه اراد مسايرتها ليسهل عليه بقاؤها حتى ينتقل بها الى بابلون •

ولما استقر بها المقام قال لها : «اني ذاهب لقضاء بعض المهام في الفسطاط وربما بت الليلة هناك وأعود اليك في الصباح» .

فسرها ذلك وقالت : «افعل ما بدا لك انني هنا في خير وطمأنينة ولو مكثت في هذا الدير اشهرا لا أبالي» .

فودعها وخرج واسطفانوس معه ، وظلت دميانة وزكريا في الدير .

وقضت ردحا من الليل وهي تسمع ما يقصه عليها الراهبات من احاديث القديسين وعجائبهم ، واستأنست كثيرا بالراهبة التي كانت اهدتها الصليب وباتت على الرحب والسعة .

ولما اصبحت في اليوم التالي اسرعت الى الكنيسة للصلاة وبعد ان تعبدت اخذتها رئيسة الدير الى غرفتها وقد احبتها وعلقت بها . وفيما هما تتحدثان دخلت عليهما راهبة وعلى وجهها امارات الدهشة والسرور معا فابتدرتها الرئيسة بالسؤال قائلة : «ما وراءك ؟ خيرا ان شاء الله؟»

قالت : «الاسقف .. الاسقف آت لزيارتنا» .

قالت : «وأي اسقف تعنين ؟»

قالت : «اسقف الفسطاط» .

فبان البشر في وجه الرئيسة ونهضت للحال وأمرت بأن يتأهب الراهبات لاستقبال الاسقف ، وقامت دميانة معهن وسألت راهبة كانت بجانبها : «ارى ان الاسقف لا يزور الدير كثيرا» .

قالت : «يندر ان يزورنا الا لامر ذي بال ، فعسى ان يكون قدومه بشير خير» .

وما لبث الاسقف ان دخل والراهبات يرحبن به . فعرج اولا على الكنيسة حيث صلى فيها صلاة مختصرة ثم توجه الى غرفة الرئيسة فدخلها وفيها الرئيسة ودميانة . وأكبت دميانة على يده فقبلتها والتمست بركته ودعاءه فباركها وجلس على وسادة ، وأشار الى دميانة ان تجلس وقال

للرئيسة : «أليست ضيفتكم دميانة بنت المعلم مرقس ؟»

قالت الرئيسة : «نعم يا سيدي هل تعرفها ؟»

فسمعت دميانة اسمها وتعجبت وأطرقت حياء واجلالا ، فقال الاسقف: «عرفتها بالامس عندما كانت في كنيسة شبرا بدعوة من ولدنا اسطفانوس بن المعلم حنا كاتب صاحب الخراج ، وقد اوصاني بها خيرا ، وبالغ في الثناء على ابيها» .

فلما سمعت ذكر اسطفانوس انقلب سرورها كدرا ، وسكتت لا تبدي . فقال لها الاسقف : «ألم تكوني مساء الامس في كنيسة شبرا يا ابنتي ؟»

قالت وقد صبغ الحياء وجهها : «نعم يا ابتي كنت هناك وحضرت القداس وتبركت بدعائك» .

قال : «ببركة القديسين والابرار يا ابنتي . اني مسرور برؤيتك لفرط ما سمعته من الثناء على تعقلك وتقواك . هل تمكثين طويلا هنا ؟»

قالت : «لا ادري ولو خيرت لقضيت عمري هنا» .

فتبسم الاسقف تبسما ذا معنى وقال : «ان الاديار افضل المنازل للمسيحيين اذ يتفرغ فيها الانسان لعبادة الخالق والقيام بفروض الدين، ولكنني لا ادري اذا كانوا يأذنون في بقائك هنا طويلا» .

فأشكل عليها مراده واستغربت تصديه لهذا البحث عند اول مقابلة ولكنها تجاهلت وقالت : «اذا كان اهل الدير يخرجونني منه فلا حيلة لي» .

قال : «لا أعني ذلك فان رئيسة الدير وراهباته يرحبن بك كثيرا ، ولكنني أعني أباك المعلم مرقس . ما لنا ولهذا الان دعينا من هذا الحديث حتى يأتي ابوك» .

فأدركت انه يشير الى الامر الذي ترتعد فرائصها من ذكره ، ولكنها تجلدت وسكتت فحول الاسقف كلامه الى الرئيسة وقال : «كيف حال

الدير وراهباته . ارجو ان يكن في راحة» •

قالت : «هن في خير ببركة السيد المسيح ودعائكم» •

قال : «يظهر ان هذا الوالي التركي أرفق بالاقباط من أسلافه العرب » •

قالت : «نعم يا سيدي فانه منذ تولى امر مصر في شاغل عنا بشؤون دولته ، فلا ندري أخيرا يريد بنا ؟ ام يريد بنا شرا ؟»

قال : «أظنه يفعل ذلك عن رفق وحسن رأي . ادام الله هذه النعمة علينا » •

فقالت الرئيسة : «آمين» •

وفيما هم في ذلك اتت احدى الراهبات تقول : «ان المعلم مرقس يلتمس الدخول » • فقالت الرئيسة : «يدخل» •

ولم تمض هنيهة حتى أقبل المعلم مرقس فأكب اولا على يد الاسقف فقبلها ، وسلم على الرئيسة وأقبل الى دميانة يسألها عن حالها فقالت : «غمرتني الرئيسة بفضلها ولطفها فأنا شاكرة فرحة» •

فجاس مرقس وأخذ يكرر تحية الاسقف ويطلب دعاءه • ودارت الاحاديث بينهم عن الاحوال الجارية ، وذكروا الاحتفال بعيد الشهيد بالامس فأطرى مرقس روعته وما يرجونه من البركة في ماء النيل على اثر القاء اصبع الشهيد فيه •

ثم نهض الاسقف وخلا الى مرقس في غرفة وأقفلا بابها ، فأوجست دميانة في نفسها خيفة وتشاءمت من هذا الاجتماع •

اما الاسقف فلما خلا الى مرقس كلمه في شأن دميانة وان اسطفانوس راغب في خطبتها ؛ وأثنى على الخطيب ، فأجابه مرقس بأنه يعلم منزلة المعلم حنا كاتب المارداني وقد صادق ابنه اسطفانوس وعاشره ، ولا يرى مانعا من عقد الخطبة وقال : «وان امرا سعى فيه سيادة الاسقف نافذ لا

محالة وما دميانة الا ابنتكم المطيعة» •

فأثنى الاسقف عليه وقال : «على ان ولدنا اسطفانوس قد شكا الي جفاء الفتاة ونفورها ، فاذا كنت تعلم انها تكره الزواج ، فقل لي تفاديا لمشكلات ما بعد الزواج» •

قال مرقس : «تكره ؟ كيف تكره مثل هذا النصيب ؟• أحسبها تتردد حياء على عادة البنات في مثل هذه الحال• وهبها ترددت في اول الامر فلا بد من قبولها» •

قال الاسقف : «ألا يجوز ان تكون اختارت شابا اخر وقع من نفسها موقعا جميلا فنفرت من اسطفانوس ؟»

فهز مرقس رأسه استخفافا ودفعا لهذه التهمة وقال :

«ما انا ممن يخيرون بناتهم ، وليس عندنا بنات تختار ، ان البنت العاقلة هي التي تعمل برأي ابيها ، وأحر بها ان تعمل برأي سيدنا الاسقف، ونحن كلنا طوع ارادته» •

فتبسم الاسقف وأثنى على لطف مرقس ونهض يقول : «متى تضع عربون الخطبة» ؟

قال : «في الوقت الذي تعينه سيادتكم» •

فشكر له ومشى ، فخف مرقس الى الباب ففتحه له ، وكان احد الشمامسة ينتظر خروجه فتقدم اليه بالصولجان فتناوله ، وتلفت كأنه يبحث عن الرئيسة ليودعها فتقدمت وقبلت يده فباركها وقال لها : «أوصيك خيرا بدميانة سمية القديسة الشهيرة ، اين هي ؟»

قالت : «في الصلاة ، فانها لا تفتر عن العبادة ، حقا انها من اهل التقوى » •

قال : «صحيح ، ولكن لا أظنها تنوي الترهب» • وضحك •

قالت : «الا اذا اختارها السيد المسيح لخدمته» • ولما رأت الاسقف

يضحك ادركت انه يمازحها ويشير الى قرب خطبتها • فسكتت فأعـــاد الوداع وودع مرقس ومضى •

اما دميانة فلم تعتزل في غرفتها للصلاة فقط ولكنها خافت خلــوة الاسقف بأبيها وتوقعت ان يستقدماها للامر الذي تخافه وتنفر منه ، فتشاغلت بالصلاة وهي لا تفهم ما تقرؤه لقلقها وتبلبل بالهــا • وكانت ترقب حركات اهل الدير لتعلم ساعة خروج الاسقف فلما علمت انه مضى لسبيله شكرت الله على زوال الخطر ، وانتظرت ان تجد زكريا بين يديها عساه يطمئنها • وبعد قليل عاد زكريا ففرحت بقدومه وسألته عن سبب غيابه ، فقال :

«ذهبت في امر سترين ثمرته الان» •

فلم تفهم مراده فقالت : «وأي امر تعني ؟ ألم تر الاسقف ؟ آلم تعلم بخلوته مع ابي ؟»

قال : «كيف لا ؟ ولولا علمي بذلك ما ذهبت في هذه المهمة» •

فازدادت قلقا وبان ذلك في عينيها فابتدرها زكريا قائلا : «لا تقلقي يا سيدتي اسمعي قرع الباب ، ألا تسمعينه ؟»

قالت : «أسمعه ، وما ذلك ؟»

قال : «ان القادم هو ابو صاحبنا اسطفانوس» •

قالت : «ابوه ؟• المعلم حنا ؟» • قال : «نعم» •

قالت : «ما الذي جاء به ؟» • قال : «انا دعوته» •

قالت : «انت ذهبت اليه واستقدمته وكيف ذلك ؟ قل» •

قال : «لما علمت بمقابلة الاسقف لسيدي وأبيك ايقنت انه سيكلمه في الامر الذي يطلبه اسطفانوس ، وأنا اعلم ان أباه رجل عاقل يعرف حقيقة ابنه وانه ليس كفؤا لما يطلبه ، فذهبت وأسررت اليه الامر فرأيته كما كنت اظن ووعدني ان يأتي ليرى أباك» •

قالت والاستغراب باد في أسرتها : «آت لماذا ؟»

قال : «ليرجع أباك عن قبول ابنه» •

فتبسمت والدهشة تمتزج بابتسامتها وقالت : «يرجعه ؟ أتظنه يستطيع ذلك ؟»

وقطع كلامها وقع أقدام المعلم حنا في صحن الدير ، فذهبت الى نافذة تراه منها ولا يراها ، فرأته رجلا جليل الطلعة وقورا يبدو التعقل في نظراته ورأت رئيسة الدير كثيرة الاحتفاء به وهو يقول لها : «بلغني ان المعلم مرقس صاحب طاء النمل هنا» •

قالت الرئيسة : «نعم يا سيدي ، وقد كان الان مع اسقف الفسطاط وخرج الاسقف ، وأظن المعلم مرقس لا يزال حيث كانا» • قالت ذلك وهي تمشي بين يديه حتى أدخلته الغرفة فتركته مع مرقس وعادت أدراجها •

اما دميانة فكان اضطرابها عظيما ، وتقاذفتها الشجون فلا تدري أتستسلم لليأس ام تتمسك بحبل الرجاء ؟• وقد طالت الخلوة وهي تتساءل عما عسى ان تكون عاقبتها • وكلما سمعت وقع خطوات او فتح باب يخفق قلبها ، واذا بصوت المعلم حنا يودع أباها بلحن لم يعجبها ، فالتفتت فرأت وجه الرجل متغيرا وأبوها يتواضع له ويتقرب اليه عند الوداع بصوت خافت كأنه يعتذر عن خطأ ارتكبه ، فمكثت هنيهة كالضائعة ، فجاء زكريا ووجهه ينذر بما وقع فابتدرته قائلة : «لم يفلح الرجل على ما اظن» •

قال : «هكذا يظهر • اخبرني من سمع حديثهما ان المعلم حنا نصح لابيك برفض خطبة اسطفانوس وانه ليس اهلا لك • فجاراه ابوك في الكلام ثم اعتذر بوعد مسبق منه للاسقف وزعم الرجوع متعبا • وانه سيبذل جهده» •

فلما سمعت دميانة قوله وكانت في مكان لا يراها فيه احد لم تستطع ان تمسك نفسها عن ان تلطم خديها لطمة خفيفة وتقول : «ويلاه ما هذه التجربة ، ابوه نفسه يقول انه ليس اهلا لي» • وأخذت تبكي ثم اتجهت نحو ايقونة للسيد المسيح معلقة هناك وقرعت صدرها وتنهدت من أعماق قلبها وقالت : «الهي اصرف عني هذه الكأس • واذا رأيت اني مخطئة في نفوري من هذا الشاب فحببه الي واجعلني ارى خطئي» • وأطلقت لنفسها عنان البكاء •

فقال لها زكريا : «كفكفي دمعك يا مولاتي • سيأتي ابوك ، كفي عن البكاء واصبري، ولا تباليفقد قلتلك ان ذلك الغر لنينال قلامة ظفرك، سايري أباك ولا تبدي له جفاء واتكلي على المسيح وعلي» •

فاطمأن خاطرها وتراجعت ومسحت عينيها ثم مشت الى غرفتها فلقيها ابوها ، ولعله رأى أثر الدمع في عينيها لكنه تجاهل فقال لها : «انا ذاهب وقد ابيت الليلة خارجا ، اظن هذا يسرك يا دميانة اذ تفرغين للعبادة» • وضحك فسايرته في الابتسام فخرج ، وعادت هي الى همومها وزكريا يؤكد لها النجاة ويستمهلها حتى يمكن لسعيد عند ابن طولون بعد مد الماء في العين وما هذا ببعيد •

اما مرقس فبعد اجتماعه بالمعلم حنا وعلمه بانكاره الزواج بدميانة على ابنه • ذهب الكثير من آماله في المصاهرة اذ كان يرجو ان يستفيد من نفوذ كاتب الخراج فضلا عن صداقته لاسطفانوس ولكنه خامره الامل في رجوع المعلم حنا عن رأيه حبا لابنه •ولعل هذا الابن يغير مظهره لدى ابيه عندما يتزوج فيبقى عزيزا عليه ، ثم انه من جهة اخرى تمسك بقوله تنفيذا لكلمته وعملا بسلطته المطلقة على اهل منزله •

وفي اليوم التالي رأت دميانة اهل الدير في حركة ينظفون ويدبرون كأنهم يتأهبون لاستقبال زائر كبير ورأت بعض الراهبات ينظرن اليهـــا

نظرة ذات مغزى ولاسيما الرئيسة فقد كانت تجاملهـــا وتبتسم لها ، فتجاهلت وسألت الرئيسة عن سبب هذا الاستعداد فقالت : «ان سيدنا الاسقف قادم لزيارتنا في اصيل هذا اليوم ، وبما اننا استقبلناه بالامس على غرة فرأينا ان نستعد لاستقباله اليوم استبقالا يليق بمقامه لانـــه أسقف مدينة الفسطاط وله وجاهة وكلمة نافذة فضلا عن مركزه الديني» .

فلم يعجبها هذا الخبر وأرادت ان تعيد الاستفهام عن سبب مجيئه فخافت ان تسمع جوابا ينفر منه قلبها فسكتت ، ومضت ، فلقيها زكريا وقد علم ان الاسقف آت ليضع عربون الخطبة مع ابيها فأخذ يشجعهـا ويؤكد لها مساعدته وأن تمنعها لا يجديها نفعا في ذلك الحال الى ان قال لها : «ان الخطبة عقد يمكن حله ، وسواء حل هذا العقد ام لا . فلا تخافي يا سيدتي . ومع ذلك فقد يكون ابوك قد اقتنع بكلام المعلم حنا فيؤجل الخطبة الى وقت اخر» .

فقطعت كلامه قائلة : «لا تدع نفسك خادما فانك احنى علي من ابي، فاذا شئت فادعني ابنتك . وأما ما تقوله فلا يدعو الى الطمأنينة ولو كان ابي رجع عن عزمه لما كان ثمة داع الى قدوم الاسقف» .

قال : «اتركي الامر لي حتى اقول كلمتي» .

فقالت : «ومتى تقول كلمتك ؟. وهل تظنها تنفع ؟»

قال : «اقولها عند اليأس واذا لم تنفع فغيرها ينفع» . قال ذلك ومشى خوفا من ان تستزيده ايضاحا وهو حريص على الكتمان .

- ٦ -

خطبة دميانة

في اصيل ذلك اليوم جاء مرقس الى الكنيسة مرتديا أزهى ملابسه

ليقابل الاسقف ، ودنا من دميانة وهش لها وبش وأمسك بيدها وأخذها الى غرفتها ومد يده وأخرج من جيبه عقدا من الجوهر يتلألأ كالشمس وقدمه اليها وهو يقول : «ما اجمل هذا العقد يا دميانة» . وتوقع ان تمد يدها لتتناوله . فلما امتنعت استغرب وقال : «لماذا لا تأخذينه ؟ انه لك !» . وتقدم نحوها ووضعه في عنقها وهي ساكتة ، وحدثتها نفسها بأن تقطعه وتطرحه ارضا ، ولكنها امسكت عملا باشارة زكريا . فظنها ابوها رضيت فأكب على رأسها وقال : «اعلمي يا حبيبتي ان هذا العقد هدية من اسطفانوس وهو آت مع الاسقف ، وأنت تعلمين كم يحبه ويجله لانه ابن المعلم حنا وهو لطيف العشرة . أتعلمين فيما هو آت مع الاسقف ؟ »

فلما سمعت ذكر اسطفانوس لم تعد تملك قياد نفسها فقالت : «لا أريد ان اعرف» .

قال وهو يمازحها : «وكيف ذلك وأنت صاحبة الشأن اليوم ؟»

قالت وهي تغص بالكلام : «لا شأن لي في الامر . ولو كان لي رأي لما ألبستني هذا العقد ولا اتيت الى هذا الدير» . وشرقت بدموعها .

فقال : «ألا تزالين تؤثرين الاقامة بطاء النمل على الفسطاط قصبة الديار المصرية ومقر رجال الدولة ومحط رحال أعيان القوم ؟»

فتنهدت وسكتت مخافة ان يبدو منها شيء تندم عليه .

اما هو فجعل يغالطها ويفسر نفورها على غير الواقع فينسبه الى الحياء او الى الخوف على عادة البنات في مثل هذه الحال .

ثم وصل الاسقف واهتم اهل الدير لمجيئه فاستقبلوه بالترتيل والصلاة والبخور ، فدخل الكنيسة اولا وصلى صلاة حضرتها دميانة مع بقية الحضور ، خاشعة كعادتها اثناء الصلاة ، وجعلت تتوسل الى الله ان يلهمها ما فيه الخير ، واذا كان قد جعل اسطفانوس نصيبها فليحببه اليها،

وتضرعت كثيرا وهي تحاذر ان يراها احد ، وفيما هي في ذلك انتبهت فرأت اسطفانوس داخلا الكنيسة وقد لبس احسن ثيابه وأصلح هندامه ووقف بجانب ابيها ، فأجفلت عند رؤيته وكاد الدم يجمد في عروقهـــا وجعلت تناجي نفسها وتسأل قلبها فلا تراه يزداد الا نفورا ، وكلما قارنت اسطفانوس بسعيد جذبتها عواطفها الى سعيد ونفرت من اسطفانوس ؛ فقام في ذهنها ان الله لا يريده لها • ثم عادت فتذكرت ان الله يوصيها بطاعة الوالدين واكرامهما فوقعت في حيرة •

قضت في حيرتها اكثر وقت الصلاة ؛ والاسقف يروح ويجيء داخل الهيكل بثيابه المزركشة ، والبخور يتصاعد في فضاء الكنيسة مع اصوات الترتيل ، واذا بها تسمعه ينادي : «يا معلم مرقس» •

فالتفتت فرأت أباها يمشي متجها الى الاسقف ، فأسر اليه هذا شيئا، فعاد مرقس الى دميانة وطلب اليها ان ترافقه الى ما بين يدي الاسقف فمشت منقادة كما ينقاد الحمل الى الذبح • ونادى الاسقف اسطفانوس، فجاء ووقف هناك فرفع الاسقف يده وبارك وصلى ثم مدها الـــــى اسطفانوس وتناول منه خاتما صلى عليه وألبسه لدميانة وهو يتلو ما جرت به العادة وأعلن انه قد عقدت خطبة دميانة على اسطفانوس •

كل ذلك ودميانة ساكتة والدمع يتساقط على خديها وخافت ان تخونها قواها فتسقط على الارض فتجلدت • فلما وضع الخاتم بيدها لم تعد تملك قواها فوقعت على الارض فتراكضت الراهبات اليها ونضحنها بالمـــــاء المقدس ونسبن ذلك الى تعبها او حيائها ، وأتينها بزيت من مصباح امام صورة العذراء مسحوا به جبينها فأفاقت وحملنها الى غرفتها ، ولما أتم الاسقف الصلاة ذهب مع ابيها الى متوسدها وأخذ يخفف عنها تـــارة ويمازحها اخرى ، واسطفانوس يعلم ان ما هي فيه سببه فرط تأثرهـــا وانها قد غلبت على امرها رغم حبها لسعيد ، وا[illegible] بالخطبة

للتوعك الذي اصابها وتفرقوا •

وكان زكريا أشد الحضور تألما مما حدث ، وقد هم بأن يكلم مرقس في الامر قبل عقد الخطبة ، ولكن الاسقف لم يترك له مجالا وبادر الى اتمامها • فلما رأى ما اصاب دميانة صبر حتى ذهب القوم وطلب مقابلة مرقس وكان هذا قد هم بالخروج مع اسطفانوس فودعه على ان يلتقيا بعدئذ ورجع الى زكريا وقال : «ماذا تريد ؟»

قال : «اذا أذن مولاي بخلوة قلت له ما اريد» •

فأظهر تسلملا من هذا الطلب ولكنه مشى امامه الى غرفة دخلها وجلس على وسادة وقال : «ماذا تريد ؟»

فقال زكريا : «لا بد ان ما اصاب سيدتي دميانة قد أثر في نفسك كثيرا» •

فضحك متهكما وقال : «لا لم يؤثر فيّ وأراه أثر فيك انت فقط» •

فشق هذا التهكم على زكريا ولكنه تجلد وقال : «لم اكن أنتظر هذا الجواب يا سيدي وليس هذا ما اريد ان اقوله» •

قال : «قل ما تريد ، ان دميانة لم تركب رأسها الا بسببك ، ولولاك لكانت مطيعة راضية» •

فأطرق زكريا وهو يعمل فكرته ويستشير نفسه هل يجيب مرقس بما يستحقه ام يصبر عليه • واستبطأ مرقس جوابه ، فقال : «هل لديك شيء اخر تقوله ؟»

فقال : «عندي اشياء كثيرة ولكنني لا اقولها ما دمت تخاطبني بهذه اللهجة ، ولا ارى مسوغا لها ، كأن سيدي نسي حقيقة مركزي في منزله فأنكر اختصاصي بخدمة دميانة واخلاصي لها» •

فأجابه : «لم أنس ذلك ، ولكنك بالغت في اغرائها بأبيها ، حتى كادت تعصي كلمته» •

قال : «بماذا اغريتها يا سيدي ؟ أظنك تعني نفورها من خطيب اليوم. أقسم لك بالسيد المسيح اني لم أؤثر في رأيها ولا غيرت شيئا من عزمها، ولكني رأيتها نافرة منه ولو استعانتني في التخلص منه فان ضميري وذمتي لا يساعدانني على ردها» .

فابتدره مرقس قائلا : «وتجرؤ على ادعاء انك لم تغير عزمها ؟ ألم تكن راضية به يوم كنا في طاء النمل ، فما الذي جرى الان ؟ ولكنها لن تتزوج الا به رضيت او لم ترض» . قال ذلك والغضب باد في عينيه .

فأجابه زكريا بصوت منخفض يرتجف غضبا : «اذا أصررت على ذلك ماتت كمدا» .

قال : «لا . لا تموت كمدا الا اذا ظللت على اغرائها فانك تقتلها . دعها وشأنها ، دعها لابيها فانه ولي امرها» .

فأدرك زكريا تلميحه فقال : «انت تعلم يا سيدي اني لا أقدر ان أتخلى عنها عملا بالوصية التي أوصيت بها يوم ولادتها ، وقد مضى هذا الزمن ولم تر مني ما ساءك ، اما الان فأنا على يقين انها تكره هذا الشاب ، ولو دققت لحمها ولحمه في وعاء لما امتزجا وأنا انما اريد الخير لها ولك ، لانك اذا اصررت على اكراهها تقتلها او تكرهها على أمور لا ترضيك » .

فقال : «لا تجسر على شيء فهي ابنتي ولا تخرج عن طاعتي ، ولم تجر العادة بأن يترك البنات وشأنهن في الزواج يقبلن هذا ويرفضن ذاك. ام هي أعلم مني بما ينفعها ويضرها ؟»

فقال زكريا بهدوء ورزانة : «ولكنك تعلم ايضا ان لدميانة مع ابيها شأنا يختلف عن شؤون سائر البنات مع آبائهن» .

فوقع هذا القول على مرقس كالصاعقة رغم ان زكريا خفض من صوته ورغم تلطفه في التعبير ، وقال : «لا اعرف لها شأنا اخر» .

قال : «اذا كنت لا تعرفه انت فأنا أعرفه» .

فوقف عند ذلك مرقس كأنه يهم بالخروج وقال : «لا يهمني ما تعرفه ولكنني أنصح لك ان تخلي بيني وبين ابنتي ولا تغريها بمعصيتي» .

قال : «لو كان ذلك في طاقتي لخليتها ، ولكنني مؤتمن على امـــر يقتضيني ان احافظ عليها الى اخر نسمة من حياتي» .

فقال مرقس : «طيب افعل ما تشاء» . وخرج وقد ازداد عنادا .

* * *

سار مرقس توا الى صديقه اسطفانوس فرآه جالسا الى المائدة وبين يديه آنية الشراب وقد تناول شيئا منه . وآنس في وجهه عبوسا كأنه يشرب ليذهب غضبه فلم يفته السبب ، فبعد ان حياه وجلس اليه سأله عن سبب غضبه فأنكر الغضب في بادىء الرأي فقال مرقس : «لا تنكر علي ذلك فاني أعرف السبب» .

قال : «لو كان ذلك في طاقتي لخليتها . ولكنني مؤتمن على امر» .

فقال : «اسألك . لاني احب ان أعرف هل اصاب ظني» .

فقال اسطفانوس : «انت مصيب اذا كنت تظنني غضبت لما صدر من دميانة ، فهل تعرف سبب هذا العمل ؟»

قال : «أظنني أعرفه ، ان زكريا خادمها هذا النوبي يغريها بالعناد ، ولولاه لكانت أطوع لي من بناني ؛ وقد وبخته اليوم وأسمعته مـــا لا يرضيه» .

فابتسم اسطفانوس على رغم ما كان فيه من الغضب وقال : «انك ظلمت زكريا بهذا الحكم ، ليس هو سبب العناد ، انا اعرف السبب» .

قال : «وما هو ؟»

قال : «أتذكر ليلة جاءنا ابو الحسن وطلب دميانة لذلك الشـــاب

المهندس ؟ »

قال : «أأذكر ذلك ولكننا رددناه وليس له عندنا أرب» .

قال : «هذا ما تقوله انت ولكن سعيدا ما زال يتطاول الى تلك الامنية» . وهز رأسه حقدا .

فقال مرقس : «بماذا يرجو ان ينالها ؟ لا ، لا تصدق ذلك» .

قال : «كيف لا أصدق ؟ وقد رأيته يكلمها ويدافع عنها وهي تلجأ اليه وتتكل عليه ، شاهدت ذلك بعيني» .

قال : «ليتك قضيت عليه في تلك الساعة» .

قال : «لم اشأ ان ألوث يدي بدمه ولكنني سأنصب له فخا يكفينا شره ولا يحملنا وزره ، لست انا ممن يفاجئون الاعداء بقوة البدن فان المقاومة وجها لوجه لا تخلو من خطر . والعاقل من نال من عدوه بالحيلة والمكر ، فيرديه وينتقم منه بدون ان يسأله سائل ، فالنزال بالايدي او بالارجل من طباع البهائم ، وانما يحارب الرجال بالعقل . وسوف يرى هذا الرجل الذي لا يعرف أباه ان اسطفانوس لا يستهان به» . قال ذلك وهو يشمخ بأنفه ويصعر خده ويعد اقواله حججا دامغة . ولعل صديقه مرقس يوافقه عليها ، وقد يوافقه عليها آخرون فان القول بأن «الناس تتحارب بالعقول» وجيه لو انه لا يخفي عزمه على الايقاع بسعيد غدرا فهو يعد الخيانة والجبن حرب عقول . فاستخف بأمر سعيد وقال اسطفانوس: «ما لنا وله ؟ دعه وشأنه فانه أعجز من ان يصل الى دميانة ما دمت حيا، ولا أظنه الا سيقلع عن غيه متى صليت صلاة الاكليل وصارت دميانة زوجة لك » .

ففكر اسطفانوس قليلا ، فرأى ان صلاة عقد زواجه قد تسكت دميانة، لكنه بقي خائفا على نفسه من غضب سعيد وقد رأى انموذجا من شدته يوم الاحتفال فعزم على التخلص منه وأسرها في نفسه ولم يبدها لمرقس

فقال : «لا ريب ان المبادرة الى الاكليل خير وسيلة لقطع ألسنة الحاسدين وكبت أنفاس المبغضين ، ولكنني احب ان يكون ذلك برضا خطيبتي ، وبما ان سبب جفائها انما هو اغترارها بهذا الشاب لمنزلته من صاحب مصر ، فأحب ان تدرك خطأها قبل يوم الزفاف . ان ما يرجوه هذا الشاب من وراء ما صنعه لابن طولون انما هو أضغاث احلام ستظهر عند الاحتفال بفتح العين ، وسترى ذلك عيانا» .

قال : «متى يكون الاحتفال ؟»

قال : «بعد بضعة ايام وسأدعوكم لمشاهدة موكبه فأجلسكم في مكان مرتفع تشاهدون منه الاحتفال عن بعد كأنه بين ايديكم ، وستكون دميانة معكم وترى مصير ذلك المغرور فترجع الى صوابها وتذعن ويرتاح بالها» .

فاطمأن قلب مرقس وان كان لم يفهم نية اسطفانوس ، وتواعدا على الذهاب لمشاهدة موكب ابن طولون يوم الاحتفال ، فقال مرقس : «اين الاجتماع ؟ »

قال : «سأستأذن صديقا لي بالديوان في ان يدخلنا قبة الهواء القائمة على سفح المقطم ويختصنا بمكان يشرف على كل ما هنالك من السهول ، فنرى الحفل كأنه بين أيدينا» .

فاتفقا على الموعد وافترقا .

* * *

كانت قبة الهواء بناء اقامه أمراء مصر على سفح المقطم ، مكان القلعة اليوم ، وأول من بناها حاتم بن هرتمة في اواخر القرن الثاني للهجرة ، وجعل الامراء بعده يتخذونها مصيفا او متنزها . ولما جاء المأمون الى مصر سنة ٢١٧ هـ جلس فيها ، حتى اذا افضت امارة مصر الى ابن طولون

ابتنى قصره تحتها وبنى القطائع وراء ذلك بينها وبين الفسطاط • وكان كثيرا ما يقيم بالقبة المذكورة لانها كانت تشرف على قصره • وهذه القبة بضع غرف مفروشة بأحسن الرياش عليها الستور الجليلة ولها فرش لكل فصل • ولما ذهبت دولة بني طولون وخربت قصورهم كانت قبة الهواء في جملة ما خرب •

اما يوم احتفال ابن طولون بجر الماء في العين فقد كانت القبة في ابان عزها • وفي صباح يوم الاحتفال ذهب اسطفانوس الى دير المعلقة ودعا مرقس ودميانة لمشاهدة موكب ابن طولون منها ، فقبلت دميانة لان ذلك بغيتها • فسارت راكبة على حمار من حمر الدير ، ومشى زكريا في ركابها ، وأخذ يحدثها عن الاحتفال ويمنيها بقــــرب الفرج حتى نسيت متاعبها وهواجسها وامتلأ صدرها رجاء وأوشكت ان تقبض على السعادة بيدها •

التقى الكل عند سفح المقطم نحو الضحى ، فأسرع اسطفانوس ومشى بين ايديهم صاعدا حتى اتى قبة الهواء ، وكان قيمها واقفا في انتظاره ففتح له بابا دخل فيه ورفاقه الى شرفة بها اعمدة عليها الستور المزركشة او المطرزة تشرف على ما تحت المقطم من الميادين او الابنية او غيرها • وأخذ اسطفانوس يساعد الفراش في تهيئةالقاعة اللازمة لمرقس وابنته وله• على ان حديثه كان موجزا ولم يقرب من دميانة كعادته فظنته قد تأدب • ولم تخفه او تنفر من رؤيته ليس لانها تعودته او اخذت تميل اليه وانما نظرا لقرب نجاتها منه بعد فوز سعيد • ناهيك بما كان يجول في خاطرها من الآمال الكبيرة بعد حصولها على حبيبها • على ان لهفتها لمشاهــدة سعيد في ذلك الموكب بجانب ابن طولون صاحب مصر شغلها عن الاهتمام بشيء اخر •

فبعد ان استقر المقام بهم اعتذر اسطفانوس بأمر يدعو الى انصرافه

على ان يعود بعد قليل فقال له مرقس : «وأنا ايضا ذاهب في مهمة بمكان قريب ، فهل تبقى دميانة وحدها ؟»

فقالت : «اذهب يا ابي وهذا زكريا يمكث معي ولا خوف علي . لا تجعلني عثرة في طريق راحتك» .

فأظهر مرقس انه لا يضمر حقدا على زكريا وقال : «حسنا . ها أنذا ذاهب» . والتفت الى زكريا وكان واقفا بقرب الباب وقال له : «لا حاجة بي لان أوصيك بدميانة» .

فأشار زكريا مطيعا وظل واقفا حتى خرج مرقس ثم مشى نحو دميانة فرآها مشرقة الوجه على غير ما تعوده منها في المدة الاخيرة فانها كانت لا تبرح منقبضة الصدر لا يحلو لها طعام ولا كلام . فوقف بين يديها وهي جالسة على مقعد ثمين يطل الجالس عليه على القطائع والفسطاط ، فأشارت اليه ان يجلس وألحت على البساط بين يديها وهو يقول : «قد آن الوقت لنتخلص من هذا الغلام» .

قالت : «أتظن هذا اليوم آخر ايام الانتظار ، ولكن كيف نجتمع بسعيد ومتى ؟ . آه» .

قال : «اني غير غافل عن شيء ، فقد لقيت سيدي سعيدا بالامس وتواعدنا على أمور سأقصها عليك» .

قالت : «متى يبدأ الاحتفال ؟ اني لا ارى احدا» .

قال : «لا يلبث ان يبدأ . وستشاهدين عظمة ابن طولون وفخامة ملكه . سترينه في موكبه . انظري الى هذا البناء الذي هو اقرب سائر الابنية الينا في سفح هذا الجبل . انه قصر ابن طولون ، وهو قصر فخم لم ير مثله في هذه الديار الا ما خلفه الفراعنة من الهياكل . انظري الى هذا الميدان امام القصر وتأملي الجماهير المتزاحمة فيه بين راكب وماش رجالا ونساء ، انه الميدان الذي يلعب فيه ورجاله على خيولهم بالصوالجة

(الكرة والصولجان) . وترين للميدان والقصر سورا فخما له عدة ابواب، منها باب الجيش الذي ترين الجند ببابه عليهم الاسلحة ، وباب اخر يقال له باب الجبل عدا باب الخاصة ، وباب الحرم الخاص بدخول نساء القصر او الخدم . وهذا الباب الذي تشاهدين عليه تشالي سبعين هو بـاب السباع ومنه يخرج ابن طولون ويدخل ، وأظن الموكب سيخرج منه الان وهو ذو ثلاث فتحات : يخرج الوالي من الفتحة الوسطى ، ويخرج رجاله من فتحتي الجانبين ، وان امر هذا الوالي عجيب لعلو همته . انظري فوق هذا الباب تري مجلسا يشرف على سائر القطائع وهي الابنية التي ترينها وراء القصر في جهة الفسطاط . فيجلس ابن طولون في هذا المجلس كل يوم عرض او احتفال يراقب حركات رجاله وما يحتاجون اليه» .

فقالت دميانة : «وأين يقيم المهندسون ؟»

فضحك زكريا وقال : «لا أعرف مكانا خاصا بهم . ولكني أعرف واحدا منهم فقط وأعرف اين يقيم .. هل اقول ؟»

فقالت : «لا» . وبان الخجل في وجهها وغـيرت الحديث فقالت : «سمعتك تذكر القطائع فما المراد بها ؟»

قال : «هي يا سيدتي ابنية بناها ابن طولون لسكنى جنده ورجـال خاصته ، ومتى تم لمولاي سعيد ما يريد وأصبح من خاصته ، اعطاه قصرا في القطيعة اللائقة بمقامه . وقد سميت هذه الابنية بالقطائع لانها مؤلفة من أحياء يعرف كل منها باسم قطيعة . ويسكن كلا منها طائفة من الجند او الرجال ، فللنوبة ابناء بلدي قطيعة مفردة تعرف بهم ، وللروم قطيعة، وللفراشين قطيعة تعرف بهم ، ولكل صنف من الغلمان قطيعة . اما رجال الدولة كالقواد والخاصة فقد بنـي لهم ابنية ارجو ان يكون لسيدي قصر منها . وترين بين هذه القطائع الاسواق والازقة والطرق ، بنيت فيها المساجد والطواحين والحمامات والافران ، وسميت الاسواق بها فيقال

سوق الجزارين وسوق البقالين • ولا أطيل الكلام عليك» •

فقطعت دميانة كلامه وقالت : «ان بناء هذه القطائع يستغرق اموالا طائلة وفي الفسطاط قصور وأسواق كثيرة فلماذا لم يقم بها ؟»

قال : «لانه يخاف على نفسه من اهلها بعد ان غلبهم على مدينتهم ، وفيها احزاب خضعت له كرها فخطط هذا البلد وبناه أشبه بالحصون منه بالقصور • اما الاموال وانفاقها فلا تسلي عنها • ألا ترين هذا البناء الشاهق القائم في اطراف هذه القطائع ؟ تأمليه» •

قالت : «اني ارى قصرا فخما ، هل هو من بناء ابن طولون ايضا ؟»

قال : «نعم ولكنه ليس قصرا وانما هو مارستان • أتعرفين ما معنى هذه اللفظة ؟»

قالت : «كلا اني لم اسمعها قبل الان» •

قال : «صدقت لان هذا البناء لم يسبق له مثيل في هذه الديار . هو يا مولاتي بيت المرضى يستشفون فيه من ادوائهم» •

قالت : «وهل بناه لهذه الغاية ؟»

قال : «نعم وهو من حسناته في اعانة الفقراء» •

فاستغربت دميانة قوله وقالت : «ان تشييد هذا البناء يستغرق اموالا طائلة ، وقد كنا نرى حكامنا يشكون الفقر ، ويشقون على الرعية بالضرائب لسد حاجتهم» •

فقال : «ان هذا المارستان لم يبن من مال الرعية ، فان ابن طولون ظفر بكنز في هذه الصحراء فيه الف الف دينار بني منها هذا المارستان شكرا لله • وقد عني بتنظيمه وحرص على توفير العلاج به وخصص له الاطباء وشرط انه اذا جيء بالعليل تنزع ثيابه وتحفظ عند امين المارستان ثم يلبس ثيابا ويفرش له ، وتقدم له الادوية والاغذية حتى يبرأ • وكان ابن طولون يذهب بنفسه في كل يوم جمعة يتفقد خزائن المارستان ومن

بها من الاطباء ، وينظر الى المرضى وذوي العلل والمحبوسين من المجانين ويعرض نفسه اخطر جنونهم وكثيرا ما تعرضوا بالاذى» .

- ٧ -

موكب ابن طولون

كانت دميانة تسمع ولا تعي ما يقوله زكريا فان ذهنها كان مشغولا، ولم تحول عينيها عن ميدان القصر عساها ترى الموكب يتأهب للخروج او عساها ترى سعيدا واقفا او ماشيا ، ثم رأت الاعلام تخفق والرجـال يجتمعون وفيهم الفرسان والمشاة على اختلاف الاجناس . وسمعت قرع الطبول فصاح زكريا : «هذا الموكب يتأهب» . وأشار اليها ان تنظر الى باب السباع ، فرأت الناس يتزاحمون عنده والحرس يطردونهم لتخلـو الابواب لخروج ابن طولون وموكبه ، فتطلعت الى ما حولها فرأت الناس في الطرق وعلى أسطح المنازل يتدافعون لمشاهدة الموكب . اما هي فلم يكن يهمها من ذلك كله الا ان ترى حبيبها راكبا بجانب ابن طولون ليفرح قلبها ، فثبتت نظرها بالباب ، وبعد برهة سمعت اصوات الطبول والابواق تقترب حتى خرج اصحابها من باب السباع مشاة والناس يوسعون لهم الطريق . ثم أطلت أعلام ابن طولون وخرجت مـن البابين الجانبيين يحملها رجال بألبسة خاصة . وظلت هي تحدق ببصرها في الباب الاوسط الذي تنتظر ان يخرج ابن طولون منه .

ثم رأت طائفة من الغلمان يخرجون من البابين الجانبيين صفوفـا

وعليهم أفخر ما يكون من اللباس والعدة وفيهم جمال باهر وقامات طويلة وبأس شديد ، وعليهم أقبية ومناطق ثقال ، وبأيديهم مقارع غلاظ على طرف كل مقرعة مقمعة من فضة ولهم هيبة عظيمة . وكان زكريا يراقب ما يبدو من دميانة عند مشاهدة هؤلاء فلما رأى دهشتها قال لها: «أتعرفين هؤلاء ؟»

قالت : «هممت بأن اسألك . ولكنني خفت ان ألهو بسماع جوابك عن مرور الوالي» .

قال : «لا تخافي لم تأت ساعته بعد . واذا خرج فانه امامنا . ان هؤلاء الغلمان كانوا لابن المدبر صاحب خراج مصر قبل مجيء ابن طولون، ولهم حكاية لطيفة تدل على علو همة هذا الرجل . ذلك ان ابن طولون لما تولى امارة مصر كان ابن المدبر صاحب الخراج عليها كما هو المادراني الان. وكان ابن المدبر هذا شديدا على الناس وفيه دهاء، فأحب ان يكتسب ثقة ابن طولون او يبتاع سكوته عن اعماله . فلما علم بقدومه خرج للقائه ، ثم بعث اليه هدايا قيمتها عشرة آلاف دينار فردها ، وكان قد شاهد هؤلاء الغلمان في خدمة ابن المدبر فطلب اليه ان يعوضه من الدنانير بهؤلاء الغلمان فلم يسعه الا الامتثال فأرسلهم اليه وأصبح من ذلك اليوم يخافه » .

وكانت دميانة تسمع لحديث زكريا وعيناها شاخصتان نحو الباب الاوسط واذا بالغلمان يتنافرون منه ، ثم أطل ابن طولون على فرسه وعليه لباس الامارة ، وقد تجلت الهيبة في محياه وبان التعقل في حركاته وهو مع ذلك يلتفت الى الناس ويبتسم وهم يتراكضون للتبرك بطلعته ولاسيما العامة وأهل الاسواق الذين يندر ان يشاهدوه .

خرج ابن طولون من الباب وحده فاختلج قلب دميانة تطلعا الى من يكون بعده . واذا بفارس فتى عليه لباس فاخر وفي وجهه جمال باهر

تتجلى فيه دلائل الصحة والقوة تحته فرس من جياد الخيل وفي ركابه غلامان عليهما ألبسة حمراء مزركشة قد شمرا سراويلهما عن ساقيهما •
وكانت دميانة تتوقع ان ترى سعيدا وراء ابن طولون فرأت هذا الفارس ولم تعرفه فسألت زكريا عنه فقال : «هذا خمارويه ابن الامير ، وهو خير ابنائه وأعزهم عليه ولا يغرنك صغره فانه شديد البأس ولوع بالصيد ولاسيما صيد السباع ، فلا يسمع بسبع الا خرج اليه ومعه رجال عليهم لبود فيدخلون الى الاسد ويتناولونه بأيديهم من غابه عنوة وهو سليم ، ثم يضعونه في أقفاص من خشب محكمة الصنع يسع الواحد منها السبع وهو قائم ، فاذا قدم خمارويه من الصيد سار الى القفص وفيه السبع بين يديه ، وقد جمع في قصره كثيرا من السباع» •

ولما بلغ زكريا الى هنا لاحظ ان دميانة لا تعيره التفاتها لان عينيها شائعتان نحو الباب • ولا تسل عن لهفتها لما رأت سعيدا مقبلا على جواد تعودت ان تراه مقبلا عليه في طاء النمل ، وقد جاء بعد خمارويه بنحو مائتي ذراع ، فلم تتمالك ان قالت : «سعيد ؟ هذا هو سعيد !» • ثم انتبهت لنفسها والتفتت الى ما حولها فلم تجد احدا غير زكريا فاطمأن خاطرها فقال لها زكريا : «هذا هو سيدي البطل» •

فقالت وعيناها تلمعان والفرح يطفح من قلبها : «زكريا ، هل تجد بين هؤلاء الفرسان اجمل من سعيد او اقرب منه الى القلب ؟» • ثم ندمت على هذه الخفة وتشاغلت بالمشاهدة وتتبعت مسير الموكب نحو المغافر حيث بنيت العين ، ولحظت بعد ان خرج الموكب من الميدان وسار في الصحراء ان ابن طولون اشار الى سعيد فأسرع اليه حتى حاذاه وأخذا يتحدثان ، فكاد قلبها يطير من الفرح وأحست كأنها قبضت على السعادة بيدها •

وكان زكريا يراقب ما يبدو منها ويفرح لفرحها وذهبه ينعطف اليها

ويتمنى لها السعادة ولو بذل نفسه في سبيل ذلك . فلما رأى فرحهـــا شاركها فيه لكنه لم يكن ممن يستسلمون لظواهر الامور وقد علمته الايام ألا يفرح بالآمال الا بعد تحقيقها ، ولكنه ساير دميانة ووجه التفاته الى مسير الموكب نحو العين .

ولم تكن دميانة ترى من ذلك الجمع غير سعيد تراعي حركاتـــه وسكناته وتحسب الذين حوله أشباحا لا أجسام لها . ولما تباعد الموكب عنها وقفت ووقف زكريا ، وأخذا يتطاولان لمشاهدة مسير القوم فقالت دميانة : «الى اين هم سائرون ؟ اني اراهم بعدوا كثيرا» .

قال : «الى العين يا سيدتي» .

قالت : «اين هي ؟ اني لا اراها ولا أعرف محلها» .

قال : «ألا ترين المغافر هناك ؟»

قالت : «اراها لكنني لا أثبتها لبهرجة أشعة الشمس على صخورها».

فتطاول بعنقه وتفرس في المكان وقال : «ألا ترين تلك البقعة المرصفة بشكل مربع ؟ ان الاشعة تتلاعب عليها وتنعكس عنها» .

قالت : «نعم ارى البقعة وحولها الجماهير من الناس» .

قال : «هؤلاء جماهير العامة ينتظرون وصول الموكب ليروا الماء يجري ويفرحوا به ، او ليشاهدوا الموكب وما معه من الاعلام ، او لسمـــاع الطبول والابواق » .

وكان الموكب قد اقترب من المغافر ، حتى اذا دنا من المصطبة حول العين تراجع الناس وتقدم ابن طولون وحده ، وترجل عند ذلك سعيد ومشى بين يديه يريه هندسة البناء وكيف يجري فيه الماء ، فشاعت عينا دميانة لرؤيته وتعب بصرها من التحديق في أشعة الشمس ، ولكنها كانت ترى ابن طولون يجول بفرسه على المصطبة وسعيد يظهر ويختفي وراء فرس ابن طولون .

وفيما هي في ذلك رأت ابن طولون هوى بجواده وسقط الى الارض، فسقط قلبها معه وصاحت بأعلى صوتها : «باسم المسيح ، باسم العذراء» • وخافت ان يقع الجواد على سعيد فيؤذيه على انها ما لبثت ان رأت ابن طولون نهض وقد وقعت قلنسوته ، ثم أومأ الى الجند فتسارعوا الى سعيد وقبضوا عليه وشقوا ثيابه ، وتناول احدهم سوطا وأخذ يضربه ضربا متواليا • فأحست دميانة كأن الضرب واقع على رأسها فلم تتمالك ان وقفت فجأة ولطمت وجهها بكفيها وهي تقول : «ويلاه ماذا يفعلون ؟ أيضربون سعيدا ؟• آه ويلاه !» • وأخذت فرائصها ترتعد ونسيت موقفها •

وتحقق زكريا انهم يضربون سعيدا ولا فائدة من التكذيب ، فأخذ يخفف عنها ويغالطها وهي تقول : «اني اراهم يضربونه وأشعر كأن ذلك الضرب واقع على قلبي • ويل لهم لماذا يضربونه ؟• أهذا جزاء من أحسن عملا ؟ »

فأمسك زكريا بيدها وأجلسها وقال : «تمهلي يا سيدتي ريثما نرى الحقيقة ولا بد لذلك من سبب ، كوني عاقلة صبورة مثل عهدي بك» •

ورأتهم بعد ان فرغوا من ضرب سعيد يشدون وثاقه ثم يسوقونه الى المطبق ، فكاد الدم يجمد في عروقها • على انها لما رأته حيا يمشي هدا روعها وكانت تخاف ان يموت من الضرب ، وتقدم زكريا اليها وطلب اليها ان تصبر حتى يبحث عن سبب ما حدث • وأكد لها ان الامل كبير في انقاذ سعيد • ثم استأذنها في الذهاب فأذنت له ، ولكنها عادت فتراجعت وقالت : «لا • لا ابقى هنا وحدي فيأتي ذلك النذل • لا • لا• خذني معك • ارجعني الى الدير • انه ابقى لي من سائر المساكن» • قالت ذلك وشرقت بدموعها •

فأحس زكريا كأن سهما اخترق أحشاءه ولكنه اراد تهدئة روعها فقال

لها : «لا ينبغي ان يغلب عليك اليأس الى هذا الحد» •

وفيما هو يهم بفتح الباب للخروج بدميانة سمعا وقع خطوات تقترب فاضطربت دميانة عند سماعها لعلمها انها خطوات اسطفانوس ، وأجفلت وتحولت وهي تود ان تلقي نفسها من نافذة الغرفة حتى لا تراه • ولكنها تجلدت ووقفت جامدة كالصنم وهي تظهر انها تنظر الى السماء • وكان زكريا قد فتح الباب فدخل اسطفانوس وعلى وجهه دلائل السرعة والبغتة، والبشر يتجلى فوقهما رغم ما حاول اظهاره من الاسف او الاستغراب • وأحست دميانة عند رؤيته كأنها طعنت في صدرها ، وقرأت الشماتة والانتقام بوضوح في عينيه وحول شفتيه ، فحولت وجهها نحو النافذة وأسندت رأسها الى احد الاساطين وجعلت تتلقى دموعها بمنديلها وتكتم البكاء •

استقبل زكريا اسطفانوس بالتحية وهو يريد ان يعلم منه شيئا • فتقدم اسطفانوس الى دميانة متلطفا ودار حتى قابلها وجها لوجه فلما رآها تبكي استغرب وقال : «ما بال دميانة تبكي ؟ خيرا ان شاء الله ؟ هل تشعرين بألم ؟ هل تشكين من شيء ؟• قولي فاني طوع امرك» •

فلم تزدد الا بكاء وحرقة لانها عدت تلطفه نكاية وتشفيا ، وظلت ساكتة ، فتحول اسطفانوس نحو زكريا وقال : «ما بالها ؟ قل لي يا زكريا لان امرها يهمني كما تعلم • اين المعلم مرقس ؟• ما سبب بكائها ؟»

فقال زكريا : «لا أعلم السبب ، وانما أعلم اننا ونحن نشاهد الموكب وجماهير الناس رأيتها اطلقت دموعها وسألتها عن السبب فلم تجبني • وكنا عازمين على الذهاب الى الدير عسانا ان نرتاح من التعب» •

فالتفت اليها وهو يحك عثنونه وقال : «اخشى ان تكوني شاهدت ما اصاب جارك المسكين فتكدرت مراعاة لحق الجوار» •

فلما سمعت كلامه المملوء بالشماتة واللؤم ، همت بانتهاره وتوبيخه ،

ولكن رغبتها في الاطلاع على السبب حملها على السكوت ، فتظاهرت بأنها لم تسمع شيئا . وقال زكريا : «أي مسكين تعني يا سيدي ؟»

قال : «أعني جاركم سعيدا المهندس ، ألم تشاهدوا ما فعلوا به ؟»

قال : «ماذا فعلوا ؟»

فضحك وهو يختلس النظر الى دميانة يراعي ما يبدو منها وهي تتشاغل بمسح دموعها واصلاح ثيابها فقال : «بعد ان كان الوالي عازما على مكافأته بالجوائز والهبات ، أمر بجلده خمسمائة سوط وساقوه الى المطبق مقيدا بالاغلال» .

فأظهر زكريا انه لم ير شيئا من ذلك وقال : «ولماذا ؟ ما سبب هذا الغضب ؟ »

قال : «انهم كشفوا مكيدة دبرها لقتل ابن طولون !»

قال زكريا : «مكيدة ؟ وأي مكيدة ؟»

قال : «بينما كان ابن طولون راكبا لمشاهدة بناء العين ، وصل جواده الى مكان يوهم الناظر انه مرصوف ، فأقبل اليه ووقف عليه فاذا هو قصرية جير فغاصت رجل الجواد فيه لرطوبة الجير ، فكبا وسقط ابن طولون في الجير . فعلم ان سعيدا تعمد ذلك ليقتله . فأمر به فشقوا ثيابه وضربوه خمسمائة سوط ، ثم ساقوه معلولا الى المطبق . ولا ندري ما يكون امره في الغد» .

فلما سمعت قوله وعرفت شماتته نظرت اليه وقالت : «ان سعيدا لا يرتكب مثل هذه الخيانة ولا بد في الامر من خطأ» .

فرفع اسطفانوس كتفيه وقال : «لا ادري أخطأ ام صواب ، وانما أعلم ان ذلك المسكين السيء الحظ قد ضرب خمسمائة سوط وسيق الى المطبق . وأصبح الامل في حياته ضعيفا . حقا ان حالته تدمي القلب !. واذا كنت تبكين لحاله فلا ألومك . مسكين !» . قال ذلك وهو يهز رأسه

ويظهر الاسف .

فرأت دميانة انه يتعمد الحط من قدر سعيد بوصفه بالبائس المسكين، فتحول حزنها عليه الى تحمس له وقالت : «لا اراه في حاجة الى هــذا التأسف فان براءته لا تلبث ان تظهر فيعود الى الحظوة عند صاحب مصر. ولم يفعل ابن طولون ما فعله الا في سورة غضب طارىء» .

قالت ذلك وهي ترتعد ولم تستطع صبرا على الوقوف فتحولت نحو الباب وتحول زكريا معها . فقال اسطفانوس : «هل أذهب معك الـــى الدير ؟ ألا ترين ان الاجدر ان تأتي معي الى منزلي وهو اقرب من الدير؟»

فلم تجبه وظلت ماشية . ومشى زكريا في أثرها واسطفانوس يتبعها قائلا : «اظن دميانة تستطيل الطريق الى بيتنا وان كان قصيرا . ولكنني ارجو ان يقصر في عينيها ، وذلك خير لها من ان يكون طويلا فتتعب في سلوكه اذ لا بد لها من الذهاب اليه» . قال ذلك وضحك استخفافـــا بغضبها ونفورها . فأدركت انه يشير الى قرب زواجه بها . فظلت ساكتة وهي تمشي وزكريا معها حتى خرجت من قبة الهواء ، فلقيت أباهــــا عائدا . فلما رآها تبكي علم سبب بكائها ، فاستوقفها فوقفت وسلمت عليه وهي تتظاهر بصداع في رأسها وبأنها تحتاج الى الراحة فقال «لا بأس عليك . تعالي ننزل في بيت المعلم حنا انه اقرب من دير المعلقة» .

فقال زكريا : «انها ترتاح في الدير لاستئناسها بالراهبات» . فوافقهما مرقس فانصرفا ، ودخل هو لملاقاة اسطفانوس فقص هذا عليه ما دبره ودسه وان قصرية الجير انما وضعت هناك بمساعيه حتى قبض على مناظره وزج به في السجن . فهنأه مرقس بالفوز وأخذا يفكران في الاكليل على امل ان دميانة لا بد لها من الاذعان لرأي ابيها بعد ان يئست من سعيد.

وحينما وصلت دميانة الى الدير سارت الى غرفتها لتبديل ثيابها . ومكث زكريا ينتظر خروجها ليخفف عنها ويفكر معها في وسيلة للنجاة

من الفخ ، فما ان خرجت حتى سارت توا الى الكنيسة للصلاة ملجأ الحزانى وتعزية المنكوبين ، واذا لم يكن في الصلاة غير التعزية لكفى بها متسعا لآمال المؤمن في ساعة ضيقه وحزنه • وقد صدق جمال الدين الافغاني اذ قال : «ان الذين يسلبون العامة ايمانهم انما يحرمونهم من اكبر اسباب سعادتهم» •

ودخلت دميانة الكنيسة وجثت امام ايقونة العذراء وقلبها يذوب اسى مما حل بها من النوائب ، وأخذت تصلي بايمان وثيق وتتضرع الى صاحبة الايقونة ان تأخذ بيدها وتنجيها من الحبائل التي نصبوها لها •

وكانت تصلي ودموعها تتساقط على خديها ، وقرعت صدرها وتوسلت الى الله ان يحيي حبيبها وينقذه من مكائد الدساسين ، وطلبت ان يلهم أباها الصواب لعله يرجع عن اكراهها على الزواج باسطفانوس الى ان قالت : «اللهم اني ضعيفة وهم اقوياء ، اللهم الهمني ما فيه مرضاتك ، اني لا احب اسطفانوس ، فهل في ذلك معصية ؟ اذا كنت تراني على خطأ فأرني خطئي • ان سعيدا رجل صالح فان كنت مخطئة فأرنيه كما هو وأبعده عن قلبي» • وكانت تقول ذلك بحرارة وهي تشرق بدموعها وليس في الكنيسة احد يسمعها •

وسكتت هنيهة ثم قالت : «ربي والاهي اني ما ازال ارى سعيدا هو النصيب الذي اعددته لي ، فان كان الامر كذلك فأنقذه مما وقع فيه ، اللهم كما انقذت مختاريك ، غير قلب ابن طولون حتى ينصفه ، أتوسل اليك بدم السيد الفادي الذي تجسد من اجلنا اني فتاة مسكينة مظلومة مقصوصة الجناحين ، خذ بيدي ، والهمني ما أعمل ، وكيف اصرف امري • وأنر طريقي ، اني لا أريد معصيتك ولا أبتغي الا رضاك» • وسكتت تمسح دموعها •

فشعرت بارتياح عظيم كأن هاتفا قال لها : «لا تخافي يا دميانة ان

الله لا يتركك» • فنهضت ومسحت دموعها وتحولت الى باب الكنيسة ، فرأت زكريا واقفا وقد اطرق وبان الحزن في وجهه ، فلما وقع نظرها عليه ابتسمت وأشرق محياها ، وقد اطمأن بالها وذهبت احزانها •

فأدرك زكريا ان ذلك كله من اثر الصلاة ، فاقترب منها مبتسما وقال لها : «اتكلي على الله يا سيدتي فانه نصير المظلومين» •

فمشت وهي تقول : «ليس لي غيره فهو نعم الوكيل • انه لا يتركني ولا يتخلى عني» •

فماشاها زكريا خطوتين وقال لها : «لي ما أسره اليك على انفراد» •

فمشت الى غرفتها وأدخلت زكريا وقالت : «قل ما تريد» •

قال : «أريد منك ان تثقي بي وأن تعملي ما اقول» •

قالت : «انت تعلم منزلتك عندي فليس لي احد سواك يا زكريا • انت في مقام الوالد والوالدة ، والاخ والاخت • ان ما اشاهده من حنوك ومحبتك لي في ضعفي لشاهد صريح على ان الله لم يتخل عني • قل ما تشاء » •

قال : «ان أباك لا يلبث ان يأتي • وأظنه سيستعجل الزواج فاذا اظهرت له النفور والمقاومة» •

فقطعت كلامه قائلة : «وهل تريد ان اطيعه ؟»

قال : «كلا • ليس هذا ما أريده ، ولكنني أريد ألا تصديه بعنف وانما حدثيه باللين • واذا أصر على موقفه منك ، فلا تخشي شيئا • وثقي من النجاة بوساطة ما سأشير به عليك» •

وهم بأن يتكلم ثم امسك نفسه كأنه تذكر شيئا يمنعه بأن يبوح بضميره ، فأدركت تردده وأحبت ان تعرف ما خطر له فقالت : «ما بالك توقفت عن الكلام ؟»

قال : «لم أتوقف ، ولكن لكل امر وقتا» •

قالت : «لا صبر لي على الانتظار ، اخبرني عما خطر لك لعله يخفف عنـي » .

قال : «نعم اني لم اطلب اليك الصبر الا ريثما يصل الينا النصير» .

قالت : «وأي نصير ؟ من ينصرنا على هؤلاء ؟»

قال : «ينصرنا عليهم ابونا البطريرك . أليس كذلك ؟»

ففرحت بهذه الفكرة وقالت : «واني لنا الوصول اليه وهو بعيد ؟»

قال : «لا نعدم رسولا اليه وقد فعلت ولم أتلق الجواب بعد ، ولا بد من وصوله عما قريب . فلا ينبغي لك ان تيأسي» .

فأشرق وجهها واطمأن بالها وقالت : «سأفعل كل ما تشير علي به» .

قال : «هل تطيعينني وتذهبين معي الى حيث أريد ؟»

قالت : «نعم» .

وفيما هما في ذلك سمعا وقع أقدام عرفت دميانة انها خطوات ابيها ، ثم سمعا سعاله ، فتركها زكريا في الغرفة وحدها وانصرف .

جلست دميانة تنتظر أباها ، فطال انتظارها ولم تعد تسمـع صوته ، فهمت بالنهوض واذا بالرئيسة قادمة نحوها ، فوقفت لها وحيتها فقالت الرئيسة : «ان المعلم مرقس وسيدنا الاسقف آتيا وسألاني عنك . هنيئا لك ما اكبر حظك من سيدنا فانه يحبك ويرعاك» .

فظهر الامتعاض في وجهها وحدثتها نفسها بأن تتجنب المقابلة . ثم تذكرت نصيحة زكريا فسكتت ولم تجب . فعادت الرئيسة الى الكلام قائلة : «اراك لم تسري بالبشرى كأنك لا تريدين ان تكلمي احدا منهما ، فهل تأذنين لي في كلمة اقولها ؟»

قالت : «قولي» .

قالت : «لاحظت امرا فيك لم اكن أتوقعه من فتاة عاقلة تقية قد فهمت كتاب الله وعرفت واجبات المسيحيين» .

فاستغربت دميانة ما تسمعه منها ولم تفهم مرادها فقالت : «ارشديني يا أماه الى الصواب» •

قالت : «الصواب يا دميانة في ألا تغضبي أباك لان الله يوصينـــا باكرام الوالدين» •

فكان لكلام الرئيسة وقع شديد في نفسها ، لعظم تقواها ، فقالت : «اني لم اغضب ابي ، وبماذا أغضبه ؟»

قالت : «علمت شيئا من قرائن الاحوال • علمت ان أباك يريـــد زواجك بأحد ابناء الخاصة وأنت ترفضين» •

قالت : «أتحسبين الفتاة التي ترفض الزواج عاصية ؟»

فقالت الرئيسة : «نعم تكون عاصية الا اذا كانت تريد ان تنذر العفة وتنقطع عن العالم» •

قالت : «وما أدراك اني لا أنوي ذلك ؟ لا يبعد ان أنويه عن قريب»• ثم تذكرت قول زكريا فاستدركت وقالت : «ومع ذلك فان هذه الامور لا تكون الا بالهام من الله والسيد المسيح ، فاذا اراد الله امرا فلا مفر من ارادتــه » •

فتوسمت الرئيسة من كلامها ميلا الى الخضوع ، فأكبت عليها وقبلتها وقالت : «بارك الله فيك ، هذا عهدي بتقواك وطيب عنصرك ، والآن قد اتى ابوك ومعه سيدنا الاسقف ، وهما في انتظارك بغرفتي ، فقومي معي لتقبلي يد الاسقف ويد ابيك» •

قالت ذلك وأمسكتها بيدها فأطاعتها ومشت ، والرئيســة تحسب نفسها قد أقنعتها •

فلما دخلت عليهما تقدمت توا الى يد الاسقف فقبلتها ، ثم قبلت يد ابيها ، فقبلها مرقس ورحب بها وبالغ في اكرامها ودعاها الى جانبه وقد اطمأن خاطره وقال : «اقعدي هنا يا دميانة يا ولدي» •

فقعدت على الطنفسة بجانبه مطرقة وقد صبغ الحياء وجهها فضلا عن احمرار عينيها من البكاء ، ولذلك كانت تحجبهما بالاطراق • ولما جلست خاطبها الاسقف قائلا : «لقد سرني يا ولدي ما عقدتم النية عليه ، وفي صباح الغد نأتي ان شاء الله لعقد الاكليل» •

فأجفلت دميانة لهذه المفاجأة ، ولم تكن تتوقع ان تسمع هـــذه العبارة فبالغت في الاطراق وبان فيها الحياء ولم تجب ، فاستأنف الكلام قائلا : «اني تعودت هذا السكوت من العرائس فانهن لا يجبن عن كلامنا الا بالصمت • على اني لا أنتظر منك غير القبول ولو بالسكوت ، فان من كانت في مثل ما انتِ عليه من التقوى وحسن التربية لا تمانع في امر يريده ابوها ويتوسط فيه رئيس كنيستها ، ولكني أجل قدرك وأحب ان تكوني مسرورة بالنصيب الذي اخترناه لك ، ويكفي ان تظهري رضاك بالسكوت » •

وكانت دميانة تسمع كلامه وهي تكاد تتميز من الغيظ ، وأرادت ان تستمهل الاكليل كما اشار عليها زكريا ، فلم تجرؤ على الكلام حياء وخوفا، وحدثتها نفسها بأن ترفض بتاتا وتكاشف آباها بذلك صراحة ، فغلب عليها الخوف والحياء لانه لم يكن يشجعها على ان تفضي اليه برأي او رغبة ، وشعرت بأن كلامها لا يفيد شيئا فأمسكت وظلت ساكتة فاتخذ ابوهـــا سكوتها دليلا على القبول ، وظن ان مصير سعيد وقطعها الامل منـــه جعلاها ترضى باسطفانوس ، فقال مخاطبا الاسقف : «لم اكن أشك في طاعة دميانة لابيها ولحضرة الاسقف ، ولكن بعض الناس كان يزين لها الباطل ، وهذه هي قد رجعت الى الصواب ؛ وكل ذلك بتدبير العناية» •

فقال الاسقف : «قد تفضل دميانة ان تقام الافراح في بيت ابيها ، وستقام لها هناك ايضا ، وانما اردنا عقد الاكليل في الكنيسة الان لما لها من الكرامة ، وأحب ان أتولى عقد ذلك بنفسي تقديرا لمقام العريس ،

وأرجو ان يكون عملنا مباركا » •

قال ذلك ووقف ، فوقف مرقس احتفاء به ، ووقفت دميانة فقال لها ابوها : «قبلي يد الاسقف واشكريه على عنايته» •

فقبلت يده ، فقبل رأسها وخرج ، وخرجت الرئيسة لوداعه مع مرقس، ثم عادت وهي تضحك ضحك الفوز بما كانت تتمناه وضمت دميانة الى صدرها وقالت : «يظهر ان كلامي أثمر فيك» •

وكان مرقس قد عاد من وداع الاسقف فقال لدميانة : «بورك فيك يا بنية ، ذلك عهدي بك من اول الامر ، وسأذهب لتجهيز معدات الاحتفال ، وفي صباح الغد اعود اليك ونفرح معا» • قال ذلك وخرج

- ٨ -

فرار دميانة

اخذت دميانة تفكر فيما سمعته ، وكانت تتوقع ان ترى زكريا لتقص عليه ما جرى فلم تجده ، فقضت بقية يومها في انتظاره •

اما مرقس فسار توا الى اسطفانوس وأخبره بقبول دميانة ، فقام في ذهنه انها لم تقبله الا بعد يأسها من سعيد ، فعزم على الانتقام منها لاستخفافها به ، وهذا هين عليه بعد ان تصبح في عصمته وليس ما يثنيه عن اتيانه من مروءة او اريحية فان هذه السجايا لا معنى لها عنده •
واشترك مع مرقس في عداد معدات الفرح من الشموع والزهور وغيرها وأرسلاها الى الدير •

وأخذت رئيسة الدير في تهيئة ما يلزم لتزيين العروس في الصباح ، وبات اهل الدير على ان يصبحوا في اليوم التالي فيحضروا الاكليـــل ويسمعوا الترانيم .

وكانت الرئيسة اكثرهن رغبة في ذلك لانهـــا كانت تحب دميانة ، خصوصا بعد ان أسدت اليها نصحها وظنت انها اصغت لقولها فعدت ذلك احتراما لها . فلما طلع النهار مشت الى غرفة دميانة لتدعوها الى الاستعداد وتريها ما حملوه اليها من مواد الزينة ، فرأت باب الغرفة مغلقا ، فقرعته فلم يجب احد ، فظنتها نائمة فرجعت مؤثرة تركها حتى تستيقظ ، ثـم رأت ان الوقت لا يسمح بذلك، فعادت وقرعت الباب ثانية فلم يجبها احد، فوقفت تفكر ، واذا بالمعلم مرقس قد جاء فسألها عن دميانة فقالت : «ما تزال نائمة» .

فتقدم الى الباب وفتحه ودخل والرئيسة معه فلم يجدا في الغرفـة احدا ولم يجدا في الفراش ما يدل على ان دميانة نامت فيه ليلتها .

فقال مرقس : «يظهر انها لم تنم هنا ، فلعلها نامت في غرفة اخرى» .

فقالت الرئيسة : «هذه غرفتها تنام فيها منذ آنستنا . فهل غيرتهـا الليلة ؟» . قالت ذلك ومشت الى غرفة اخرى كانت تجلس فيها في بعض النهار فلم تجدها . فأخذت تسأل عنها الراهبات وهن يفتشن معها حتى أعياهن البحث دون الوقوف على اي اثر لها . وسألوا الخدم عن زكريا فذكروا انهم لم يروه منذ مساء الامس ، فاستقدموا البواب وسألوه فقال: «ان السيدة دميانة خرجت مساء امس الى كنيسة ابي سرجة ، لان عليها نذرا لها قد آن وفاؤه ، وقد خرج معها خادمها» .

فصدقت الرئيسة ذلك لسلامة نيتها وظنت النذر يتعلق بزواجها ولم تبق فرصة لتأجيل وفائه . أما مرقس فلما سمع ذلك رجع الى الغرفـــة وفتش في ثياب ابنته وأشيائها فرآها قد اخذت ما خف حمله وتركت ما

تستغني عنه فقال : «لقد هربت مع النوبي اللعين . ولا شك في انه عاد فأغراها بالفرار . ولكن الى اين يفران ؟ ان الفسطاط وبابلون والقطائع في قبضة اسطفانوس وأبيه» .

فقالت الرئيسة : «لا تتعجل يا سيدي ، لعلها ذهبت الى كنيسة ابي سرجة حقيقة . وهي على مسافة قصيرة من هنا» .

قال : «اسألي اذا شئت . ولكنني على يقين من فرارها . فلو انها ذهبت لزيارة او نذر لما اخذت معها ثيابها وحليها ، وهل تبيت هنـــاك وتبقى حتى الان وقد دخلنا في الضحى ؟. ان ذلك النوبي اللعين اغراها بالفرار . ولكن ..» . قال ذلك وهو يهز رأسه ويتوعد وخرج لساعته يقصد اسطفانوس . فألقاه لدى الباب ، وكان قادما للاشتراك في معدات العرس ، فقص عليه ما جرى وختم قوله متوعدا زكريا لانــه اغراها . فأجاب اسطفانوس : «لا تحمل الذنب ذلك النوبي . انها كما اعهدها . وسأريها من هو اسطفانوس ، وخادمها الاسود معها ايضا ــ دعني أذهب لأتدبر ذلك» .

وخرج ومرقس معه فسارا توا الى القطائع ، واشتكيا الى صاحب الشرطة من ان خادما سرق ابنة المعلم مرقس وفر بها وطلبا منه ان يرسل من يبحث عنها في الاديرة والكنائس وغيرها .

وخف صاحب الشرطة الى اجابة الطلب مراعاة لمنزلة المعلم حنا ، فبث الرجال في انحاء الفسطاط ولاسيما في أحياء النصارى لاعتقادهـــم ان دميانة وزكريا لا يجدان ملجأ في غير الاديرة او الكنائس او بعض مساكن القبط من الاهل او الاصدقاء .

فأصبح الاقباط في ذلك اليوم وهم يرون الجند وغير الجند يدخلون منازلهم للتفتيش ، وأكثرهم يتخذون تلك الحجة ذريعة لدخول المنازل او الكنائس او الاديرة لينهبوا ما تصل اليه أيديهم من المال او الاثاث ،

فضج الناس وعلا الصياح ، وأخذ القوم يتساءلون : «هل عاد زمن الظلم والاضطهاد والنهب والقتل» • وكانوا يحسبون ان ابن طولون قد كفاهم مؤونة ذلك ، ونشر الراحة والطمأنينة في ربوعهم وأمنهم على ارواحهم وأموالهم • ولم يقنعهم ما كان يقوله الشرطة من انهم يفتشون عن سارق هرب واختبأ ، فانهم كثيرا ما كانوا يقاسون الاضطهاد والنهب بهذه الحجة •

وكان مرقس واسطفانوس يرافقان الشرطة الى بعض الاماكن القريبة التي يظنان ان دميانة لجأت اليها ، ويحرضان الجند على التفتيش وهؤلاء لا يبالون الا النهب ، فقاسى الاقباط في الفسطاط وبابلون وضواحيها من العذاب والاضطهاد والخوف ما لم يقاسوه منذ عهد بعيد • فوقع الرعب في قلوب الناس وركب بعض وجوههم الى ابن طولون يشكون اليه ما اصابهم ، فغضب وبعث الى صاحب الشرطة ان يرجع رجاله عن التعدي ففعل ، ولم يقفوا على أثر لدميانة وخادمها •

* * *

كانت دميانة قد فرت مع زكريا الى مكان أعده لها اثناء غيابه عنها في أصيل اليوم السابق، وذلك انه لما رأى أباها والاسقف قد اخذا في مخاطبتها ، علم انهما اتيا لاتمام الاكليل ، فذهب الى صديق حميم له من اهل بلدته كان قد اعتنق الاسلام وأقام بجوار المسجد الذي بناه ابن طولون على المقطم قبل بناء مسجده المشهور • وانما اختار هذا المكان لبعده ولعلمه ان الشرطة لا تبحث عنهما في المسجد ؛ وعاد الى دميانة في المساء وأخبرها ألا بد من الفرار ، فأخذت أعز ما لديها وخرجا في العشاء من الدير بحجة زيارة كنيسة ابي سرجة كما تقدم • وكان زكريا قد أعد جوادا لدميانة ، وركب هو حمارا ، حتى اذا خرجا من المحلة

ألبسها عباءة وجعل على رأسها غطاء يشبه العمامة ، مما جعلها تظهر بمظهر الرجال • وساق حماره امامها حتى نزلا المكان المعهود فتلقاهما صاحبه بالترحاب •

وباتا ليلتهما ، وفي الصباح لبثا ينتظران ما يكون ، فما لبثا ان سمعا بمجيء الجند ، ودخولهم منازل النصارى لنهبها بحجة التفتيش عن ضائع او هارب • وأطل زكريا على الطرق فرأى الجند يدخلون البيوت بالقوة فخاف ان يصل احد الى مقره فرأى من الحكمة الانتقال الى مكان اخر •

وكان له صديق عربي في حلوان اسمه (قعدان) اصله من اهل البادية، ويقيم بمنزل وهبه عبد العزيز بن مروان لاجداده منذ وجه عنايته الى تعمير تلك البلدة في اثناء امارته على مصر ، وانتقل ذلك المنزل في أعقابه الى رجل عرفه زكريا من سنين عديدة وله معه صداقة وثيقة العرى ، فرأى ان يلجأ اليه ولاسيما لانه يقيم مع عائلة فيها آمه وامرأته ، فتستأنس دميانة بهما ، فاذا غاب عنها في مهمة كان مطمئنا عليها ، فودع صاحبه وركب مع دميانة الى حلوان عبر الصحراء ، وقالت له دميانة : «تراني يا زكريا قد سلمت قيادي اليك ، أذهب معك حيث تريد لا اسألك عن السبب» •

قال : «كوني على يقين يا سيدتي اني أتفانى في سبيل راحتك ، ولا تجزعي فأنا ساع في كل ما يرضيك» •

قالت : «الى اين نحن ذاهبون الان ؟»

قال : «الى حلوان ، وهو بلد طيب الهواء بعيد عن مظان الباحثين ، وسترين هناك عائلة تستأنسين بها وترتاحين اليها فانها عربية بدوية» •

قالت : «وبعد ذلك ؟»

قال : «بعد ذلك ؟» • وأطرق ثم قال : «ان الفرج سيأتينا ، ولا بد من انتظاره ، ولا بد لي على كل حال من الغياب عنك يوما او يومين لامر

لا بد لي من قضائه ، ثم اعود اليك ، وعسى ان أبشرك بالفرج بعـــد قليـــل » .

قالت : «تتركني ، وتغيب عني يومين ؟»

قال : «لا مندوحة لي عن ذلك ، لاني ذاهب في مهمة يتوقف عليها نجاحنا وبها تتغلب على اعدائنا ، ولا بأس عليك عند اصحابنا في حلوان» .

فسكتت ، وبعد قليل أطلوا على حلوان ، ولم يكن فيها الا بيوت قليلة ، فيسا مضربا على أكمة حوله حديقة ، فترجل زكريا ومشى الى الخيمة وقبل وصوله شعر صاحبه بقدومه من نباح الكلاب فخرج اليه ، ولما تبينه بالغ في الترحيب به ، فقال له : «نحن مسافرون الى الصعيد وأحببنا التعريج عليكم لشوقي اليك ومعي سيدة انا ذاهب في خدمتها فنبيت عندكم الليلة ثم ننصرف » .

فصاح الرجل بأولاده ان ينزلوا الضيفين . وقال : «بل تقيمان عندنا ايامــا » .

ونزلت دميانة فرحات بها امرأة الرجل وحيتها واستأنست بها ، ولا تسل عن ضيافة العرب وحسن وفادتهم ، وكانوا يكلمونها بالعربيـــة وتكلمهم بها على ضعف ، وفي اليوم التالي قال زكريا لمضيفهما : «اني عازم على الذهاب في مهمة عاجلة» . وأوصاه بدميانة ، فأجابه : «نفديها بأرواحنا فهي الان ربة المنزل ونحن أضيافها» .

وقبل ذهابه خلا بدميانة وأخبرها انه ذاهب في مهمة لا بد منهـــا ويعود بعد يومين . وسألها : «هل استأنست بأهل المنزل ؟» . فقالت : «لم اكن أظن العرب على هذه الاخلاق . اذ لم اكن أسمع الا انتقادا لاعمالهم فاذا بهم اهل كرم ولطف» .

فقال : «ان العربي يا مولاتي اذا نزلت بداره حق عليه بحكم العادة المتبعة ان يدافع عنك بنفسه وأهله ويفديك بروحه ، وهو ما يسمونه في

اصطلاحهم حق الجوار . فاذا اتى جند ابن طولون كلهم لا يقدرون ان يأخذوك او يأخذوني من عنده وهو حي ؟ انه يقاتل دوننا حتى يموت او ينقذنا ، اقول ذلك لأزيدك طمأنينة فأنت في هذا الخباء آمن منك في حصن حصين ، فاسمحي لي بالذهاب وسأعود قريبا» .

وبرغم ما سمعته من بواعث الطمأنينة انقبضت نفسها عندما تحققت عزمه على الذهاب ، فأخذ يشجعها ويعتذر من اضطراره الى الذهاب الى ان قال : «وعلى غيابي هذا تتوقف سعادتك في المستقبل ، وبه نغلب اعداءنا » .

فقالت : «اذا لم يكن بد من ذلك فافعل ، اطلب من الله ان يكون معك ، والسيد المسيح يحرسك ويوفقك» .

فودعها وخرج . وأحست بعد خروجه بوحشة الوحدة ، وتذكـرت أباها وبيتها وكيف اصبحت طريدة شريدة بعد ان كانت ربة منزلها في طاء النمل وحولها الخدم والحشم ، ولم تكن تعلم هل تعود الى الدار ام لا . على ان (قعدان) وأهل بيته لم يتركوا لها فرصة للاستيحاش فكانوا يبذلون وسعهم في سبيل راحتها صغيرهم وكبيرهم .

اما زكريا فتنكر وركب حمارا ، حتى اذا بعد عن الفسطاط ، ركب زورقا قصد به الى (اطاء النمل) وانما اختار الزورق لسرعة جريه مع تيار النيل . فلما اشرف على القرية لبس ثيابه واتجه الى بيت المعلم مرقس كأنه قادم من قبله في مهمة خاصة . وكان اذا دخل المنزل لا يجسر احد من اهله ان يسأله عما يريد ، لانطلاق يده في شؤون البيت . فلقيه الخدم والنساء فسألوه عن المعلم مرقس ، فأخبرهم بأنه مقيم بالفسطاط يقضي مع دميانة اياما ، ثم دخل غرفة يعرفها وأغلق بابها وفتح صندوقا أخرج منه أنبوبا من الفضة مختوما هزه حتى تحقق مما في داخله ثم خبأه فـــي جيبه وخرج .

ومر ببيت ابي الحسن فوجده خارجا من منزله ليتمشى في الحديقة على جاري عادته . وآنس في وجهه انقباضا فعلم سبب انقباضه ولم يكن يشك انه كان في جملة الذين شهدوا الاحتفال بالامس وانه شاهد مـــا اصاب سعيدا وهو يعلم انه بمنزلة ولده فتقدم نحوه ، فحالما رآه ابو الحسن تحول اليه ، فتقدم زكريا وهم بتقبيل يده فمنعه ورحب به وسأله اذا كان مولاه قد اتى معه ، فقال : «كلا يا سيدي ، انه لا يزال فـــي الفسطاط ، أظنك كنت هناك» .

فهز ابو الحسن رأسه بمرارة وقال : «نعم كنت هناك ، وقد رجعت امس» .

قال : «هل شاهدت ما اصاب سعيدا ؟»

قال : «نعم شاهدت ذلك المنظر المؤلم . ولكنهم سوف يندمون» .

ففرح زكريا بتلك البشرى لعلمه ان ابا الحسن لا يلقي القول جزافا ، فقال : «صحيح ؟ بشرك الله بالخير» .

قال : «نعم انهم سيندمون لانهم لا يجدون من يغنيهم عن سعيد ، اذ ليس في هذه البلاد من يضارعه معرفة بالهندسة» .

قال : «ولكنهم ساقوه الى السجن» .

قال : «ليس السجن عارا على الرجال ، انهم لا يلبثون ان يخرجوه معززا مكرما» .

قال : «وكيف ذلك ومتى ؟»

فتقدم نحوه وقال : «ان ابن طولون عازم على بناء جامع كبير فـــي القطائع ، ولن يجد من يحسن هندسته غير سعيد» .

فقال : «وهل يعرف ابن طولون ذلك ؟»

قال : «لا يلبث ان يعرفه متى احتاج اليه» .

فأطرق زكريا كأنما فتح عليه باب الفرج ، ثم ودع ابو الحســـن

وانصرف فركب جوادا من جياد مرقس وطلب الفسطاط . فلما أطل عليها ترك الجواد في خان ، وحدثته نفسه بأن يسير توا الى حلوان لمشاهدة دميانة لكنه احب ان يتمم ما جال في خاطره اولا ثم يعود اليها بالبشارة.

- ٩ -

صدقات ابن طولون

تنكر زكريا بلباس الفقراء المتسولين ومشى الى القطائع ، واتفق وصوله الى قصر ابن طولون في ساعة تفريق الصدقات .

وكان لابن طولون في الاحسان يوم مشهور يعرف بيوم الصدقة ، تفتح فيه ابواب القصر كلها ، لا يمنع داخل ولا يرد سائل . وكانت صدقاته على اهل الستر وعلى الضعفاء والفقراء وأهل التجمل متواترة . وكان راتبه لذلك في كل شهر الفي دينار ، سوى ما يطرأ عليه من النذور وصدقات الشكر على تجديد النعم ، وسوى مطابخه التي أقيمت في كل يوم للصدقات في داره وغيرها ، يذبح فيها البقر والكباش ، ويغرف للناس في القدور من الفخار والقصاع ، على كل قدر او قصعة لكل مسكين اربعة أرغفة ، في اثنين منها فالوذج ، والاثنان الآخران على القدر . وكانت تعمل في داره وينادي : «من أحب ان يحضر طعام الامير فليحضر» . وتفتح الابواب فيدخل الناس الميدان ، وابن طولون في مجلسه الذي يشرف منه عليهم ، فينظر الى المساكين ويتأمل فرحهم بما يأكلون او يحملون فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته . ولقد قال له مرة

ابراهيم بن قراطغان وكان على صدقاته : «أيد الله الامير ، انا نقف في المواضع التي تفرق فيها الصدقة فتخرج لنا الكف الناعمة المخضوبة نقشاء والمعصم الرائع فيه الحديدة ، والكف فيها الخاتم» . فقال : «يا هذا ، كل من مد يده اليك فأعطه ، فهذه هي الطبقة المستورة التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه فقال : (يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف) . فاحذر ان ترد يدا امتدت اليك ، وأعط كل من يطلب منك» .

فلما وصل زكريا الى القصر رأى ابن طولون جالسا في مقعده وعليه قلنسوته وقباؤه وقد تهلل وجهه سرورا بما يشاهد من آثار نعمته على الناس . وكان زكريا قد عزم ان يطلب مقابلته ليخاطبه رأسا ، فعلم ألا سبيل الى ذلك في تلك الساعة ، فأجل الامر الى الغد . وخوفا من وقوع الشبهة عليه تقدم في جملة طلاب الصدقة فمد يده فنال حظه فأكل، وهو كيفما تحرك يفتقد الانبوبة ، وكان قد علقها بحبل في عنقه ودسها داخل أثوابه تحت ذراعه .

وفيما هو في ذلك رأى الناس يومئون الى مجلس الوالي ويشيرون الى رجل دخل عليه فعرف من لباسه وقيافته انه المعلم حنا كاتب المارداني. ورأى بيده درجا ملفوفا بمنديل من الحرير . ورأى ابن طولون قد انصرف بكليته اليه وأمره ان يقعد على وسادة بجانبه فقعد متأدبا واستأذنه في اطلاعه على ما في الدرج ، ثم حله وبسطه وأخذا يتحادثان ويتنافسان فيما يحويه الدرج . ولحظ زكريا ان المعلم حنا يحاول اقناع ابن طولون بشيء محطوط في الدرج وهو لا يقتنع . وما لبث حتى حول وجهه عنه وأخذ في مشاهدة الجماهير ولسان حاله يقول : «هذا لا يعجبني والسلام» .

ولم يعلم زكريا شيئا عما في ذلك الدرج ، ثم رأى الناس يوسعون لخارج من القصر ، فتنحى والتفت فرأى المعلم حنا خارجا وبجانبه ابنة

اسطفانوس متأبطا اللفافة • فسار خلفهما من حيث لا يشعران • لعله سمع شيئا ، حتى اذا اتيا مفترقا من الطريق قال المعلم حنا لابنه : «ماذا نعمل له ؟» ما اظن في الدنيا احدا يستطيع اجابة طلبه • جامع بلا اعمدة ؟ هذا امر غريب !»

فسأله اسطفانوس : «أتريد ان يبني جامعا بلا اساطين ؟»

قال : «نعم • وقد استشرت امهر المهندسين في الفسطاط ومنهم من تعلم في القسطنطينية او تخرج في بغداد • وقد شهد الناس لهم بالمهارة، وهذه الخريطة عليها رسم جامع من اجمل ما بلغ اليه امكانهم . فلم يعجبه لانه يريده بلا اساطين» •

فقال اسطفانوس : «ولماذا لا يفعل كما فعل عمرو بن العاص في بناء جامعه ؟ »

فقطع حنا كلامه قائلا : «ان اميرنا عمد الى هذا الطراز حتى يتجنب ما وقع فيه عمرو » •

فهز اسطفانوس رأسه وظل ماشيا في طريقه • أما زكريا فبعد ان سمع ما سمعه من الرجلين عاد الى موقفه وقد فتح له باب الفرج ، ورأى الطريق الذي يمكنه من الوصول الى انقاذ سعيد وعاد الى الامر الذي جاء له • وتذكر دميانة ولهفتها على رجوعه فافتقد الانبوب فوجده في مكانه فاطمأن لعلمه انه مهما يبلغ من قلق دميانة واضطرابها ؛ ففي هذا الانبوب ما يخفف عنها •

حتى اذا انقضى وقت الصدقة وقد آذنت الشمس بالمغيب ، اغلقت الابواب ، ونهض ابن طولون عن مجلسه فانصرف الناس وذهب زكريا الى خان بات فيه • وفي الصباح التالي تنكر بلباس نوبي قادم من سفر ويشكو من فكه الاسفل ؛ فربطه رباطا كالخمار يحجب معظم رأسه والتف بشملة من نسيج القطن الابيض المعروف بالدمور ، ومشى حافيا مشية

غريبة يدهشه كل شيء مبالغة في التنكر حتى لا يعرفه اسطفانوس لو رآه . فلما اتى باب القصر سأل الحراس الواقفين به عن الوالي اين يكون، فقال له احدهم :

«انه ينظر اليوم في المظالم» .

ولم يكن زكريا يعرف تلك العادة لان ابن طولون اول من نظر في المظالم من أمراء مصر ، ولم يكن يفهم المراد من المظالم والنظر فيها فاستفهم الحرسي قائلا : «وما معنى هذا عندكم ؟»

فقال الحارس : «يظهر من لباسك وقيافتك انك غريب عن الديار فاعلم يا صاحبي ان مولانا الامير لرغبته في راحة رعيته وخوفا من ان يعتدي احد من عماله او كتابه او رجال حكومته على احد الناس فيظلمه او يؤذيه قد خصص حفظه الله يومين في الاسبوع لسماع شكوى المتظلمين بنفسه وانصافهم» .

فدهش زكريا لسماع ذلك ولم يكن سمع بمثله في مصر ولا غيرها ، وكان الحارس يخاطبه وينظر اليه ، فلما رأى دهشته استطرد الكلام قائلا: «اراك تستغرب هذه المنقبة في اميرنا ،ولا عجب لانكم لا تعرفون مثلها في بلادكم فهذه من حسنات الاسلام حتى لا يظلم احد استظل به» .

ففطن زكريا لامر اسطفانوس وما أوقعه من الاذى بدميانة فقال في نفسه : «هل اشكوه لابن طولون ؟» . لكنه خاف وتردد ورجع الى ما جاء له . فعزم على ان يدخل على الامير في جملة المتظلمين ، ثم يحتال في مخاطبته في شأن سعيد وبناء الجامع .

فسأل الحرسي عن المكان الذي يجلس فيه الوالي للنظر في المظالم ، فأومأ الى باب عليه الحجاب وقد تكأكأ الناس حولهم وهم يدخلونهم الواحد بعد الاخر ، فتقدم زكريا ووقف في جملة الواقفين وصبر حتى انصرف اكثر الناس فدخل وعليه قيافة اهل البادية ، فأطل على مجلس ابن

طولون في قاعة مفروشة بالطنافس ، وفي صدرها كرسي كبير جلس عليه ابن طولون ، وبجانبه قاضيه بكار بن قتيبة ، وبين يديه قصص المتظلمين (العرائض) ، وقد تصفحها ابن طولون ودفعها الى قاضيه ليحكم فيها او ينفذها •

فلما دخل زكريا سأله الحاجب عن قصته ليدفعها الى الوالي لينظر فيها فقال : «لم أكتب شيئا وانما أريد ان أرفع ظلامتي شفاها للوالي رأسا بعد ان ينظر في قصص المتظلمين» •

فرفع الحاجب ذلك الى ابن طولون فقال : «اجلسه حتى نفرغ له» •

فقعد زكريا وهو ينظر ويعجب من اجراء العدل والانصاف ، حتى اذا فرغ ابن طولون من تصفح القصص صاح بزكريا : «ما هي ظلامتك يا اخا النوبة ؟»

فوقف زكريا وقال : «لا اقولها الا في خلوة مع مولاي» •

وكان زكريا يتكلم كمن لا يعرف العربية الا قليلا ، ولو تكلمها جيدا لما صدقوا انه آت من النوبة ، لان المسلمين لم يكونوا قد انتشروا في النوبة ولا دخلها الاسلام ، فكان يحشر في كلامه بعض الالفاظ من لغة النوبة ، ولكنه كان يحسن التعبير بحيث يفهم ابن طولون مراده •

فلما سمعه ابن طولون اشار الى القاضي فخرج ، ولبث وحده، فتقدم زكريا ووقف بين يديه متأدبا فأشار اليه ان يقعد فقعد وأزاح الخمار عن رأسه فلم يظهر فيه عاهة كما يظن من يراه مخمرا ، وابن طولون ينظر اليه وينتظر ما يقوله ، واستبطأه فقال له : «ممن تتظلم يا رجل ؟»

فقال : «اقول ولا بأس علي ؟»

قال : «قل ، انك على بساط الوالي ولي امير المؤمنين ، ومهما يكن من ظلامتك فانك تنصف • قل ممن تتظلم ؟»

قال : «من احمد بن طولون ولي امير المؤمنين ونائبه على مصر !»

فدهش ابن طولون وقال : «مني انا ؟»

قال : «نعم يا مولاي ، فاذا كنت قد تجاوزت حدي بالتظلم منك ، فأنا بين يديك افعل بي ما تشاء» .

قال : «لك ان تتظلم ممن شئت ، فما هو ذنبي لديك ؟»

قال : «رب ذنب لا يعرفه صاحبه» .

قال : «قل وافصح، ما هي ظلامتك فانيلا اعرفك ولا أذكر اني رأيتك قبل الان » .

قال : «ولا انا أتظلم لنفسي ، وانما جئت لمولاي الامير أرفع اليه ظلامة رجل لم يعهد الي في ان أتظلم عنه ، وانما اقدمت رغبة في خدمة صاحب هذا البلد» .

قال : «لا أفهم مرادك فافصح ، من تعني ؟»

قال : «أعني الرجل الذي حكمت عليه بالجلد والحبس بعد ان بنى لك العين وأجرى فيها الماء» .

قال : «الفرغاني ؟ الذي أوشك ان يقتلني بجهالته ؟»

قال : «وهل تعني انه يجهل هندسة البناء» .

قال : «لا ريب ، فان سقوطي عن جوادي انما كان من الخال الذي سببه جهله بالهندسة» .

قال : «ليس في هذا البلد من يقاربه في هذا الفن يا مولاي . وأما قصرية الجير التي وقع فيها جوادك فانما تركت هناك لسوء حظه ، او لعل لها سببا اخر ، فقد يكون بعض اعدائه وشوا به اليك فأغروك به ؛ وانما انا اتكلم الان عن مهارته الهندسية ، ليس في هذا البلد من يقاربه فيها حتى الروم الآتون من القسطنطينية ، والفرس وغيرهم» .

فاستغرب ابن طولون دفاع هذا النوبي عن ذلك القبطي ولم يعتد به

فقال : «وما الذي حملك على التبرع برفع هذه الظلامة الينا ؟»

قال : «حملني على ذلك رغبتي في انقاذ مولانا من مشكلة وقع فيها ولم يستطع احد ان ينقذه منها» .

فاتنبه ابن طولون الى انه يعني الجامع الذي يريد بناءه ولكنه تجاهل وقال : «وأي مشكلة تعني ؟»

قال : «أعني البناء الذي انت عازم على اقامته ، ولم تجد من يستطيعه على الشكل الذي تريده» .

قال : «وهل يستطيع صاحبك ان يفعل ذلك ؟. انه لا يستطيعه» .

قال : «لا أظنه يعجز عنه فما هو طلبك يا مولاي ؟»

قال : «اني أريد ان ابني جامعا بلا اساطين . هل يستطيع ذلك ؟»

قال : «لم أسأله ولكني أحسبه يستطيع» . واستدرك زكريا قوله مخافة ألا يكون سعيد قادرا فيعود الغضب على كليهما ، فأراد ان يثني ابن طولون عن عزمه فاستأنف الكلام قائلا : «وهل خلوه من الاساطين شرط لازم . كأن مولاي لا يرى في الاساطين جمالا قياسا على التي وضعوها في جامع عمرو . فاذا كان هذا فأنا أضمن ان سعيدا يضعها على شكل بديع» .

فأشار ابن طوطلون بسبابته منكرا وقال :

«ليس هذا هو السبب في رغبتي عن الاساطين . وقد رأيت فيك فطنة وغيرة ، فأقول لك ان ما دفعني الى ذلك انما هو رفقي بأهل الذمة من سكان هذا البلد ، لاني لما عزمت على بنائه سألت المهندسين عما يحتاج اليه من الاعمدة فقدروا له ثلاثمائة عمود ، ولا سبيل اليها الا بأخذها من الكنائس ، فأستنفد اعمدتها في الارياف والضياع ، وهذا ظلم لا أرضاه وأحسبه لا يرضي الله . وأنا احب ان ابني مسجدا لا يشوب بناءه ظلم ، ولا وسيلة لذلك الا بأن يكون الجامع بلا اعمدة . فلم اجد في مصر من

يستطيع هذا» .

فتبسم زكريا وقال : «هل سألت سعيدا السجين في المطبق ؟»

قال : «كلا انه ذهب من فكري هل تظنه يقدر على هذا الامر ؟»

قال : «أظنه يقدر . وما على مولاي الا ان يأمر باحضاره ويرى ما يقـول» .

فصفق ابن طولون فدخل غلام فقال له : «قل لصاحب المطبـق ان يأتيني بالمهندس النصراني من السجن ، وادخلوه علي لساعته» .

* * *

وقع زكريا في حيرة وقال في نفسه : «اذا أخلف سعيد ظني فلـم استطع انقاذه من هذا السبيل ، اعود فأتهم اسطفانوس بأنه هو الـذي وضع قصرية الجير ، وان سجن سعيد ظلم» .

وكان ابن طولون اثناء الانتظار مطرقا يفكر فيما سمعه ويتمنى ان يصح قول النوبي في سعيد لانه كان شديد الحرص على تنفيذ مشروعه، واذا بالحاجب يقول : «ان السجين النصراني بالباب» .

فقال الامير : «ادخلوه» .

فدخل سعيد وقد تغيرت سحنته فطال شعره وتبعثر على وجهه ، وقد اضنته فرقة الشمس وملازمة السجن ، فتأثر زكريا من حاله وصار يرتعش لشدة قلقه وخوفه ان يعجز عما يندب اليه . اما سعيد فدخل ولم يتنبه لزكريا وانما كان همه ان يجيب الدعوة ، فوقف متأدبا فقال له ابن طولون: «كيف ترى نفسك ؟»

قال : «اراني كما كنت» .

قال : «لا يسلم احد من الخطأ» . فقال : «ولكنني لم اسأل عـن

خطئي لأتحققه او أتبرأ منه ، وانما تعجل سيدي في عقابي بلا سؤال» •

قال : «ألا تعد قصرية الجير ووقوعي عن جوادي بسببها ذنبا ؟• على اني لم ادعك لهذا وانما اردت ان اسألك في امر ، فاذا كنت مهندسا ماهرا وأخرجته لي اغتفرت لك ما سلف» •

قال : «ما هو يا سيدي ؟»

قال : «عزمت على بناء جامع كبير على جبل يشكر في اطراف القطائع، وأشترط ألا يكون فيه اعمدة ، فهل تستطيع بناءه على هذا الشرط ؟»

فأطرق سعيد وأخذ يفكر وتناول خيزرانة كانت ملقاة بجانب الحائط وأخذ يمرها على البساط كأنه يرسم بها خطوطا ومربعات وابن طولون يراعيه ، وقلب زكريا يخفق خوفا من الفشل • وأخيرا رفع سعيد رأسه وقال : «اني أفعل ما أمر به مولاي ولكنني أستأذنه في ان يكون للجامع عمودان فقط هما عمودا القبلة» •

قال : «عمودان فقط ؟»

قال : «نعم اثنان» •

فقال ابن طولون وقد بان البشر في محياه : «هل تقدر ان تبني الجامع على ان لا يكون فيه غير عمودي القبلة ؟»

قال : «نعم» •

قال : «اخاف ان يكون شكله مشوها او منظره قبيحا» •

قال : «كلا سيكون من اجمل الجوامع ، ليس مثله الا المسجد الذي بناه امير المؤمنين المعتصم في سامرا» •

قال : «قبلت ذلك ، اراني صورته» •

قال : «ائتوني بالجلود فأصوره لكم كما يكون بعد الفراغ من بنائه » •

فكاد قلب زكريا يطير من الفرح ولكنه ظل ساكتا ليتحقق الامر

بعد الرسم •

وأمر ابن طولون بالجلود فأتوه بها فأخذ سعيد يصور عليها رسم الجامع بجدرانه وقبلته وصحنه ومئذنته وكل مرافقه • فلما فرغ من الرسم دفعه الى ابن طولون ففرح به كثيرا ، وأمر ان يطلق سراحه وأن يخلع عليه وقال له : «سأطلق يدك في النفقة على البناء ، ومتى انتهيت منه كافأتك احسن مكافأة» •

فحنى سعيد رأسه شاكرا •

اما زكريا فلم يستطع كتمان فرحه فتقدم حتى وقف الى جانب سعيد فلفت انتباه ابن طولون وظنه يتصدر لينال الجائزة فقال : «والفضل فيما نلت من توفيق لهذا النوبي الشيخ بارك الله فيه» •

فالتفت سعيد الى زكريا فرآه ينظر اليه ويضحك ، فعرفه وخفق قلبه لذكرى دميانة ، وبانت البغتة في محياه وخاف ان يلحظها ابن طولون فاستأذنه في الخروج فقال له : «تخرج الى دار الاضياف ، وسنأمر لك بقصر تقيم به ولا يؤذن في خروجك من القطائع لان وجودك بها يهمنا كثيرا ، واذا شئت ان تأتي بأهلك فيقيمون معك فافعل» • والتفت الى زكريا وقال : «انك صاحب فضل يا عم • بورك فيك • سل ما تشاء» •

قال : «لا أسأل الا ان يكون مولاي موفقا • وقد انشرح صدري لظهور الحق ويكفيني ذلك» •

فقال : «ولكنه لا يكفينا نحن» • وصفق فجاء الغلام فأمر له بجائزة، فدعا له وخرج وهو يعلم ان سعيدا يود مقابلته قبل الانصراف ، فانتظره حتى خرج •

فلما رآه سعيد أسرع اليه وسأله عن حال دميانة ، فقص عليه ما جرى لها وما قاسته من عناد ابيها ، وما كان من امر اسطفانوس وانها الان في حلوان تنتظر رجوعه •

وكان سعيد يسمع حديثه وهو يكاد يتميز من الغيظ فقال : «تبا لذلك الخائن النذل ، كأنه يثأر لنفسه بعد اللطمة التي نالها ليلة عيد الشهيد، وكان يحسن به ان يظهر نفسه ولكنه لئيم جبان ، وقد واطأه مرقس على ابنته وهو جاهل لا يعرف ما ينفعه ولا ما يضره ، فالحمد الله على رد كيدهم الى نحورهم ، فاذهب الى دميانة وبشرها بالفرج . وقل لها : ان ذلك الغر سينال جزاء فعلته قريبا ، وكم أود ان أذهب معك لاراها . ولكن ابن طولون لا يأذن في خروجي من قصره كما سمعت ، على انني سأسعى لزيارتها في وقت اخر وآتي بها تقيم معي بالقصر الذي وهبه لي الوالي بعد ان أعده لاستقبالها ونقيم فروض الاكليل» .

فودعه زكريا وهم بالذهاب ، فرأى غلام ابن طولون واقفا ينتظره ليأخذه الى الكاتب ليعطيه رفده ، ولم يخط خطوتين نحو باب القصر حتى رأى اسطفانوس قد برز له من وراء الباب ووقف وجعل ينظر الى زكريا ويتفرس فيه ولسان حاله يقول : «قد عرفتك» . ولو لم يره مع سعيد بعد ان علم برضا ابن طولون عنه واكرامه اياه ؛ لأسرع الى القبض عليه يتهمه بالسرقة ؛ لكنه خاف سعيدا وتذكر ليلة عيد الشهيد فكظم غيظه .

ونظر اليه زكريا نظرة المعتز بالفوز ؛ ومشى لا يبالي ، ولولا رغبته في الاسراع الى دميانة لشكاه الى ابن طولون رغم نفوذ ابيه . فاكتفى بأن نظر اليه شزرا ؛ وتحول يقصد الى حلوان وقد مالت الشمس عن خط الهاجرة ، وهو يسرع تلهفا لرؤية دميانة وتبشيرها بما ناله من الفوز والفرح .

ولم يكد يتوسط الطريق الى (طره) حتى رأى الناس يهرعون ركضا الى القطائع وفيهم النساء والاطفال كأنهم فارون من قتال . فسأل بعضهم عن هذا الفرار فقالوا : «ان البجة سطوا على حلوان ونهبوها» .

فقال : «ومتى كان ذلك ؟»

قالوا : «نزلوا عليها في هذا الصباح وفتكوا بأهلها ونهبوا بيوتها» •
فأجفل زكريا وخفق قلبه ، ووقف، لحظة وقد جمد الدم في عروقه خوفا على دميانة ، فرآه الراكضون واقفا فقالوا له : «ارجع يا عماه والا فانك تذهب فريسة البجة لعنهم الله فهـــم كالابالسة ووجوههم كوجـوه الشياطين » •
فلم يبال ما سمع ولم يزده ذلك التحذير الا رغبة في المسير الـــى حلوان ليرى ما جرى لدميانة ، وتمنى لو ذهب الى الفسطاط قبل مجيئه، وركب جوادا يسرع به ، ولكنه وجد نفسه اقرب الى حلوان منه الـــى الفسطاط ، فظل مسرعا يعدو والناس يركضون فرارا من القتل والنهب ، وقد استقر في ذهنه ان دميانة في امان لانها في جوار صديقه قعـدان العربـي •
فلما أطل على حلوان اتجه الى منزل الرجل ، وما أشرف عليه من بعد حتى رأى الخباء منصوبا فاطمأن ولكنه لم ير احدا حوله ، فلما دنا منه رأى الخراب مخيما عليه ، ولفت نظره وجود جثة ملقاة على الارض بباب الحديقة عرف انها جثة غلام صاحبه ، فتقدم نحوها فرأى الدم ما زال يسيل منها ، فاضطربت جوارحه ، ولكن لهفته على دميانة انسته الخوف، ومشى في الحديقة فرأى آثار حوافر الخيل بين الاغراس وقد تكسرت وتهشمت ، فأسرع حتى أقبل على الخباء فسمع انينا وتقدم فرأى رجـلا مطروحا ارضا ، فلما وقع نظره عليه عرف انه صاحبه قعدان فأجفل وصاح: «قعدان !• قعدان !» • وأكب عليه وأمسك بيده ليجلسه ويفحصه •
فأدار قعدان وجهه اليه والدم يسيل مر جرح عميق في كتفه ، ولم يستطع ان يتكلم • فقال له زكريا : «لا بأس عليك يا اخي ما الـــذي اصابك ؟ »
فقال بصوت مرتعش متقطع من شدة الضعف : «عفوا يا زكريا ، اني

لم استطع الاحتفاظ بدميانة . فقد اخذوها مني ، اخذها لصوص البجة. ويعلم الله اني بذلت جهدي في حمايتها حتى قتل ولدي ورجالي وها أنذا كما ترى . فعفوك يا اخي . اني لم اقم بحق الجوار» .

وكان ينطق بصعوبة ، وزكريا ينظر اليه ويكاد قلبه ينفطر لما رأى من آلامه ، ولما سمع اعتذاره وكيف انه ضحى بأهله وبنفسه دفاعا عن جاره، اكبر انفة العرب ونخوتهم وحزن لذهابه قتيلا ، وفهم من خلال كلامه انه لم يستطع حماية دميانة فأحب ان يعرف ما جرى لها فقال : «لا بـأس عليك يا اخا العرب ، انك والله قد وفيت حق الجوار وأحييت سنـة العرب ، وهل للانسان من شيء يبذله في سبيل جاره أعز من اهله ونفسه. شفاك الله وعافاك» . وكان لا يزال قابضا على يده فهم بانهاضه وقال : «انهض ، اجلس ، هل آتيك بماء تشربه ، قم لأغسل جراحك» .

فقال : «لا فائدة من هذا ولا ذاك فاني ميت لا محالة ، واعلم يـا اخا النوبة ان دميانة حية قد سباها البجة ، وأظنهم اخذوا ايضا ابنتـي وسائر اهلي» . قال ذلك وتململ وبان التألم في وجهه وصرخ : «آه لو كنت استطيع القيام للحقت بهم» . واختلج وشهق وأسلم الروح .

فلم يتمالك زكريا عن البكاء رغم اشتغال خاطره بدميانة ، وأسف لموت هذا الصديق الذي يندر مثاله ، ولكنه لم يجد حيلة ينفعه بها وقد قضى نحبه سوى ان يواريه التراب ، ولم يجد احدا يستعين به ، لان اهـل حلوان كانوا قد هجروها كما هجرها البجة ايضا بعد ان نهبوها خوفا من رجال الحكومة . فاحتفر حفرة دفن قعدان فيها ، ورجع الى نفسه وأخذ يفكر فيما يجب عمله للاهتداء الى دميانة ، واسترجع في ذهنه ما سمعه من قعدان ، ففهم من مجمله ان البجة سطوا على حلوان فنهبوها وسبوا نساءها ، وكان زكريا قد عرف البجة وعاشر بعضهم ، وهم يقيمـون بالصحراء الشرقية ، يعيشون على الغزو والنهب ، وكلهم أشداء اهل بادية

وخشونة • فلما تصور دميانة معهم اقشعر بدنه لعلمه انهم لا يعرفـــون حراما ولا رادع لهم من دين ، فقد كانوا لا يزالون على الوثنية •

* * *

كان زكريا يفكر فيما حدث وهو يمشي على غير هدى نحو الجهـة التي حسب البجة نزلوا منها او عادوا اليها ، لعله يقف لهم على اثر او يرى من يرشده اليهم • وصعد في طريقه أكمة أشرف منها على الصحراء من بعيد ، ونظر فلم ير احدا ولكنه عرف من آثار الحوافر ان القوم كانوا هناك وذهبوا ، فحدثته نفسه ان يقصهم وحده متشوقا للعثور على دميانة، ثم عاد الى رشده فرأى انه يجهل مقرهم ، وانه يعجز عن انقاذ دميانة منهم لو عرفه • فوقف محتارا ، ثم انتبه الى الانبوب فافتقده فاذا هو لا يزال تحت ذراعه ، فتذكر دميانة وما قاسته من البلاء والعذاب ، حتى اذا دنت منها ساعة الهناء ساقها سوء الطالع الى السبي • فقال في نفسه : «ليكن اسم الله مباركا ، كأن هذه الفتاة على تقواها وطيب عنصرها وما توافر لها من اسباب السعادة خلقت لتشقى ! ، اين انت الان يا دميانة ؟• ماذا اقول لخطيبك اذا سألني عنك ؟• أأقول له سباها البجة ؟ وهم قوم لا يرعون ذماما ولا يوفرون عرضا ؟» • وغلب عليه الحزن واليأس فبكى وأغرب في البكاء ، وهو وحده لا سميع له ولا مجيب •

وكانت الشمس قد مالت الى المغيب ، فلما رأى الظلال تستطيل ، انتبه واستوحش وعاد الى صوابه فقال في نفسه : «لا يفيد البكاء في مثل هذه الحال • وعلي ان أعمل عملا ، وأن اسعى في انقاذ دميانة • لكن كيف أنقذها ؟ أأذهب الى سعيد اخبره بما اصابها وأستنجده ؟• وماذا ينفع استنجاده ؟ انه لا يستطيع شيئا ، حتى ابن طولون نفسه لو اراد ان ينجدني وجرد جيشا على البجة لما جاءني بنفع ، فان هـــؤلاء الأفاقين

خارجون على الحكومة من عهد بعيد ولم تقو دولة على اخضاعهم ، اذ اتخذوا من الصحراء مأوى لا يستطيع احد الوصول اليهم فيه !»

ومر في ذهنه ماضي ايامه ابان شبابه في بلده بالنوبة ، وتذكر ما لملك النوبة من السطوة المهابة في قلوب البجة فقال : «لا ينجدني في هـذا الامر الا ملك النوبة • ولكن اين هو وأيا انا منه ؟• ان بيننا مراحـل عديدة ، ثم هو يعرفني ولا ينجدني !»

وكان يناجي نفسه وهو راجع عن تلك الأكمة نحو حلوان ، فلم يجد خيرا من ان يعود الى الفسطاط الى الخان وفيه ثيابه وفرسه ثم يرى ماذا يعمل • فمشى وهو لا يبالي التعب وقد اظلمت الدنيا ، فجعل طريقه على ضفة النيل ، ولا شيء يلهيه عن التفكير في انقاذ دميانة من مخالب اولئك اللصوص •

خرج من حلوان وهو في لباس بدو النوبة كما كان عند خروجه من القطائع ، ومشى مشتت الافكار ، فوقع بصره على انوار عند سفـح المقطم علم انها في قبة الهواء • فتذكر موقفه مع دميانة ، وتذكر للحال صديقه في المسجد القائم هناك ، وكان قد مر به قبل ذهابه الى حلوان وهو يعرف فيه الاطلاع على احوال البجة وسائر اهل الصحراء فخطر له ان يذهب اليه ويستشيره في الامر لعل له وسيلة قريبة تنيله مراده • فعرج على المقطم • وما صعد حتى اتى المسجد فلاقاه صديقه وأنكـره لاول وهلة ، ثم تعارفا فدعاه الى الجلوس فجلسا لدى الباب خارج المسجد ؛ فسأله صاحبه عن حاله ، فأخبره انه ترك دميانة عند صديقه العربي في حلوان وجاء الفسطاط في مهمة ولما رجع رأى البجة قد سطوا على البلد وقتلوا من قتلوه وفر الباقون ، وانهم اخذوا دميانة سبية الى ان قال :

«هل تعرف شيئا عن هؤلاء البجة وأين يقيمون ومن هو زعيمهم !»

قال : «ان زعيمهم اليوم رجل يقال له ابو حرملة» •

فصرخ زكريا : «ابو حرملة ؟ فرج النوبي ابن بلدنا ؟»

قال : «كلا . ليس هو الرجل الذي تعنيه ، ولكنه تسمى باسمه تشبها بالشجعان ولف حوله عصابة من قومه وجعل ديدنه السطو على اطراف مصر ينهب ويقتل ، ولم يسبق له ان سطا على حلوان قبل الان» .

فتنهد زكريا وقال : «لعله فعل ذلك لسوء طالع تلك الفتاة التقية . وأيا تظنهم يقيمون الان ؟»

قال : «يقيمون ؟ لا أعرف لهم مقاما لانهم قوم رحل يعيشون على الغزو والسطو» .

قال : «وما رأيك الان . كيف العمل يا صاحبي ؟ اني اراني في حيرة . كيف يمكنني انقاذ هذه الفتاة فقد اؤتمنت عليها وعاهدت نفسي ان اقوم بخدمتها ورعايتها . وقد اخذت اثناء غيابي ويا ليتني كنت حاضرا ساعة السطو فكنت انقذها او أقتل في سبيل ذلك فأذهب مرتاح الضمير» . قال ذلك وغص بريقه وأجهش في البكاء .

فلما رآه صاحبه يبكي وهو شيخ عطف عليه ودفعته الاريحية فقال: «خفف عنك يا زكريا ، واشكر الله على انك كنت غائبا في تلك الساعة والا لكنت مقتولا لا محالة ولا تبقى حيلة لانقاذ الفتاة ، اما وأنت حي فلا تعدم وسيلة لانقاذها» .

قال : «ما هي الوسيلة ؟ . هل تعلم مقر هؤلاء فأذهب اليهم بنفسي وأكلم أبا حرملة وأستعطفه لعله يشفق على الفتاة وأفتديها بما يريد من المال » .

قال : «اما مقر هؤلاء فلا سبيل الى معرفته ولا فائدة ترجى من الاستعطاف ، وأما الفداء فلو كان الاسير رجلا او غلاما او امرأة طاعنة في السن فربما افاد ، اما وهي فتاة جميلة فلا أظنهم يقبلون افتداءها ؛ وأرجح ان ابا حرملة يجعلها في جملة نسائه ، فقد سمعت انه رغاب

في النساء ! »

فقطع زكريا كلامه قائلا : «تعني انه يتزوجها ؟»

قال : «يتزوجها او يتسراها لا ادري» •

فصاح زكريا : «أعوذ بالله !» • وأطرق هنيهة ثم قال : «لا اخاف عليها منه ما دامت حية وان كان جبارا ، ولكن ••» • وبلع ريقه وأخذ ينكت بالارض باصبعه ويفكر •

فابتدره صاحبه قائلا : «لا فائدة من التفكير ، اننا لا نعرف مقرهم واذا عرفناه لا قدرة لنا على مناوأتهم» •

فعاد الى ذكر سعيد ومنزلته عند ابن طولون فقال : «وما قولك اذا استنجدنا امير مصر ؟»

فابتدره قائلا : «لا ترجى نجدة من الامير ، فانه لا يعرض رجاله للموت في الصحراء ، ولو كان يستطيع اخضاعهم لفعل ذلك من قبل • فان البجاويين لم ينفكوا عن السطو على حدود البلاد من أزمان متطاولة، والدولة عاجزة عن ردهم فكيف يتعقبهم الى منازلهم ، ومنازلهم على ظهورهم ؟ »

فأيقن زكريا ألا خير يرجى من استنصاره سعيدا ، فعزم على كتمان هذا الامر عنه ، وقال له صاحبه : «ما بالك لا تفكر في مولانا ملك النوبة وأنت تعلم نفوذه على البجة فانهم لا يخافون احدا سواه» •

قال : «أعلم ذلك وقد خطر لي ان أستنجده ، ولكنه لا يعرفني وبلده بعيد وأخاف ان اضيع الوقت بالسفر اليه في اطراف النوبة ، ثم أفشل ويذهب سعيي عبثا» •

فقال : «ألست نصرانيا ؟»

قال : «بلى» •

قال : «ألا تعلم مقدار تمسك ملكنا بالنصرانية وغيرته عليها ؟»

قال : «أعلم» . وتنبه لرأي أشرق له وجهه وقال : «فطنت لوسيلة تضمن النجاح . فطنت لما تريد ان تقوله . سأستنجد احد اساقفتنا ليتوسط لي لدى ملك النوبة ، وانني أقدر ان أوسط البطريرك نفسه» .

فصاح الرجل عند ذلك قائلا : «بورك فيك هذا هو الرأي الصواب، واذا اتبعته نلت ما تريد . اذا استطعت ان تأخذ كتابا مر البطريرك الى ملك النوبة يوصيه بك خيرا ، فانه لا شك يقضي لك امرك» .

فقام زكريا لساعته ومد يده فودع صديقه وقال : «لقد استصوبت رأيك ، وسأعمل به . والوقت ثمين» .

قال : «ألا تنام هنا وتسافر في الصباح ؟»

قال : «دعني أذهب لاعداد ما يلزم» . قال ذلك وتوجه قاصدا الى الفسطاط من جهة الشاطىء .

ولما أطل على حصن بابل ووقع بصره على دير المعلقة عرفه من نور معلق بباب الحصن ، فتذكر دميانة والاسقف ومرقس ، كما تذكر ان البطريرك ميخائيل يقيم بدير ابي مقار بالصحراء الغربية في وادي النطرون ، والطريق اليه شاق ولا بد من التأهب للمسير فيه .

ووصل الى الفسطاط وقد اغلقت ابوابها ، فبات في مكان خارجها ولما فتحت الابواب دخلها متنكرا حتى اتى الخان وأخذ يتأهب للسفر الى دير ابي مقار ، عبر النيل والصحراء الغربية .

ورأى لتمام الحيلة ان يتنكر بلباس الرهبان ، وحدثته نفسه ان يركب جواد مرقس الذي اتى به من طاء النمل ولكنه خاف ان ينم عليه فيذهب تنكره عبثا ، فباعه لصاحب الخان واشترى هجينا خفيفا وضع عليه رحلا ونزل السوق فاشترى ثياب الرهبنة وأهمها الرداء الاسود الخاص بالرهبان والقبعة الخاصة برهبان دير ابي مقار ، وقضى في ذلك يوما كاملا ، وفي المساء أعد كل شيء على ان يسافر في صباح الغد .

ولما عزم على السفر تذكر سعيدا وقال في نفسه : «كيف اتركـه وأسافر بدون ان يعلم مصيري وما حدث لدميانة ، فقد يذهب الـى حلوان فلا يقف على خبرها فيظنني خدعته او ربمـا تولاه اليأس او غير ذلك » .

قضى ليلته يفكر في سعيد ولم ينم الا قليلا ، وتعاظم الامر عليه اثناء رقاده ، لان المرء اذا فكر في امر يهمه وكان تفكيره في الظلام وهو راقد مغمض الاجفان تعاظم عليه الوهم ، فرأى ان يطلع سعيدا على ما جرى ، فلما اصبح تنكر بغير لباس البادية الذي جاء به يوم مقابلة سعيد وخرج الى القطائع وأخذ يسأل عن المهندس النصراني اذ كان معروفا بهذا الاسم فلم يهتد اليه . ولكنه اهتدى الى القصر الذي أعدوه له وسأل حاجبـه فقال له : «خرج مساء الامس ولم يعد بعد» .

فأخذ يفكر فيما عسى ان يكون حاله وكيف يخرج والى اين وابن طولون قد منعه من الخروج ، وخاف ان يكثر من السؤال فيشتبـه الحاجب فيه فرجع . وخطر له اثناء رجوعه ان سعيدا قد يكون ذهب الى حلوان بعد ان بلغه سطو البجة عليها لان خبر تلك الغزوة ذاع في انحاء المدينة . فترجح لديه انه ذهب الى هناك ، فاتجه الى ذلك الطريق لعله يلاقي سعيدا وما مشى طويلا حتى شاهد فارسا قادما من طريق حلوان، وعرف من قيافته انه سعيد وما عتم ان وصل الفارس فاذا به هو بعينه ، فناداه زكريا فوقف ، ولما عرفه أسرع اليه وترجل وسأله : «اين دميانة؟ لقد ذهبت الى حلوان فلم اجدها ولا وقفت لها على خبر . هل كنت تقول الصدق ؟»

قال : «نعم يا سيدي قلت لك الصدق . ألم تسمع بما اصـاب حلوان ؟ »

قال : «سمعت ان بعض البجة سطوا عليها ونهبوها ، فهل اخـذوا

دميانة في جملة السبي ؟» . قال ذلك وهو يتلعثم وقد جف حلقه .

قال : «يظهر انهم اخذوها ، وكنت ذاهبا للتفتيش عنها دون ان اخبرك لئلا أكدرك عبثا ، فأنت مقيد في منصبك ولاسيما الان ، ولكني رجعت امس فرأيت الافضل ان اراك قبل سفرى» .

قال : «وماذا جرى ؟»

فقص عليه حديثه منذ فارقه وسار الى حلوان ، ثم قال : «ولم اجد وسيلة لانقاذ دميانة غير توسيط البطريرك لدى ملك النوبة ، وسأذهب في الغد الى دير ابي مقار» .

وكان سعيد يسمع كلامه ويكاد يتميز من الغيظ فقال له : «لماذا لا نذهب الى البجة رأسا فنحمل عليهم برجالنا ونأخذ دميانة قهرا ، اني لا أرجع عنهم حتى آخذها» . قال ذلك والغضب يقيمه ويقعده .

فقال زكريا : «لا يعلم احد مقرا لهم بهذه الصحراء ، ثم انك اذا طلبت من ابن طولون ان ينجدك بالرجال ، لم يجب طلبك ، خشية على رجالـه » .

قال : «مالي ولابن طولون ؟سأذهب بنفسي» . قال ذلك مدفوعـا بالحماسة والغيرة .

فقال له زكريا : «اذا كنت ترى وسيلة لاسترداد دميانة بالقوة كمـا تقول فافعل ، وأما انا فلا امل لي الا في الطريق الذي ذكرته لك ، دعني أذهب في هذه المهمة ولا اضيع الوقت سدى ، هل تأذن في ذهابي ؟»

فتنهد سعيد والدموع تكاد تترقرق في عينيه لتصوره حال دميانة في قبضة أناس وثنيين لا آداب تردعهم ولا دين يردهم ولا شفقة فـي قلوبهم ، وقال : «اذهب انت وسأبحث انا عن وسيلة قريبة ، فاذا وفقت اليها فيها ونعمت ، والا فأنت سائر في عملك . واذا جد شيء فأخبرني به ، وأنا مقيم بالقطائع ، هل عرفت منزلي ؟»

قال : «نعم عرفته ، أستودعك الله فأنا ذاهب لساعتي والاتكال على السيد المسيح ، وأرجو ببركة سيدتنا مريم العذراء ان تتوصل الى الهدف المطلوب» .

فدعا له سعيد بالتوفيق وافترقا .

- ١٠ -

في دير ابي مقار

سار زكريا توا الى الخان ، فأعد كل معدات سفره ثم ركب هجينه وخرج من الفسطاط ، فقطع النيل على جسر جزيرة الروضة وقطع جسرا آخر الى بر الجيزة ، فلما صار في البر الغربي من النيل انتهز فرصة بدل فيها ثيابه ولبس ثياب الرهبنة ، وهو نوبي اللون والملامح فأصبح كأنه راهب من رهبان النوبة ، ثم اتجه اتجاهه الى الاسطوانة التي وضع فيها آماله وآمال دميانة فجعلها في كيس في عنقه تحت ابطه بحيث لا تظهر ولا ينتبه لها احد ، وبات ليلته وأصبح فركب هجينه وسار شمالا يطلب بعض المحطات التي يسار منها الى وادي النطرون وفيه دير ابي مقار .

ويقع وادي النطرون في صحراء ليبيا غربي الدلتا على مسافة ثلاثة ايام منها يقطعها المسافر في رمال وصخور لا أثر للعمارة فيها ، ولا يلقى انيسا الا القوافل الذاهبة الى ذلك الوادي لتحمل الملك او النطرون الى الدلتا ، او الراجعة بالمؤن والاطعمة للرهبان بالاديار القائمة في تلك البادية الموحشة .

وقد ذكر بعض المؤرخين ان هذا الوادي كان فيه نحو خمسين ديرا، وقال آخرون : انها أقل من ذلك • والموجود منها الان لا يتجاوز عدد اصابع اليد ، اهمها : دير ابي مقار ، ودير الامبا بشاي ، ودير البراموس• وأولها اقربها الى الدلتا ثم تتباعد حسب ترتيب ذكرها • وهي قديمة البناء ربما اتصل تأسيسها بالقرن الرابع للميلاد اي عند شيوع الرهبنة في النصرانية مما لا محل لتفصيله هنا •

والذاهب الى وادي النطرون لا يأمن الذهاب وحده في تلك البادية خوف الضلال في الطريق وحذرا من اهل السطو • ولذلك لم يكن الناس يسافرون الا مع القوافل جماعات ، ولم يكن زكريا يجهل ما يعترضه من الخطر في السفر ، فلما وصل الى المحطة التي يبدأ منها الدخول في الصحراء غربا الى وادي النطرون اخذ يبحث عن قافلة يسير برفقتها ، فعلم ان ركبا يتأهب للمسير في الغد يحمل المؤونة من الزيت والحنطة وغيرها الى دير ابي مقار ، ففرح لهذه الفرصة المواتية ، وانخرط في سلكهم ، وكان معهم راهبان من رهبان الدير فسألاه عن امره فاضطر الى ان يجعل قوله مطابقا لملابسه فقال : «انني راهب من رهبان النوبة»• فقال الراهب : «أظنك قادما في مهمة الى البطريرك ميخائيل ؟» • وتنحنح• فقال : «اطلب تقبيل يديه» •

فلما قال ذلك التفت احد الراهبين الى زميله وتبسم كأنه يلفته الى شيء لحظه • فلما رأى زكريا تبسمه وايماءه خاف ان يكون قد كشف امره — ويكاد المريب يقول خذوني — لكنه تجلد والتفت الى الراهب الذي ضحك وقال : «ما بالك تضحك ايها الاخ ، ألم تصدق قولي ؟»

قال : «العفو يا اخي • ليس هذا غرضي ، معاذ الله ان أشك في قولك ، ولكنني ضحكت لامر تذكرته وقع من عهد غير بعيد ، واذا كنت قادما من النوبة الان فأنت جدير بمعرفته» •

وخشي زكريا ان ينكشف امر تنكره ، فابتسم وأغضى كأنه يعرف السر ويود السكوت عنه ، واكتفى بأن تحقق وجود البطريرك ميخائيل هناك . وسكت الراهبان ، وقضوا ذلك اليوم في الاستعداد وأقلعوا في صباح اليوم التالي ومعهم الخدم لسوق الجمال او البغال وكلها للدير ، وهي تحمل جرارا من الزيت وأكياسا من الحنطة والعدس والفول وبعض الاقمشة ، غير ما عليها من الاقوات والماء للطريق .

وما تبطنوا الصحراء حتى اصبحوا في قفر يكتنفهم الرمل والصخور من كل ناحية كما يكتنف الماء المسافرين في البحار من كل الجهات . والمسافر في البادية اذا أوغل فيها لا يرى حوله الا رمالا، ومن اجمل مناظر الصحراء في النهار منظر السراب او الآل الذي يتراءى للناظر عن بعد كأنه ماء يجري في نهر او بحر ويرى ظلال الشجر او الصخور في أسفل الماء كما تنعكس عن شواطىء البحور فيراها المقبل عليها من بعد.

ولم تكن هذه المناظر غريبة على زكريا فقد طوى البادية مرارا ورأى السراب وقاسى العذاب في شبابه ، ولكنه لم يكن قد زار دير ابي مقار قبل ذلك الحين ولا عرف الطريق اليه ، فكان معوله على رفاقه ، ورآهم في قلة من الرجال فقال لهم وهم يسوقون هجنهم ضحى ذلك اليوم لا يسمع لها خطو على الرمال : «اراكم في قلة ، وعهدي بالقافلة اذا لم تكن قوية ان يخشى عليها من قاطعي الطريق» .

فقال احد الراهبين : «كان ذلك قبل امارة ابن طولون فانه أحسن الظن بالاقباط ومنع التعدي عنهم فأصبح الواحد او الاثنان يسافران منفردين ولا خوف عليهم» .

فقال زكريا : «صدقت ان حال مصر في ظل هذا الامير لم يسبق لها مثيل منذ اول الفتح» .

استراح اهل القافلة عند الاصيل قليلا ، ثم استأنفوا المسير حتى

أقبل المساء فنصبوا خيمة خفيفة للمبيت فيها ، وجلسوا للطعام وقد دنت الشمس من الافق وأخذت تستطيل حتى صارت كمثرية الشكل واحمر لونها وأحاطت بها هالات من الشفق باهرة الالوان مما يسحر العقول • ولو كان اهل القافلة من الشعراء لوقفوا مبهوتين لهيبة الطبيعة ولخيل اليهم انهم يسمعون خطيبا يعظم امر الخليفة ويستعظم سرها • ولا يخطر للانسان عظمة هذا الكون وكبر شأنه الا اذا خلا في موقف طبيعي مثل هذا • أما في المدن فتشغله الجواذب والدوافع ويلهو بملذاته ومطامعه • ولكن اصحابنا الرهبان لم يكونوا من الشعراء ولا لفت ذلك المنظر انتباههم وانما شغلهم تعبهم عن كل شاغل فلجأوا الى الرقاد على ان يقلعوا في الغد فيصلوا الى دير ابي مقار قبل غروب الشمس •

وكان زكريا اكثرهم رغبة في الوصول ، فقد كانت الصحراء تذكره بدميانة وانها أخذت الى مثلها وألحت عليه هواجسه لكي يحث هجينه للوصول الى الدير لكنه لم يشأ ان يترك رفاقه لان جمال الحمل تبطىء بخلاف الهجن ، فخطر له ان يستأذن رفاقه صباح اليوم التالي ليسبقهم فأنكروا عليه انفراده فوافقهم ، ثم شدوا رحالهم في الصباح وساروا يقطعون منخفضات ومرتفعات ليست بالاودية وبالجبال وانما هي تعاريج لا يبرح المسافر كيفما توجه يجد نفسه محاطا بالتلال الصخرية او بروابي الرمل •

وعند الاصيل أطلوا من حافة السهل على واد عظيم فيه آثار من الابنية المتفرقة وبعض الاشجار المبعثرة ، وأول بناء كبير وقع نظرهم عليه من بعيد دير ابي مقار بقرب فتحة الوادي • وحالما أطلوا عليه اشرقت وجوههم وقال احدهم : «هذا هو الدير» •

فقال زكريا : «لا بد من الوصول اليه الليلة ؟» • وكانت رغبته في الوصول تجعله يردد ما يجول في ذهنه خوف تباطؤ القافلة ، فقال له

احد الراهبين : «أظننا نصل الليلة او صباح الغد ، واذا كانت الليلة مقمرة نواصل السير ليلا حتى نصل ، اذ يظهر انك مستعجل في مهمتك يا اخ» . وضحك ، فعلم زكريا انه يمزح لان الليلة مظلمة والقمر في أواخر ايامه ، فلم يجبهم وتشاغل باصلاح رحل جمله تحته . وبينما هم سائرون وعينا زكريا نحو الدير وقع نظره عند اول الوادي على أشباح راكبين على هجن ، ولم يستطع تمييزهم لبعد المسافة فقال لاقرب الراهبين اليه : «كأني ارى أناسا ودواب ؟»

فنظر الراهب الى الوادي وتفرس قليلا ثم قال : «ألا تراهم خارجين من الوادي ؟. انهم من التجار يحملون أحمال الملح والنطرون ، او ربما حملوا القش الذي يصنعون منه الحصر فانه كثير هنا» .

فقال : «لا ارى معهم أحمالا مما ذكرت . واذا كانت معهم أحمال فينبغي ان تكون أقل من ذلك كثيرا» .

وكان الراهب الاخر يتفرس في الاشباح فلما سمع جواب زكريا قال: «صدقت ، أحسبهم من تجار الزجاج لان في هذا الوادي معملا يصنعون فيه الزجاج بنفقة أقل من نفقته في الفسطاط فيبتاع التجار من هنا كميات كبيرة يحملونها الى الاسواق» .

فقال زكريا : «لم اكن اعلم ان الزجاج يصنع في هذه الارض المنقطعة» .

فقال الراهب : «كان يصنع هنا من عهد دولة الروم ولا يزال» .

فسكت زكريا ، وبعد هنيهة توارت تلك الاشباح وراء التلال ولم يعودوا يرونها وطفقوا سائرين في طريقهم وعيونهم نحو الدير ولاسيما زكريا فانه كان اكثرهم رغبة في الوصول ، وزاد قلقه لما شاهد الشمس تقترب من الافق خوفا من تخييم الظلام قبل الوصول .

وفيما هم في ذلك رأوا هجانا ظهر من وراء رابية وعليه العباءة

والكوفية ، ثم أوقف هجينه لحظة وأشار اشارة وتقدم فظهر وراءه بضعة جمال على كل منها راكب وكلهم مسلحون بالرماح ، ورآهم زكريـــا يتقدمون فخاف غدرهم اذ لم ير معهم أحمالا. فالتفت الى رفيقيه الراهبين فرآهما قد تغير وجهاهما فقال : «يظهر ان هؤلاء ليسوا تجارا ، وأظنهم من الاعداء فان ألبستهم عربية» .

ولم يتم كلامه حتى رأى القوم يسوقون هجنهم نحوهم وقد اشرعوا الأسنة ، فتحقق انهم من الاعداء فأخذ يتأهب للفرار ، واذا بهجان منهم ملثم تقدمهم وأشار بيده كأنه يقول لهم : «قفوا عندكم» .

فقال زكريا : «ماذا تريدون ، من انتم ؟»

وكان الهجان قد وصل اليهم فتفرس في زكريا ، ولما تبينه قال له باللغة القبطية : «ألست قادما من النوبة ؟ قف ولا تتحرك» .

فرآه زكريا يتكلم القبطية كأنه من اهلها مع ان لباسه عربي فأشكل امره عليه وقال في نفسه : «لا يمكن ان يكون هذا عربيا ، فلعلـــــه جاسوس من الاقباط يعين العرب عليهم» . وزاده تلثم الرجل شكا فيه. لكنه شغل بالخوف منه عن البحث في شأنه .

فتحقق الركب عند ذلك انهم مأخوذون ، وعلم زكريا ان رفاقه لا يستطيعون الفرار لثقل أحمالهم اما هو فجمله خفيف وليس عليه مـــا يمنعه من الاسراع فتهيأ للفرار . بينما تقدم الراهبان وأرادا الاستفهام من الهجان عما يريده فقال احدهما له : «ما الذي تبغونه منا ؟»

قال : «اتركوا الاحمال وانجوا بأنفسكم» .

قال : «اننا نحمل طعاما للدير ، ولم نعهد ان يتعرض لنا احد ، لاننا اصدقاء الامير صاحب مصر» .

قال : «لم نتعرض لكم قبلا ، اما الان فأنتم اعداؤنا . واذا لم تتخلوا عن الاحمال قتلناكم فانجوا بأنفسكم» .

فتحقق الراهبان وزكريا انهم مغلوبون على امرهم ، فقد كان المغيرون اكثر من عشرة بالسلاح الكامل ، وهم لا سلاح معهم فضلا عن قلة عددهم ، فأخذوا يتوسلون اليهم ان يتخلوا عنهم مستغربين هذه المعاملة التي لم يسبق لها مثيل منذ عدة أعوام فقال كبير القوم : «لا تسألونا عن السبب بل اسألوا بطريرككم وهو يخبركم» . قالوا ذلك وهم يهددونهم بالقتل اذا لم يتخلوا عن الاحمال وينصرفوا .

فتقدم زكريا يريد ان يستعطفهم وقال : «ان هذه الاحمال طعام لرهبان يقيمون بهذا الدير وقد اوصى نبيكم بهم خيرا» .

فانتهره الهجان وقال له : «كانوا كذلك ، ولكن أفسدتموهم يا معشر النوبة ، وسترون عاقبة بغيكم قريبا ، واذا فهت بكلمة اخرى أخرجنا ما تخفيه بين أثوابك من الرسائل» .

فخاف زكريا ان هو أصر على الانكار ان يبحثوا بين أثوابه فيفقد الاسطوانة التي يخفيها تحت ابطه وتذهب آماله عبثا . ولم يعد يعلم ماذا يعمل لينجو قبل ان يقبضوا عليه . وهم اذا ارادوا قتله لا يمنعهم مانع، فتغابى وقال : «فتشوا . اني لا أحمل شيئا وانما جئت لأفي ندرا لهذا الدير وأنا اشير على رفاقي ان يتخلوا لكم عما معهم ويتبعوني قبل ان يشتد الظلام فيضلوا طريقهم» . قال ذلك وأشار الى الراهبين ان يتبعاه ووخز جمله فطار به وكانت الشمس قد غابت وتكاثفت الظلال ، فزاد القوم رغبة في القبض على زكريا لما آنسوه من رغبته في الفرار فصاحوا به : «قف عندك» .

ولكنه كان قد اطلق لهجينه العنان فاقتفى أثره اثنان منهم ، وكان قد تمرس بركوب الجمال في شبابه وكاد ينساه ، لكن رغبته في النجاة وخوفه من وقوع ذلك الانبوب بأيدي القوم جدد نشاطه وشبابه فثبت على الرحل ثبات الطود . ولكن مطارديه كانوا من اهل البادية الذين شبوا

على ظهور الجمال ، فلم يطارداه الا قليلا حتى كادا يدركانه ، وكان الليل قد أسدل نقابه وأصبح على مقربة من دير ابي مقار ، وعرف ذلك من مصباح موقد هناك لهداية القادمين ، فلما أيقن بالهلاك ضاع رشده وارتبك في امره وعثر الهجين برابية من الرمال فاختل توازنه فهوى عن ظهره وأراد ان يتمسك برقبته فخانته يداه فسقط الى الارض فوق الرمال والهجين يجمح في عرض الصحراء . ولما وجد زكريا نفسه على الرمال سليما استرجع رشده وركض منحرفا عن الطريق وأخذ يبحث عن مكان يختبىء فيه حتى يمر الهجانان فوجد حفرة نزل فيها وهو يتلمس جوانبها.

اما الهجانان فكان احدهما قد تعب وتباطأ ، وظل الاخر يستحث هجينه في أثر زكريا وقد أشرع الرمح وزكريا تارة يتوارى عنه وراء التلال وطورا يظهر له وربما اقترب منه حتى كاد يدركه فيعيقه عنه عائق من وعورة الطريق او غيرها فيسبقه . ولما سقط زكريا عن الجمل كان قد بعد عن مطارده وتوارى في ظل آكمته ، ولم يقف هجينه بل زاد عدوا لانه أجفل من سقوط راكبه وأحس بخفة محمله ولم ير الهجان المطارد سقوط زكريا فظل في أثر الهجين الهارب يعدو وحده . وبعد ان تجاوز مكان السقوط بمسافة طويلة ايقن ان زكريا سقط وقتل وأصبح همه منصرفا الى تعقب الهجين لاخذه .

اما زكريا فتربص في الحفرة وعيناه تتعقبان الشبح الذي كان يطارده فرآه تجاوزه جريا في اثر الهجين ، فاطمأن على حياته وأخذ يتحسس اعضاءه لئلا يكون قد تعطل شيء منها فوجدها سليمة فشكر الله وعد ذلك من كرامات مار مقاريوس صاحب الدير . وافتقد الاسطوانة فوجدها في مكانها تحت ابطه فأخرج طرفها وقبله سرورا ببقائها وأعادها الى مخبئها ، ولبث ينتظر ما يكون من امر رفاقه هل ينجون بأنفسهم ام لا ، ولما مضت مدة لم يعد يسمع فيها صوتا ، خرج من الحفرة والظلام

شديد وتسلق رابية وأخذ يتلمس ويتفرس فيما حوله لعله يرى شبحا او يسمع صوتا ؛ فلم ير غير نور الدير وقد اصبح قريبا فمشى نحوه وقد أحس بالالم في ساقيه لكن فرحه بالنجاة من القتل انساه كل شيء .

وما كاد يمشي قليلا حتى سمع صوتا وقف له شعره وارتعدت فرائصه ، اذ كان صوت حفيف ثعبان ينساب على مقربة منه . ثم سمع فحيحه فجمد الدم في عروقه ووقف وقوف الصنم لانه كان يسمع عن الثعابين السامة في تلك البادية . وكان الظلام قد حال بينه وبين ما حوله فلم يعرف كيف يتقي الاذى ، فأخذ يرسم علامة الصليب على وجهه ويستغيث بمريم العذراء ومار مقاريوس صاحب الدير وبسائر القديسين متمتما ، ولو اراد رفع صوته لم يستطعه لجفاف حلقه من الخوف .

ظل واقفا بضع دقائق حسبها ساعات حتى بعد الحفيف عنه فتحقق انه نجا ، لكنه ما زال يخاف من طارق اخر فاستعان الله واستجار بقديسيه ومشى نحو النور الذي يراه في دير ابي مقار .

مشى زكريا على الرمال يتحسس طريقه . فتارة تغوص قدمه في الرمل فيخاف ان تلدغها عقرب وطورا تصدم بصخر او تعثر بحصى فيجفله صوتها . وكان محتذيا نعالا من القش كانت شائعة في وادي النيل ينسجها بعض اهل الريف من ألياف البردي او القنب او الغار . وكان يخطو وهو يتعثر بثوبه ، وافتقد قبعته فلم يجدها وكانت قد سقطت في اثناء الفرار ولم يشعر فلم يهمه امرها وانما أهمه الوصول الى الدير .

أقبل على الدير فوجده مربع الشكل يكتنفه سور عال أشبه بأسوار قلاع الحصار ، طول كل ضلع من أضلاعه ١٤٠ مترا . ولم يكن زكريا جاء ذلك المكان من قبل ولكنه كان يسمع ان القادم الى الدير يقرع جرسا فوق الباب فيفتح له ؛ فأخذ يفتش عن الباب فدار حول السور فلم يجده، فاتهم عينيه بالخطأ لاعتقاده ان الاديار لا يمكن ان تكون بلا ابواب ،

فأعاد التفتيش بدقة فوصل الى مكان من السور وجد عنده حجري رحى كبيرين قطر الواحد منهما ثلاثة أذرع ، فتفرس فيهما فرأى وراءهما بابا لا يزيد علوه على ذراعين واذا فتح لا يدخله الانسان الا ساجدا ، فمد يده الى الباب وجسه بأنامله فرآه مصفحا بالحديد الضخم بحيث يستحيل كسره وهو لم يكن يريد كسره وانما يريد ان يعلن اهل الدير بوصوله ليفتحوا له فقال في نفسه : «اذا كان هذا هو الباب فلا بد من الجرس عليه او وراءه» . فتسلق احد الحجرين وتلمس الحائط فوجد عليه حبلا جذبه فسمع صوت الجرس وكان له دوي في ذلك الليل الموحش ، وعلا نباح الكلاب من الداخل ووقف ينتظر ما يكون .

وبعد هنيهة رأى أشعة نور مرسلة في الفضاء داخل السور تقترب نحوه ، وأخيرا رأى النور فوق السور يحمله راهب هرم أطل من اعلى السور يتطاول بعنقه والمصباح في يده ، وقد مد عينيه نحو زكريا كأنه يستكشف حاله ووقعت أشعة المصباح على وجه الراهب فأبان عن شيخ هرم قد تجعد وجهه وشاب شعره ، وحالما وقع بصره على زكريا قال بالقبطية : «من انت ؟»

قال : «غريب قاصد زيارتكم لتقبيل انامل البطريرك والتبرك بصاحب هذا الدير» .

قال : «هل انت وحدك ؟»

قال : «نعم يا اخي ألا تفتح لي ؟»

قال : «ان فتح الباب يقتضينا مشقة كبيرة لازاحة الحجرين من الخارج والاحجار من التي وراءه من الداخل ، فالاوفق على ما ارى ان ندلي لك حبلا ونرفعك بالبكرة» .

قال : «كما تشاء» .

فمضى الراهب ثم عاد وأدلى له حبلا تشبث به فأدار الراهب بكرة

كبكرة البئر فصعد زكريا حتى بلغ اعلى السور ، فسلم علـى الراهب ونزلا من وراء الباب وقد تغطى معظمه بالاحجار الضخمة التي دعسوا الباب بها وربما زاد وزنها على عشرات القناطير • فاستغرب زكريا ذلك الحذر لان ثقل هذه الاثقال يقتضي وقتا ومشقة فقال : «اراكم قد اكثرتم من الدعائم للباب كأنكم في حصار» •

قال : «لم نفعل ذلك الا في هذين اليومين لاسباب ستعلمها • تعال الان الى غرفة الاضياف وغدا نعرض امرك على الرئيس» •

ومشى الراهب امامه بالمصباح بين نخلات تناطح السحاب حتـــى أدخله غرفة معدة للاضياف ، وقد اخذ التعب منه مأخذا عظيما فصلـــى فرضه ونام •

ودير ابي مقار مكون من السور الذي ذكرناه ، ومن خمسة ابنية : ثلاث كنائس وبناء لسكن الرهبان وقضاء حوائجهم من اعداد الطعام وتناوله ، وبرج عال يقال له القصر وفيه ذخائر الدير من الكتب او الآنية القديمة ، ويتخلل هذه الابنية نخيل وبعض المغروسات التي يحتاجـون اليها في اصلاح الطعام •

والكنائس المشار اليها هي : كنيسة ابي مقار علـــى اسم صاحب الدير ، وكنيسة الشيوخ ، وكنيسة أبسخرون • اما البناء الذي فيـــه مساكن الرهبان ، ففيه دار واسعة تحيط بها غرف بعضها للنوم وفيهـا غرفة مستطيلة للطعام وحجرة كبيرة للطحن وأخرى للخبز وأخرى للطبخ• اما القصر فانه مؤلف من طبقتين : السفلى أقبية معقودة فيها خزائـــن الكتب او غيرها من الذخائر الثمينة كالالبسة او التيجان او الصلبـان ونحوها ، ومخازن المؤونة للزيت والحنطة وفيها منافذ سرية يلجأ اليهـا الرهبان عند الخطر العظيم اذا اخذ ديرهم •

وفي الطبقة العليا منهذا القصر ثلاثة معابد احدها على اسم مار سواح

والاخر لمار انطونيوس ، والثالث باسم مار ميخائيل ، وفي هذا المعبد الاخير نجد البطاركة الذين ماتوا هناك محنطين في توابيت ، والقصر حصين قد احتاطوا لمنع الاذى عنه بأن جعلوا بابه في الطبقة العليا لا يمكن الصعود اليه الا على سلم او جسر مدرج ، واصطنعوا له سلما مستقلا ضخم الشكل ثقيل الحمل ينصب عليه عند الحاجة فاذا أنزل عنه لا يمكن رفعه الا بالآلات الرافعة او يتعاون في نصبه عدة رجال •

وأفاق زكريا في صباح اليوم التالي على صوت الناقوس للصلاة باكرا فنهض وأسرع مع سائر الرهبان لحضور القداس في كنيسة ابي مقار ؛ وهي أفخم تلك الكنائس وأجملها ، وفيها ثلاثة هياكل : اكبرها الهيكل الاوسط ومساحته ٢٥ قدما في ٢٠ ، وعليه قبة مبنية من القرميد على طراز جميل وعلى جدرانها صور بعض القديسين وفي وسطها مذبح من الحجر وراءه مقاعد كالمنبر •

فاصطف الرهبان لسماع الصلاة وعددهم بضع عشرات ، بينهم عدة قسوس يتقدمهم البطريرك بلباس الصلاة ، ورئيس الدير • وكان زكريا يعرف البطريرك من قبل وقد شاهده مرارا في كنائس مصر ، لكنه رآه الان قد تغيرت ملامحه وبانت الشيخوخة في جبينه ، ولحظ عليه انقباضا لم يعهد فيه مثله ، فقال في نفسه : «لأمر ما تغير البطريرك ؟» • وازدادت رغبته في ملاقاته ، فأقيمت الصلاة بالقبطية على جاري العادة وليس في الجمع غريب غير زكريا ، فلفت وجوده انتباههم وأصبحوا ينتظرون الفراغ من القداس لسماع حديثه •

اما هو فحالما انقضت الصلاة وخرج البطريرك والرهبان ذهب الى الراهب الذي استقبله بالامس وطلب اليه ان يقدمه الى البطريرك فاستمهله الى ما بعد الفطور ، ودعاه الى الطعام في غرفة مستطيلة في وسطها مائدة طويلة من الحجر الى جانبها مقاعد يجلس عليها الرهبان في

صفين ، فأجلسوه معهم ، وجيء بالطعام وهو غاية في البساطة لا لحم فيه ولا فاكهة فأخذوا يأكلون بعد صلاة مختصرة الا راهبا.منهم تولى قراءة فصول من الكتاب المقدس في اثناء الطعام ٠

وكان زكريا يأكل وذهنه مشتغل بما سيدور بينه وبين البطريرك من الشؤون التي جاء من اجلها او اتفقت له في طريقه ، وتثبت من ضياع المؤونة المحمولة الى الدير مع الذين حملوها اذ لم ير واحدا رجع منهم حتى تلك الساعة ٠ وكان الرعيان يتحادثون ويشركون زكريا في حديثهم وهم يحسبونه راهبا مثلهم ٠

فلما فرغوا من الطعام نهض الراهب الشيخ ومضى بزكريا الى غرفة رئيس الدير فقدمه اليه ، فأسرع زكريا الى تقبيل يده ، فرحب به وسأله عن حاله وغرضه فقال : «جئت لمقابلة ابينا البطريرك» ٠

قال : «لعلك من رهبان النوبة ؟»

فوجم هنيهة ولم يجب فرارا من الكذب ثم قال : «كلا يا سيدي وانما لبست هذا الثوب لسبب سأعرضه على ابينا البطريرك» ٠

قال : «حسنا ، ولكن صاحب الغبطة مشغول الان ، وقد لا يرضى بأن يرى احدا» ٠

فأطرق زكريا وهو لا يستطيع صبرا ، ثم قال : «أود مقابلته الساعة، وأرجو منك ان تستأذنه لعله يسمح بمقابلتي فاني قادم لامر ذي بال» ٠

قال : «احسبك قادما من بلاد النوبة» ٠

قال : «كلا» ٠

ففهم الرئيس انه يكتم شيئا لا يريد التصريح به ، فاستمهله ريثما يبعث الى البطريرك ٠ فمكث زكريا حتى عاد الرسول وقال : «ان غبطة البطريرك ليس في غرفته» ٠

فقال الرئيس : «كيف ذلك ؟ ألم يتناول الفطور ؟»

قال : «لم يأكل اليوم» •

فهز الرئيس رأسه اسفا وقال : «لم أر غبطته في قلق مثل هذا القلق منذ عرفته ، سامح الله من سببه له» • قال ذلك وندم على ما قال • ثم ابتدر الرسول قائلا : «ابحث عن غبطته في القصر لعله هناك ، فقد رأيته يكثر التردد على كنيسة مار ميخائيل هذين اليومين» •

فذهب الراهب الرسول وعاد وهو يقول : «نعم انه في القصر وقد سألت الشماس كاتم أسراره فأخبرني انه في شاغل عن مقابلة الناس» •

فرأى زكريا ان يتولى امره بيده فوقف وقال للرئيس : «انا اذهب بنفسي اطلب المقابلة ، فدع الشماس يهدني الى الطريق» •

فأشار الرئيس الى الراهب ان يمشي مع زكريا ، ففعل وخرجا من الدار وأطلا على القصر الذي ذكرناه وهو أشبه بالابراج منه بالقصور، وكان السلم منصوبا عليه فصعد الراهب وزكريا في أثره حتى وصلا الى الطبقة العليا ، فاستقبلهما الشماس وتصدى لهما ولسان حاله يقول : «ألم اقل ان غبطته مشغول ؟»

فلما رآه زكريا عرفه وتذكر انه التقى به مرارا في الفسطاط من قبل، فتقدم اليه وحياه فلما سمع صوته عرفه فقال : «زكريا ؟»

قال : «نعم يا سيدي» •

قال : «ما الذي جاء بك الى هنا ؟»

قال : «جئت لألثم أنامل البطريرك» •

فتنهد وقال : «انه يصلي في معبد مار ميخائيل ، لا يدخل عليه احد» •

قال : «ولا انا ؟ فقد قطعت السهل والجبل وتحملت المشقة من طاء النمل الى هنا ، ألا يؤذن لي في مشاهدته !»

فلما سمع ذكر طاء النمل تذكر اجتماعه بصاحبها مرقس هناك فقال : «وأين المعلم مرقس !»

قال : «في الفسطاط ، استأذن لي البطريرك في الدخول» •

قال : «ماذا اقول له ؟»

قال : «قل له ولدك زكريا خادم دميانة يطلب لثم يديك» •

قال : «وهل يكفي هذا لتعريفك» •

قال : «يكفي» •

فدخل الشماس وعاد مشرق الوجه وقال : «ادخل» • ومشى بين يديه حتى أقبل على معبد مار ميخائيل وأشار اليه ان يتقدم وقفل هو راجعا •

أطل زكريا على الكنيسة الصغيرة وهي غرفة واحدة قسمت الى هيكل . وخورس بحاجز من خشب لا يبلغ السقف قائم على خمسة اعمده عليها بعض النقوش والصور ، وكان يتوقع ان يرى البطريرك واقفا امام المذبح للصلاة في وسط الهيكل فلم ير غير قلنسوته هناك فوقف لعله يراه قادما او يسمع صوتا يناديه ، فاذا به أطل من وراء الحاجز فأجفل زكريا عند رؤيته لما في وجهه من التغير وهو حاسر الرأس وقد تدلى شعره على قفاه وخديه وتجمدت لحيته واحمرت عيناه كأنه آت من وراء موقد تكاثف دخانه • ولما وقع بصره على زكريا دار من وراء الحاجز حتى خرج اليه وهو يقول : «من اين انت آت ؟»

فتهيب عند سماع صوت البطريرك مع ما شاهده في وجهه من آثار الانفعال ، وأكب على يده ليقبلها فمنعه فوقف مطرقا وقد احنى رأسه وقال : «اني آت من الفسطاط يا سيدي» •

قال : «كيف فارقت اسقفها ؟» • وتشاغل باصلاح شعره وفي القائه السؤال ما يشعر بأنه يضمر شيئا •

فأدرك انه يشير الى كتاب كان قد كتبه اليه يستنجده على الاسقف فأنجده ولم تنفع نجدته ، فخاف زكريا ان يكون قد ساءه ذلك فقال :

«فارقته في خير» .

فأمسك البطريرك بيد زكريا ودعاه الى الجلوس بين يديه وجلس على كرسي . فتباطأ زكريا في الجلوس اجلالا لمقام البطريرك فألح عليه فقعد على الارض مطرقا متأدبا ، فقال البطريرك : «فارقت أسقف الفسطاط في خير ، وكيف فارقت تلك الفتاة المظلومة ؟»

قال : «انما جئت في شأنها يا سيدي» . وتنهد وقال : «ان هـــذه المسكينة قد توالت عليها النوائب والمحن . واذا سألتني عنها قصصت حديثها عليك . غير اني ألتمس من مولاي البطريرك قبل ذلك ان يأذن في سؤال ارجو ألا يضن بالجواب عليه» .

فتنهد البطريرك تنهدا ختمه بزفير طويل ثم قال : «ستسألني عن أمور استغربتها فيّ : ستسألني عن حالي ، أليس كذلك ؟»

قال : «بلى يا سيدي ، كنت قادما اليك في مهمة أستنجدك فيها . فشغلت عنها بما اراه فيك من الانقباض والقلق ، وعهدي اننا في زمن صاحب مصر الحالي ابن طولون في أمان وسكينة ، فهل طرأ تغيير لا أعلــمه ؟ »

قال : «طرأت اشياء كثيرة اساء ابن طولون بها الينا وبالغ فـــي اضطهادنا بما لم يسبق الى مثله سلفاؤه الذين كنا نسمع بظلمهم ونشكو جورهم ، ولكنه لم يفعل ذلك من تلقاء نفسه ، ان الشر جاء من عندنا، جاء من ابنائنا ، هم الذين ساقوا هذا البلاء علينا» . قال ذلك ولحيته ترقص غضبا وحنقا .

فتهيب زكريا ولم يجسر على الاستيضاح ، فاستأنف البطريرك الكلام قائلا كأنه يريد تغيير الموضوع : «كيف اتيت الى هذا المكان ؟ هل اتيت وحــدك ؟ »

قال : «نعم يا سيدي» . وتذكر ما جـــرى له و ا اصاب الراهبين

وأحمالهما فتحقق ان لحادثتهما علاقة بما يشير البطريرك اليه فقال : «اصطحبت ركبا كانوا قادمين بأحمال المؤونة الى الدير» .

فقطع البطريرك كلامه قائلا : «وماذا جرى لهم ؟ اين هم ؟»

فقص عليه حديثهم ، ولما ذكر كلام الهجان عن تغير ابن طولون على الاقباط قطع البطريرك كلامه قائلا : «هذا ما اشرت اليه في اثناء حديثي» . ورفع رأسه وقال : «ويلاه ، آه يا ربي ومخلصي لماذا غيرت قلوب حكامنا علينا ؟»

فازداد زكريا رغبة في معرفة الحقيقة فقال : «وما الذي جرى يا سيدي لقد بلبلت بالي» .

قال : «ماذا اقول لك وقد بعث الي ابن طولون بالامس يطلب مالا ذكر انه في حاجة اليه ليرسله الى الخليفة في بغداد» . ومد البطريرك يده الى جيبه وأخرج درجا فتحه وقال : «هل تقرأ القبطية ؟»

قال : «نعم يا سيدي أقرؤها» .

فدفع الدرج اليه وقال : «اقرأ» .

فتناوله زكريا وقرأ فيه ما ترجمته : «انك تعلم ان علينا تأدية أموال الجزية الى خزانة الخليفة ببغداد صاحب هذه الديار ، وقد اشتدت حاجته الان الى المال ليقوم بنفقات الحرب التي هو فيها ، فمن كان في مركزك ايها البطريرك لا يحتاج الى اكثر من نفقات الطعام واللباس . وقد علمت انك ذو ثروة طائلة موفورة من نقود وآنية وأنواع الاقمشة الحريرية ، فكتبت هذا اليك لتبعث الينا بما نرسله الى الخليفة فتحظى مني ومنه بسنة جزيلة» .

فلما فرغ زكريا من القراءة دفع الدرج الى البطريرك وقال له : «من اين تأتي بهذه المطالب ؟»

قال : «لا أدري ، وقد كتبت اليه اشكو عذري وفقر الاديرة فلم

يصغ . وفي عزمي ان أوسط كاتب الماردانى في ذلك» •

فلما سمع زكريا اسم كاتب الماردانى تذكر اسطفانوس فأطرق وتغيرت سحنته فقال له البطريرك : «ما بالك يا بني ؟ ما الذي غيرك ؟»

قال : «تذكرت امرا جرى لنا في الفسطاط فقرنته الى الحديث الذي سمعته منك ، فلاح لي ان سبب التعدي ليس من ابن طولون» •

قال : «ألم اقل لك ذلك ؟ انه من ابنائنا» • وتنهد وقال : «لقد أطلت الكلام وأطلقت لنفسي العنان معك ولم أخاطب احدا سواك في هذا الامر ، لا أدري كيف وجدت راحة في الحديث معك ، هل تعرف سبب هذا الغضب ؟»

فتململ زكريا وبالغ في التأدب وقال : «لا أجهل ضعتي وتنازل غبطة البطريرك في محادثتي فان مثلي لا يحلم بهذا الاكرام» •

فقطع البطريرك كلامه قائلا : «كلا ، ليس هذا مرادي ، وليس في النصرانية تفاضل بين ابنائها ، وما البطريرك الا والد والرعايا اولاده لا فرق بين خادمهم ومخدومهم . واني أستلذ الحديث معك وأرتاح لمباسطتك ، وأحب ان أطلع على ما عندك ، هل تعرف سبب هذا الغضب؟»

قال : «اذا سمحت لي قلت ما يخطر ببالي» •

قال : «قل» •

قال : «أتذكر يا سيدي يوم كتبت اليك أستنجدك على أسقف الفسطاط ؟»

قال : «نعم أذكر ، وقد كتبت اليه أوصيه بالفتاة خيرا» •

قال : «أظن كتابك ساءه ولا يبعد ان يكون حمله على الوشاية» •

فقال البطريرك : «ربما ساقه ذلك الى النكاية بي ، ولكنني أعرف سببا اخر كان له تأثير اعظم ؛ ومنه يتبين لك اننا نحن معشر المسيحيين نحمل حكامنا المسلمين على ظلمنا ، وما ذلك الا من فساد نياتنا وكثرة

خطايانا » .

فتطاول زكريا لسماع ما سيقوله البطريرك .

فقال هذا : «السبب الاخر الذي أعرفه اني دعيت مع رهط من الاساقفة لتكريس كنيسة جديدة في جهة دنشوز من ابرشية سخا . فتأخر اسقف هذه الابرشية عن الحضور . فبدأت بالصلاة قبل حضوره، فلما جاء غضب وهجم علي وأنا أقدم القربان المقدس وخطفه من يدي وألقاه على الارض وخرج ، فعقدت مجمعا حكم بفصله . فأضمر لي السوء ودس لي عند ابن طولون زاعما ان عندي أموالا كثيرة . فبعث ابن طولون الي بهذا الكتاب . ان الله لا ينصر الظالمين والسيد المسيح لا يتخلى عن رعيته» .

ووقف البطريرك فجأة ، فوقف زكريا وتحفز للخروج . فوضع البطريرك يده على كتفه وقال : «تعال معي» . ومشى به نحو الحاجز الذي كان البطريرك وراءه فأدخله الهيكل ولم يقع بصر زكريا على ما هنالك حتى أجفل وتراجع ، والتفت الى البطريرك مأخوذا وعيناه شاخصتان من الرعب فقال له البطريرك : «لا تخف يا بني ان هذه الجثث التي تراها امامك هي جثث آبائنا الابرار ، أسلافنا البطاركة الذين تقدموني في الاشراف على هذه الاديار ، وقد حفظت محنطة هنا . ولما اشتد بي القلق في الليل الغابر بكرت في هذا الصباح ففتحت هذه التوابيت وجعلت أتفرس في وجوههم لاقترب بتصوراتي من العالم الثاني، وأعملت الفكرة عسى ان يفتح علي برأي ينقذني وينقذ اولادي الاقباط من هذه الورطة ، وشعرت وأنا منفرد بهذه الرمم كأني في مجلس شورى مجرد عن العالم ، وكم تمنيت لو نطقت الجثث ولكني استرشدت بأرواحها » .

وكان زكريا واقفا مأخوذا يرتجف من رهبة ما رأى ، فانه يعلم انهم

يحفظون جثث البطاركة هناك على هذه الصورة ، وتفرس فرآها لا تزال محفوظة كما تحفظ محنطات الفراعنة ، ثم رأى البطريرك قد تنـــاول قلنسوته وكان قد وضعها على المذبح فلبسها ، وأشرق وجهـــه وذهب انقباضه • فلما رآه زكريا منبسط الاسارير سرى عنه •

اما البطريرك فتحول للخروج من المعبد وقال : «لقد آن لك ان تقص علينا خبرك يا زكريا» •

فاستبشر وقال : «هل اقول الان ؟»

قال : «قل ولكنني لم اسألك عن هذا الثوب الذي تلبسه ، ومتى دخلت الرهبنة ؟» • قال ذلك ومشى ، فتبعه زكريا متأخرا متأدبا وقال: «لم أترهب يا سيدي ولكنني تنكرت بهذا اللباس اثناء الطريق وقد اخذ اللصوص كل ثيابي فلم أستطع تبديله» •

قال : «أتعلم ان هذا التنكر بعث على زيادة النقمة عليك» •

فانتبه زكريا لما سمعه من الهجان فقال : «علمت ذلك من كلمة قالها احد اللصوص ولكنني لم أفهم السبب» •

فقال : «أتحب ان تعرف السبب» • وصفق فجـــاء شماسه مهرولا فقال له: «انزل بنا الى الطبقة السفلى لترى الكتاب الذي جاءنا بالامس من ملك النوبة» •

فمشى الشماس امامهما ونزل بهما في سلم سري داخل القصر حتى بلغ الى حجرة رأيا فيها كتبا متراكمة ، وفي جملتها صندوق فيه أدراج كثيرة تناول الشماس كتابا منها دفعه الى البطريرك ففتحه وقال : «هذا كتاب ملك النوبة أرسله الينا يدعو فيه الى خلع طاعة المسلمين والاتحاد معهم عليهم باسم دولة الروم • وقد علمت من فحواه انه أرسل كتابا قبله لم يصل الينا • ولعله قد وقع في أيدي المسلمين واطلعوا عليه • وقــد فهمت من رسول ابن طولون انهم عارفون بهذه المراسلات فظنوني موافقا

هذا الملك على غرضه وأنا بريء من هذا لاني لا ارى خيرا يرجى منه .
فلما رأوك بهذا اللباس وأنت نوبي ظنوك رسولا الي من ملك النوبة» .

فتنبه زكريا لهذا السبب وقال : «صدقت يا سيدي ، ان محاولتنا التخلص من سلطة المسلمين لا فائدة منها ، ولاسيما بعد ان تولى ابن طولون فانه ...»

فقطع البطريرك كلامه قائلا : «انه لا بأس به ، ورغم ما ذكرته لك من امره معي فاني لا أحمله تبعة عمله ، وانما التبعة علينا نحن فاننا نحرض حكامنا على ظلمنا بسوء عملنا وفساد نياتنا» . قال ذلك وهو يكاد يغص بريقه . وكأنه أكبر ان يظهر هذا الضعف فعمد الى تغيير الحديث فقال لزكريا : «لقد شغلناك عما جئتنا من اجله وامتد بنا الحديث فقل . ماذا تريد منا ؟»

وكانا قد خرجا من القصر واقتربا من غرفة البطريرك فدخل البطريرك وجلس وأشار الى زكريا ان يجلس ويقول ما يريده ، فجلس وأخذ يقص حديث دميانة وما قاسته من معاملة ابيها وخطيبها حتى يوم فرارها الى حلوان وكيف سطا البجة على هذا البلد ونهبوه وسبوا اهله وهي معهم . وأنه جاء ليوسطه لدى ملك النوبة لانقاذها .

وكان البطريرك يسمع الحديث وهو مطرق يهز رأسه حينا بعد حين استنكافا من تصرف مرقس واسطفانوس ، فلما سمع خبر أسر دميانة قال: «دميانة أسرت ؟. انها لا تستحق ذلك لانها تقية ورعة ، كأن فيها بركة من سميتها القديسة دميانة عليها السلام ، ولكن الله يجرب خائفيه . وقد سمعتك تطلب وساطتي لدى ملك النوبة ؟»

قال : «نعم يا سيدي ان حسن في عينيك هذا» .

قال : «هذا فرض علي لعدة اسباب : أولها اني انما قبلت هذا المنصب حتى اقوم على خدمة شعبي وأبذل ما في وسعي لراحتهم وسعادتهم ،

وكذلك لاني أحن الى هذه الفتاة وأحبها لتقواها وورعها . فضلا عن اني احب ان اجيب ملك النوبة على كتابه ولا أثق بمن يوصل كتابي اليه ، وبما انك ولدنا وتعرف البلاد فسأكتب له اجيبه على ما دعاني اليه من القيام على الدولة فأقبح رأيه وأدعوه الى الطاعة وأذيل الكتاب بالتوصية اللازمة حتى يساعدك فيما تريده» .

فطأطأ زكريا رأسه اذعانا وارتياحا وسكت . فصفق البطريرك فجاء الشماس قال له : «اكتب الى ملك النوبة كتابا فحواه كذا وكذا (وذكر الفحوى) وذيله بالوصاية بولدنا زكريا ليساعده في انقاذ بنتنا التقية دميانة » .

فأشار مطيعا وخرج ثم عاد وبيده صحيفة من القباطي وقد كتب عليها بالقبطية شرحا طويلا ؛ فتناولها البطريرك وقرأها ووقع عليها ، وأعادها الى الشماس فطواها ولفها بمنديل وختم المنديل ودفعه الى زكريا ، فتناوله هذا وقبله وأكب على يد البطريرك يقبلها ؛ ووضع المنديل في الكيس تحت ابطه مع الاسطوانة العزيزة وقد تهلل وجهه فرحا ، وظل واقفا كأنه ينتظر امر البطريرك فقال له : «يظهر لي انك تستعجل الذهاب ؟»

قال : «ألا ترى يا مولاي ان أعجل بالوصول الى بلاد النوبة لانقاذ دميانة ؟ فاني لا أعلم حالها» .

قال : «صدقت . وليكن الله معك والسيد المسيح ينصرك ويأخذ بيدك» . وباركه ثم التفت الى الشماس وقال له : «قل للرئيس ان يزود ولدنا زكريا بما يحتاج اليه في طريقه» . والتفت الى زكريا وقال : «ما هو طريقك ؟ »

قال : «ارى ان اسير في الطريق الذي اتيت منه في الصحراء الى النيل ، ثم ألازم ضفة النيل الغربية الى الجيزة ومنها في طريق الصحراء مع بعض القوافل الى دنقلة» .

قال : «رافقتك السلامة ببركة سيدتنا البتول وسائر القديسين» •

أكب زكريا على يد البطريرك فقبلها ثانية وودعه وخرج • وأعد الشماس له عدة السفر ، وكانت الشمس قد مالت عن خط الهاجرة فقال له وهو يودعه : «ليس عندنا ركائب نعطيك منها ولكنك عندما تخرج من الدير تجد قوافل مارة من وادي النطرون الى النيل فرافق واحدة منها» •

فشكر له نصيحته وظل واقفا وعلى كتفه كيس فيه الزاد للطريق فاستغرب الشماس وقوفه ، وقال له : «لعلك تحتاج الى شيء اخر ؟»

قال : «كلا ، ولكنني تذكرت ما اصابني في مجيئي فينبغي لي ان أحتاط في رجوعي ، وأبدل بثوب الرهبنة الذي أرتديه ثوبا اخر ، حتى لا يعرفني احد ممن اعتدوا على القافلة التي اقبلت فيها» •

فقال الشماس : «لقد أصبت ، فتمهل ريثما اعود اليك» • ومضى ثم عاد ومعه صرة فتحها فاذا فيها قفطان وعباءة وقلنسوة وعمامة اعطاه اياها وقال : «هذه أثواب بعض الجنود وقعت لنا صدفة ، وعسى ان تنفعك» •

ففرح بها زكريا ولبسها وطلب مرآة يرى بها وجهه فأعطاه فنظر فيها فاذا هو قد تغيرت قيافته وان بقي وجهه ينم عليه عند التفرس ، على انه قنع بما كان ، وودع الشماس فرافقه هذا الى باب الدير وفتحه له ، فخرج ومضى في سبيله •

ولما رأى نفسه في الصحراء أكبر امره ، وتخيل وحدته بها في الظلام، لا يدري اين يبيت ولا اين يلتجيء ، فوقف حائرا وكاد يقلع عن السفر وحده ، ثم تذكر نصيحة الشماس فاتجه في طريق وادي النطرون وهو على مقربة منه • وقبل ان يشرف عليه سمع انينا فوقف وتلفت ثم مشى الى جهة الصوت ، فلما اقترب منه رأى رجلا ملقى على الارض ويداه ورجلاه مشدودة بحبال ، وهو يستغيث ، وما كاد يرى زكريا حتى قال له بالقبطية : «انجدني ايها الجندي بحرمة الذي تعبده» •

فعلم زكريا انه ظنه جنديا لما رأى لباس الجند عليه ؛ فأسرع اليه فاذا هو شاب قمحي اللون عليه ثياب التجار ، فأخذ في حل الحبال فلما افلت الرجل هم بيدي زكريا يقبلهما وهو يقول : «جزاك الله خيرا يا سيدي».

فقال زكريا : «من انت وما خطبك ؟»

قال : «انا تاجر أحمل الملح والنطرون من هذا الوادي ، ولي قافلة تعودت ان أسيرها بأمان فجئت هذه المرة مع القافلة وحملنا الاحمال وخرجنا من الوادي في الصباح ، واذا بجماعة سطوا علينا فساقوا القافلة برمتها وتركوني مقيدا كما ترى» .

وكان يتكلم وهو يكاد يبكي من الحزن والجزع . فرق زكريا لحاله وازداد خوفا على نفسه من الخطر فقال : «لا بأس عليك يا صاحبي والحمد لله اذ سلمت . والآن ماذا تريد ان تفعل ؟»

قال : «لا اريد شيئا فان أموالي وأحمالي ضاعت ، واظن اللصوص سيقتلون رجالي ؛ ولا آسف على شيء ما دمت حيا . واني اشكر الله على ان لقيت جنديا نبيلا مثلك . فهل تتمم جميلك وتعدني ان ترفع امري الى صاحب مصر ؟»

فاعتقد زكريا ان تنكره غر الرجل . فوعده ان يبلغ امره الى امير مصر متى وصل الى الفسطاط ؛ ثم احب ان يستعينه على امر الرجوع فقال : «وكيف السبيل الى الرجوع الان فقد كان معي جمل ضل مني وأصبحت راجلا كما ترى» .

فأطرق الرجل هنيهة ثم قال : «أظنني اقدر ان أدلك على جمل في مكان قريب وراء هذه الأكمة كنت قد ربطته هناك قبل هجوم اللصوص ولعلهم لم يعرفوا مكانه فتركبه اذا وجدناه» .

ففرح زكريا وقال : «امكث هنا وأنا أذهب للتفتيش عن الجمل» .

قال ذلك وأسرع وقلبه يخفق فرحا بهذه الصدفة . فلما دنا من الأكمة

سمع جعجعة الجمل فضحك فرحا ووثب حتى قبض على زمامه وحل عقاله وساقه الى الرجل ، فوجده في انتظاره فقال له : «ان الله أرسلك لانقاذي من العذاب في هذه الصحراء» •

فقاطعه الرجل وقال : «بل انت الذي ارسلك الله لانقاذي ، اذ لولاك لمت في قيودي ، فأنا مدين لك بحياتي ولا اقدر ان أكافئك الا بأن تركب الجمل وأنا اقوده» •

فقال زكريا : «حاش الله ان أقبل ذلك • بل أردفك والجمل يحمل ثلاثة وأربعة كما تعلم» •

قال : «كما تشاء» • وأخذا في معالجة الرجل حتى يتسع لهما ، وغلق زكريا كيس زاده عليه . وركبا وسارا على حذر الى المساء ، فباتا ليلهما وزكريا لا يرى من الرجل الا الأنس والمجاملة ، فشكر الله على ان هيأ له معرفته ، وشعر بتأنيب ضميره لكتمانه امره عنه ، وهم بأن يبوح له بحقيقة امره لكنه توقف خجلا من الاعتراف بالكذب ، وأجل ذلك حتى اخر الطريق ، وكانا يخافان ان يدهمهما اللصوص ، ولكنهما لم يلتقيا بأحـــد •

وبعد يومين وصلا الى ضفة النيل فقال التاجر : «هل لك ان تسافر الى الفسطاط على النيل» •

قال : «ما لنا وركوب الماء ؟ دعنا نواصل السير على هذا الجمل فقد استحسنت خطواته» •

قال : «كما تشاء وما دام جملي قد وقع عندك موقع الاستحسان فهو لك عندما نصل الى الفسطاط» •

فسر زكريا لهذه الهدية لشدة احتياجه اليها ، وتوهم ان الرجل يبالغ في اكرامه طمعا في مساعدته عند ابن طولون ، وكان يتألم من ذلك فقد كان طيب السريرة حي الضمير يأنف ان يرى الناس فيه ما ليس علـــى

حقيقته • وما زالا راكبين يسير بهما الجمل على ضفة النيل الغربية : يقتربان من النيل ساعة ويبتعدان اخرى ، وزكريا يزداد استئناسا بالرجل وامتنانا له حتى أطلا على الاهرام ، فلم يبق لزكريا عذر في السكوت وقد بلغ الجمل محاذاة الهرم الكبير ولم يبق الا ان يتحولا نحو الجيزة ويعبرا الجسر الى جزيرة الروضة ومنها بجسر اخر الى الفسطاط•

وصلا الى الهرم عند الاصيل ، والرجل يحث الجمل حتى يدرك الفسطاط قبل الظلام فقال زكريا : «ما أفخم هذه الاهرام وما اجمل الجلوس عندها والاشراف على البساتين تتخللها المياه» • ففهم رفيقه انه يريد النزول فقال : «ننزل هنا» • وأناخ الجمل وزكريا يعمل فكره ويكد قريحته ليستنبط حيلة يستبقي بها الجمل معه هناك ، وفيما هو في ذلك قال رفيقه : «حقا ان المبيت هنا جميل فاذا وافقتني قضينا هذا المساء هنا وفي الصباح نمضي الى الفسطاط» •

فاستحسن رأيه وقال : «لا اخفي عليك اني لا استطيع الذهاب معك الى الفسطاط ، فان علي ان اقضي امرا فيما وراء الجيزة» •

فابتدره قائلا : «حدثتني نفسي بأنك تريد شيئا وتكتمه عني . فنحن أخوان لا ينبغي ان تكتمني امرا تطلبه ، وقد قلت لك ان حياتي منة منك وأنا انما أرغبك في الذهاب معي الى الفسطاط لأكافئك على صنيعك • فالمال متوافر عندي ، فاذا كنت تؤثر البقاء هنا فامكث وأذن لي ان اغيب عنك ساعة ثم اعود اليك بهذا الجمل وأزودك بما يدل على اعترافي بجميلك » •

فازداد زكريا فرحا بالرجل وبصداقته ، ولم يعد يعرف كيف يشكره فقال : «لا فضل لي في شيء فعلته والفضل فضلك اذ اتيت بي من تلك الصحراء على جملك» •

فقال الرجل : «بل هو جملك أستأذنك في ركوبه الى الفسطاط

وأعود به . فهل اجدك هنا ؟»

قال : «تجدني عند قاعدة الهرم الكبير» . فودعه ومضى .

★ ★ ★

افتقد زكريا بعد ان بقي وحده الاسطوانة والكتاب تحت أثوابه ، فلما وجدهما في موضعهما بالكيس المعلق الى عنقه . اطمأن وأخذ يتمشى حول الهرم حتى تجاوزه الى تمثال ابي الهول فوقف يتأمله حينا ثم عاد أدراجه : ورأى الشمس تنحدر وتكاد تغيب فاستوحش لانفراده بين تلك الرمال . ثم غربت الشمس وأخذ الظلام يتكاثف فاستبطأ صاحبه وندم لانه لم يسأله عن اسمه ومسكنه . على ان اكثر اهتمامه كان موجها الى الجمل لشدة حاجته اليه بعد ان فقد ما كان يملكه من المال في بادية النطرون قبل دخوله الدير وأصبح لا يملك ما يستأجر به دابة تحمله الى بلاد النوبة .

ومل زكريا الانتظار وتعب بصره من التشوف عن بعد لعله يرى صاحبه قادما . ثم صعد بعض درجات الهرم الكبير حتى وصل الى مدخله فوقف ببابه وعيناه شائعتان نحو الجيزة لعله يرى شبحا او يؤانس نورا ويده لا تكاد تفارق ابطه يتحسس الكيس الذي به الاسطوانة والكتاب. وسرحت افكاره في عالم الخيال فخيل اليه ان اسطفانوس علم بأمره فأرسل من يقبض عليه فلما تصور ذلك اختلج قلبه في صدره لانه أعزل ولا طاقة له بالدفاع ، وجل همه ألا تذهب الاسطوانة منه ، فمد يده وأخرج الكيس من تحت ابطه وتفقد ما فيه جيدا مخافة ان يكون قد خدع باللمس فرأى الاسطوانة والكتاب . وبينما هو يهم بأن يعيد الكيس الى عنقه سمع خربشة فاقشعر بدنه خوفا من وحشة المكان وكثرة الافاعي والحشرات في تلك الخرائب ، فأصاخ بسمعه والكيس لا يزال في يده

وقد جمد الدم في عروقه . فسمع وقع أقدام وهمسا فانزوى في مدخل الهرم يحاول الاختباء ، ووجد المدخل ضيقا وعميقا كأنه قناة مربعة لا يتسع لدخوله الا جالسا او ممددا • فتربع هناك وانتظر منصتا وهو يحدق ببصره في جهة الصوت : فرأى بضعة رجال متزملين بعباءاتهم يتقدمهم رجل يخاطبهم همسا ويقول : «تركته هنا ولا نلبث ان نجده فلعله نائم» •

ولم يكد زكريا يسمع الصوت حتى عرف انه صوت صاحبه التاجر. فخالجه الشك في ذلك الرفيق ، وبالغ في الانزواء فانبطح في المدخل مستقبلا ارضه بصدره بحيث يطل رأسه الى الخارج : والمدخل مائل الى الداخل بانحدار فخاف اذا تراخى ان ينزلق الى جوف الهرم وهو لا يعرف قراره والناس يتحدثون بأن الجن تسكنه • ولامست ساقه ارض المدخل فاقشعر بدنه من برده وخيل اليه انه لمس حشرة ولولا قلقه مما سمعه من تهامس القادمين . ما استطاع المكث هناك لحظة • كل ذلك وهو قابض على الكيس بيده • وكان القوم قد اقتربوا منه وهم يجيلـــون نظرهم فيما حولهم ولم يخطر لاحد منهم ان الرجل الذي يبحثون عنه في واجهة الهرم وانه مختف في مدخله : ولا هم يعرفون له مدخـــلا يختفي فيه الرجل والرجلان • فلما رآهم على مقربة منه أمسك نفســـه وأصاخ بسمعه فسمع احدهم يقول : «اين هو ؟ اننا لا نرى بشرا •• كأنك خدعت المعلم وقد لا يكون هو الرجل ، او انه خدعك» •

فقال : «لا ريب انه هو بعينه ، وقد رأيت الاسطوانة في عنقـــه استرونه وترونها» •

ثم رفع بصره الى اعلى كأنه ينظر الى المدخل فاستولى الخوف على زكريا لعلمه انه لا يقوى على الدفاع ولا الفرار ، خصوصا بعد ان تبين القوم وتحقق انهم مدججون بالسلاح ولم يبق عنده شك في ان رفيقه بالامس جاسوس استمهله وذهب ليشي به الى المعلم مرقس فبعث من

يقبض عليه • وعلم ان المعلم مرقس لا يهمه من امره الا الحصول على الاسطوانة التي اخذها من منزله لان كل آماله فيها ، فأخذ يفكر فيما يصنع بها • واذا ببعضهم يتسلق الاحجار كأنه يهم بالصعود الى بـاب الهرم فازداد قلق زكريا وضاق نفسه حتى كاد يغمى عليه . وعلم انه غير ناج من ذلك الشرك فأخذ على نفسه اذا ظفروا به ان لا يظفروا بالاسطوانة، وذلك لعلمه بأن مرقس ان ظفر بها معه فسيقتله لا محالة ، وأما اذا قبض عليه ولم يجدها معه فانه يستبقيه ليساعده في البحث عنهـا • فتلمس الحائط بجانبه فوجد حفرة متسعة بين الاحجار فأدخل الكيس فيهـا وغطاها بحجر فلم تعد تظهر لاحد • ثم تجمع حتى جلس القرفصاء بباب الهرم كأنه يتحفز للوثوب • وكان الرجل الصاعد قد تسلق درجتين او ثلاثا ثم وقف على حجر مرتفع ونظر الى ما حوله ثم خاطب دليلهم قائلا : «ان اليهود لم يصدقوا عسرهم حتى يصدقوا اليوم • ها انذا عند الهرم فأين الرجل المطلوب ؟• ووالله ان لم نجده لتذوقن العذاب» •

فعلم زكريا ن صاحبه يهودي احتال عليه • فارتعد فرقا ، وأمسك أنفاسه مخافة ان يدهمه عطاس او سعال فينكشف امره ، واذا بالقوم قد تحولوا من هناك وهم يقولون : «انه ليس هنا فلنبحث عنه في مكان اخر» • ومشوا نحو الهرم الثاني فما صدق زكريا ان رآهم انصرفوا حتى خرج من المدخل وتنفس الصعداء ، وهبط متلصصا حتى صار على الارض امام الهرم الكبير ، فتربص حينا وهو قاعد حتى ظن القوم بعدوا فنهض ومشى يطلب الفرار ميمما وجهه شطر البساتين ليختبىء فيها . وفـي الصباح يعود لاخذ الكيس •

ولم يكد يمشي خطوات قليلة حتى سمع مناديا يقول له : «قف عندك والا قتلت» •

فلم يجبه وظل ماشيا كأنه يتجاهل وركبتاه ترتعدان ، واذا بالرجال

اسرعوا اليه ، وحدثته نفسه بالفرار ولكنه يعلم عجزه عن ذلك لتعبه وضعفه ، فرأى ان يقف وقوف المتجلد فالتفت الى جهة الصوت وقال : « من تعني ؟ »

فتقدم اليه اربعة رجال علم من قيافتهم لما اقتربوا انهم من الجند المصري ومعهم ذلك اليهودي وهو يقول : «هذا هو ، امسكوه» .

فنظر زكريا اليه ، وقال : «تبا لك من خائن !» . ثم التفت الى الرجال وقال : «لا حاجة بكم الى القبض علي فاني اسير بين ايديكم وأنا أعزل » .

فتقدم احدهم وبيده حبل وبجانبه رجل اخر وأخذا يشدان وثاقه ويقولان : «قد امرنا ان نأتي بك موثقا» .

فلما شدوا وثاقه ساقوه بين ايديهم الى مكان اخر وراء الهرم كانوا قد خبأوا فيه جيادهم فأركبوه احدها وهم حوله يخفرونه ، وساروا يطلبون الفسطاط .

ووصلوا الى الفسطاط في الهزيع الاخير من الليل ، فأدخلوا زكريا غرفة منفردة وقاموا بحراسته الى الصباح . اما هو فسع خوفه على حياته كان يجد تعزية في انقاذ الاسطوانة من يدي مرقس ، فبات بقية تلك الليلة وهو يفكر فيما مر به وكيف وقع في هذه الشراك بعد ان أوشك ان ينجو . وعلم ان المكيدة كلها من ذلك اليهودي وأدرك انه مرسل من قبل مرقس او اسطفانوس ليتعقبه ، واستغرب كيف انطلت عليه حيلته حتى وقع في الاسر ولكنه شكر الله على نجاة الاسطوانة .

وفي الصباح سمع الباب يفتح ، ودخل عليه رجل لم يقع بصره عليه حتى أجفل لانه المعلم مرقس . ولكنه تجلد ولم يبد حراكا فقال له مرقس : «أهذا جزاء التربية والخبز والملح ؟ تفسد علي ابنتي وتفر بها حتى اضاعت مستقبلها وأصبحت شريدة طريدة ؟»

فظل زكريا صامتا مطرقا فحسبه مرقس ندم على عمله فازداد جرأة عليه فقال : «بماذا أجازيك على هذا العمل ، ان القتل قليل لجانب ذنبك» .

فرفع زكريا بصره اليه وقال : «ان القتل لا يخيفني ولا انت تستطيعه، ومن كان مثالك لا يخشى بأسه» .

فغضب مرقس وقال : «أتخاطبني بهذه القحة وأنت خادمي ؟»

قال : «حاش لله ان اكون كذلك . انما انا خادم تلك الفتاة الطاهرة ، او الملاك الارضي . انا خادم دميانة وعبدها اكراما لوالدتها المسكينة وطوعا لصاحبة الامر . ولولا العهد الذي قطعته بالثبات في خدمتها لتركتها فرارا من عشرة ابيها الظالم» .

فحمي غضب مرقس وقال : «انا ظالم ؟»

قال : «ألا تعرف نفسك ؟ هل تجهل ما صنعته بابنتك التي تزعم انك نقمت علي في سبيل الدفاع عن نفعها ، ألا تعلم من الذي اضاع حقها ؟»

فاستاء مرقس من هذا التعريض وفهم مراد زكريا لكنه تجاهل توصلا الى مرغوبه فقال : «اراك تهذي بكلام لا معنى له . أتعلم لماذا ساقوك الى هذا المكان وبعد قليل يحملونك الى السجن المظلم وتسلم لابن طولون أتعلم لماذا ؟ »

فسكت زكريا ولم يجب ، فعاد مرقس يقول :

«انا اعلم . لقد ساقوك الى هنا لانك سرقت منزل سيدك وأخذت منه التحف والجواهر وفررت بها . ولانك ايضا تساعد البطريرك ميخائيل على تواطئه مع النوبة للقيام على المسلمين » .

فلما سمع زكريا قوله هز كتفيه وظل مطرقا لا يظهر اهتماما ، فاستغرب مرقس ذلك منه وقال : «يظهر انك لم تدرك مقدار ما يهددك من الخطر لهذه التهم . وأنا — مع عظم اساءتك الي — لا ازال أميل الى الرفق بك اكراما للخبز والملح . وعلى هذا اوصيت الجند بأن يأتوا بك

الى هنا قبل حملك الى ابن طولون لعلي استطيع انقاذك . واعلم ان نجاتك في يدي ، اذا شئت أطلقتك واذا شئت سلمتك الى الشرطة . وأنا ميال الى اطلاق سراحك اذا ندمت على ما فرط منك وسلمت الي ما اخذته من منزلي . ليس كل ما اخذته . فأنا أكتفي منك بالاسطوانة فان فيها اوراقا تهمني ولا فائدة لك منها ، فاذا اطعتني وسمعت نصيحتي نجوت لساعتك ، والا فاني أسلمك الى قضاء ابن طولون وأنت تعلم عاقبة ذلك » .

فقال : «انا لم أعمل عملا أندم عليه ، وأما الاسطوانة فلا علم لي بها ، كما اني لم اسرق شيئا ولا انا ممن يطمعون في الاموال اذ ليس لها قيمة عندي فليس لي ولد أورثه وأيامي اصبحت قصيرة لا تستحق حشد الاموال ولا مطمع لي في ملاذ الدنيا وشهواتها مثل غيري» .

فقطع مرقس كلامه قائلا : «ما لنا وللاموال ؟ اني أكتفي بالاسطوانة التي فيها الاوراق . هاتها ولك الامان» .

قال : «من اين آتي بها ؟ ليس عندي اسطوانات ولا اوراق» .

قال : «أتنكر وهي في جيبك ؟»

قال : «في جيبي ؟ ليس معي شيء» .

فصفق مرقس فدخل جندي كان واقفا بالباب ، فأومأ مرقس الى زكريا وقال : «فتشه فانك تجد معه اسطوانة هاتها» .

فتقدم الجندي وأخذ يفتش أثواب زكريا قطعة قطعة ومرقس يقول له : «فتش تحت أثوابه وبين ذراعيه وجنبه» . ومضى الجندي يفتش زكريا ، وهذا باسط ذراعيه ، ومرقس يراعي حركاتهما ويتفرس ويدقق، حتى اذ تعب الجندي من التفتيش ولم يجد شيئا اشار اليه مرقس ان يخرج فخرج . وعاد هو الى زكريا وقد امتقع لونه من الغضب والفشل لانه كان على ثقة من وجود الاسطوانة معه فقال: «اين ذهبت بالاسطوانة

يا زكريا ؟ »

قال : «ليس عندي اسطوانات ولا أفهم ما تقول» •

فأطرق مرقس وخطر له انه اعطى الاسطوانة الى دميانة اذ ليس ثم من يثق به سواها فقال : «اين دميانة ؟»

فضحك زكريا ضحكة استخفاف ، وقال : «تأخرت في السؤال عن ابنتك ايها الوالد الشفيق • وأنت تسألني عنها الان لا غيرة عليها ولكنك تظن الاسطوانة عندها • فكن على يقين انها لا تعرف شيئا من امرها» •

فأعاد مرقس السؤال : «اين دميانة ؟»

قال : «لا أعرف مقرها» •

قال : «وكيف ذلك •• وأنت فررت بها ، ماذا جرى لها ؟»

فحدثته نفسه بأن يخبره عن مكانها • لكنه خاف ان يستعين مرقس بذلك على الفتك بها فيذهب سعيه هدرا فقال : «لا أعرف اين هي الان»•

قال : «يظهر انك تبحث عن حتفك بظلفك ، سترى عاقبة امرك» • قال ذلك وخرج وأغلق الباب وراءه بشدة ، فعلم زكريا انه صائر الى السجن بعد قليل • ولم تمض هنيهة حتى جاء الجند فحملوه الى القطائع وزجوه في غياهب السجن •

- ١١ -

بين قبائل البجة

البجة جيل من الناس كانوا يقيمون بالصحراء بين النيل والبحـر

الاحمر ، تبدأ بلادهم من الشمال بقرية يقال لها «معدن الزمرد» في صحراء قوص ، وبينها وبين قوص نحو ثلاث مراحل . وكان لذلك المعدن شأن في التاريخ القديم ، اذ كانوا يستخرجونه من مغاور بعيدة مظلمة يدخل اليها بالمصابيح وبحبال يستدل بها على الرجوع خوف الضلال ، ويحفر عليه بالمعاول . وآخر بلاد البجة اول بلاد الحبشة وأبعد بلادهم قرية يقال لها «هجر» . وهم اول اهل بادية يتبعون الكلأ للرعي حيثما يكون ، ويقيمون بأخبية من الجلد . وكانت أنسابهم من جهة النساء اي ان الرجل منهم ينتسب الى والدته على عادة الاجناس المتوحشة . وهم قبائل كثيرة لكل منها رئيس . وكانوا من عهد الفراعنة يهاجمون ضفاف النيل في الصعيد فينهبونها ويعودون الى البادية فلا تقوى الدولة على اللحاق بهم ، بل كانت تجاريهم لانها تحتاج اليهم في استخراج المعادن وحراسة المناجم ، او ليكفوا اذاهم عنها . وكذلك الروم لما ملكوا مصر . ولما فتح المسلمون مصر لم يحاربوهم حتى كانت ايام «ابن الحبحاب» في اوائل القرن الثاني للهجرة فهادنهم على مال يؤدونه الى بيت المال ، وتوالت المراسلات والمكاتبات والغزوات بينه وبينهم ، ولما اختل شأن مصر في اوائل الدولة العباسية تمادى البجة في تعديهم حتى صاروا يسطون على ضواحي الفسطاط . فلما تولى ابن طولون صار يتقي غزواتهم بحامية يقيمها وراء المقطم .

فاتفق اثناء اقامة دميانة في حلوان ان شرذمة منهم سطت عليها ونهبتها وقتلت كثيرين من اهلها ومنهم «قعدان العربي» وحملوا ابنته ودميانة سبيتين ، ونقلوهما على جمالهم السريعة الجري الصبورة على العطش . وكانوا يسابقون بها الخيل ويقاتلون عليها ، وتدور بهم كما يشتهون ويقطعون عليها الفيافي والقفار ، ويتطاردون عليها في الحرب فيرمي الواحد منهم الحربة فان وقعت في الرمية طار اليها الجمل فأخذها

صاحبها ، وان وقعت على الارض ضرب الجمل بجرانه الارض فأخذها صاحبها •

فلما رأت دميانة نفسها على ظهر الجمل وقد أدير رأسه نحو البادية انتبهت لهول المصاب وأخذت تبكي وتستغيث وتتضرع الى الله ان ينقذها من شر هؤلاء القوم ، فقد دهشت لخشونتهم اذ رأت وجوها صفـــرا وأجساما رقاقا وبطونا خماصا ، وأكثرهم عراة الصدور يدهنون جلودهم بالشحم ، وشعورهم متلبدة متكاثفة بما عليها من آثاره ، ويحمل كـل منهم رمحا طوله سبع أذرع : عوده اربع وحديده ثلاث ، كما يحمل درقا من جلود البقر المشعرة او جلود الجواميس المقلوبة . وبعضهم يحملون قسيا عربية غلاظا من السدر والشواحط ، واذا عدا احدهم تحسبه من الجن لدقة ساقيه وسرعة جريه • فكان خوفها عظيما ولم تعلم بأمر رفيقتها اذ كانت على جمل اخر • ولم يمسها احد بسوء وأنما حملوها في جملة السبي وتبطنوا الصحراء وهم يتراطنون بلغة ليست بالقبطية ولا النوبية ولا العربية فلم تفهما ما يقولون • ولما اقبل المساء حطوا الرحال ونصبوا خيمة نزل فيها رئيسهم ، وهو يمتاز عنهم بلباسه الملون المزركش ، وقد تقلد سيفه مفضضا • وكان راكبا جوادا أصهب • وأنزلوا السبايا فـي خيمة اخرى • فلما اجتمعت دميانة بابنة قعدان واسمها علية استأنست بها، وجلستا تتباكيان وكل منهما تعزي الاخرى • ولا يعزي دميانة غير الامل في النجاة بأعجوبة من الله •

ولما غربت الشمس وساد الظلام أوقدوا نارا بين الخيام للاستضاءة ؛ وأتى رجل يتكلم القبطية وتقدم الى دميانة ورفيقتها وأخذ يطمئنهمـــا ويحبب اليهما الصحراء • ثم اتاهما بالطعام وهو اللحم واللبن فعافت نفس دميانة الطعام ولكنها اضطرت من العطش الى شرب اللبن • ولـما سمعت كلام الرجل سكن روعها لانها آنست منه تشجيعا ورأت فيـــه

أريحية فقالت له : «الى اين انتم سائرون بنا ؟»

قال : «اننا سائرون الى مولانا الامير ابي حرملة كبير أمراء البجة» .

قالت : «اين هو ؟»

قال : «على مسافة بضعة ايام من هذا المكان ، لا تخافي فلا يستطيع احد منا ان يمسك بسوء ومثلك يا جميلة لا ينالها الا الامير» .

فلما سمعت قوله ذعرت واشطربت ولكنها تجلدت ، والتفتت الى علية فرأتها مطرقة ولم تكن في مثل ذعرها لانها تعودت عيشة البادية وعرفت بعض طبائع البدو . اما الرجل فلما رآها تلتفت الى رفيقتها ضحك فبانت اسنانه بلا قواطع مع صغر سنه فكان له منظر غريب ثم قال : «اما هذه العربية فربما اختار الامير ان تكون عنده او لعله يهبها الى احد أمرائه او يستخير الآلهة في شأنها» . ثم تفرس في فم دميانة وقال : «ما اجمل فاك لولا القواطع فيه فان الاسنان الامامية تشوه منظر الفم ، فليست بلازمة الا للبهائم» . وأشار الى فمه وقال لها : «انظري الى اسناني فاني من قبيلة تقلع هذه القواطع لئلا تتشبه بالحمير ، وليس كل البجة يفعلون ذلك ، اما اميرنا فانه يحب الاسنان البيضاء ، ولولا هذا لقلع اسنان نسائه» .

فاستغربت دميانة حديثه واستخفت روحه ولكنها بقيت في اضطرات وقلق . وأحس الرجل بخطوات خارج الخيمة فتوقف عن الكلام وتسلمل وتحفز للخروج واذا برجل اخر دخل وظهر من لباسه انه رئيس تلك العصابة ، وله عينان براقتان ووجه نحيف ، ودلائل الصحة والقوة بادية فيه . ولما رأى ذلك الرجل هناك نظر اليه مؤنبا وقال له بلسانهم كلاما لم تفهمه دميانة ولا علية ولكنهما ادركتا انه يوبخه . ثم قال له قولا وأومأ اليه ان يقوله لهما فقال : «ان مولانا القائد يلومني لاني أحدثكما ، وهذا محظور علينا ، وهو يطلب ان تطمئنا ولا تخافا» .

فأومأت دميانة برأسها شاكرة وقد احمرت عيناها من أثر البكاء اثناء الطريق • فأوعز اليهما ان ترتاحا وتناما على جلد فرشوه لهما ، وخرج •

فنامت دميانة بعد ان وصلت وتضرعت الى السيد المسيح ان يرعاها ويحرسها •

وفي صباح اليوم التالي جاءهما الخادم باللحم واللبن ، فأكلت علية حتى شبعت اما دميانة فلم تأكل الا قليلا ، ونظرت الى ما حولها فرأت انها في صحراء رملية قاحلة ، وان العصابة مؤلفة من بضعة وعشرين رجلا معهم الجمال والخيول • ولما اشرقت الشمس ركبوا يطوون البيداء . وبالغ البجة في اكرامهما والتخفيف عنهما شأن اهل البادية في المحافظة على العرض الا ما يحلونه لانفسهم من الغنائم •

***

قضى رجال البجة يومين يضربون في الصحراء ، وفي اليوم الثالث عند الظهيرة اشرفوا على مناجم الزمرد فرأوا عمالا من البجة ومن بعض اهل النوبة يحفرون في الارض ، وهم عراة الا ما يستر العورة • فلم تكترث دميانة بالقوم وبحفرياتهم • ولم يقف الركب الا ريثما ساقوا معهم بعض الماشية مما كانوا قد أعدوه هناك طعاما لما بقي من الطريق ، وما زالوا سائرين على هذه الحال حتى وصلوا الى نجع كبير عرفت دميانة وعلية انه نجع الامير ، وهو مؤلف من خيام كثيرة من الجلد في وسطها خيمة واسعة مزخرفة وبجانبها خيمة اخرى كالقبة من الجلد ايضا • وبجانب النجع مسارح للماشية من الضأن والبقر ، ولحظت دميانة ان (أبقارهم) تمتاز بقرونها الطويلة مما لم تر له مثيلا في مصر • على ان كل اهتمامها كان منصرفا الى ما عساه ان يكون شأنها مع الامير الذي ذكروا انها ستكون عنده • وأخذ الركب في النزول وأتى بعض الخدم وأناخوا جمل

دميانة وأنزلوها عنه ، فمشت وفرائصها ترتعد وقلبها يخفـــق خوفا ، ووقفت مطرقة لا تدري ما تعمل ، فاذا بالرجل الترجمان اتى وقال لها : «تعالي معنا الى المعبد لنتبرك بالكاهن ونستخير الآلهة على يده في قسمة الغنائم» . ثم قال بصوت ضعيف سمعته هي وحدها : «عسى ان تكوني من نصيب الامير فانك اهل له» .

فوقعت كلماته في أذنيها وقوع الصاعقة ولكنها اطرقت وجعلت تصلي في قلبها وتطلب الى الله ان يشجعها ويأخذ بيدها لتستطيع النجاة من هذه التجارب ، وأحست بعد الصلاة انها في حرز حريز لا خوف عليها كأن جندا من الملائكة يحرسها .

اما بقية الركب فترجلوا وسار زعيمهم امامهم الى القبة بجانب الخيمة الكبرى . ولما اقتربوا منها فتح بابها وأطل منه كاهن بلباس مزخرف على رأسه شبه تاج من الريش ، وعلى كتفه شملة مطرزة ، وحول وسطـــه حزام من جلد مرصع بالزمرد والياقوت تحته قباء من القباطي الابيض ، وبيده صولجان من خشب الابنوس في أعلاه شبه رأس فرس من الذهب، وقد تصاعدت رائحة البخور . ولما أطل الكاهن على الناس سجدوا جميعا، وكانت دميانة وراءهم تجاريهم في سيرهم الى جهة القبة . فلما رأتهم يسجدون وقفت وأبت ان تسجد معهم ، ولم ينتبه لها الكاهن . ثـم دخلوا القبة وفي صدرها تمثال من نحاس لعله مأخوذ من أصنام قدماء المصريين اقاموه على دكة من الحجر وزينوه بالحلي فاتجه الكاهن اليه وسجد له فسجدوا جميعا مؤتمين به ، ثم تمتم قليلا وتمتموا ودميانـه واقفة تستغفر لهذه المشاهد .

وبعد الفراغ من الصلاة اشار الكاهن الى الوقوف ، فخرجوا جميعا، وخرجت دميانة ورفيقتها وهما مطرقتان حياء لغرابة موقفهما من هؤلاء البدو . ثم تقدم الترجمان فاستوقفهما فوقفتا ، ووقف الكاهن بباب القبة

ثم دخلها مستديرا وأقفلها وراءه ، وأشار القائد الى دميانة وصاحبتها ان تبقيا واقفتين • وبعد قليل سمعتا جرسا في القبة ثم رأتا الباب وقد فتح وخرج الكاهن عاريا وظهر الوشي على صدره وذراعيه وقد تغيرت سحنته وجحظت عيناه فيخيل الى الناظر اليه انه مجنون او مصروع . فأجفلت دميانة عند رؤيته وغطت وجهها بكفيها وكادت تصيح من الخجل • ثم سمعته يتكلم بصوت عال مختنق كأن شخصا اخر يتكلم في جوفه، وكانوا يعتقدون ان الها يتكلم في داخله ، ولما أتم كلامه اجابوه بكلستين كأنهم يؤمنون على اقواله • ثم عاد الى القبة وأشار القائد الى الترجمان بأن يقول لدميانة ما يقوله الكاهن ، فوجه كلامه اليها قائلا : «اعلمي يا جميلة ان الكاهن قد استخار الآلهة فأشارت بأن تكوني من نساء ابي حرملة اميركا الاكبر ، وهذا قائدنا يهنئك بهذه النعمة» • والتفت الى علية وقال لها : «وأنت من نصيب هذا القائد الباسل» • وأشار اليه •

وكانت دميانة وهم يصلون لآلهتهم تصلي لربها وتتوسل اليه ان يشجعها ويقويها ، فلما سمعت ما تلاه عليها الترجمان لم يجفلها وان كان قد وقع عليها وقعا شديدا ، فان الايمان الصحيح يقوي القلوب . وهو اكبر تعزية لبني الانسان في الشدائد •

وبعد ان قال الترجمان ما قاله ، ذهب ثم عاد ومعه رجل نوبي . فلما وقع نظر دميانة عليه استخفت روحه واستأنست به لانه يشبه خادمها زكريا ، فتقدم وأشار اليها ان تتبعه الى خيمة الامير • وذهب الترجمان الاخر مع علية الى خيمة القائد • ولم يكن الامر عظيما على علية ولا غريبا عنها لانها اعتادت البادية وأهلها •

***

مشت دميانة في اثر النوبي وهي تقدم رجلا وتؤخر اخرى وتستعين

الله ومريم العذراء والقديسين على ما يصفون ، وسمعها النوبي تستغيث بالعذراء فشعر بانعطاف اليها لانه ربـــي تربية نصرانية في بلاده ، والنوبيون يومئذ كلهم مسيحيون • فتباطأ في مشيه حتى حاذاها وقال لها : «يظهر انك نصرانية فهل انت قبطية ؟»

فلما سمعت استفهامه استبشرت وقالت : «نعم اني قبطية ووالدي من وجهاء القبط ؟»

قال : «يظهر عليك ذلك ، فلا تنزعجي ، هل انت متزوجة هناك ؟»

فظهر الخجل في وجهها وسكتت ، ودل سكوتها على انها عذراء فقال: «اذا كنت غير متزوجة فلا اجد سببا لاضطرابك فانك ذاهبة الى امـــير البجة وهو اكبر أمرائهم وأشجع قوادهم ، ومن حسن طالعك ان قسمت له ، وسيكون لك مقام رفيع عنده ، فليس في نسائه واحدة على مثل ما انت فيه من الجمال والكياسة ، وهو يفهم القبطية قليلا فسلمي امرك الى الله واقنعي بهذا النصيب» •

وكانا قد اقتربا من باب الخيمة فتقدمها النوبي واشار الى الحاجب ان ينبىء الامير بقدومه ، فلما أذن له دخل ودميانة في أثره وقد صبغ وجهها الحياء وتولاها الخوف واصطكت ركبتاها ، ورأت النوبي انحنى كأنه يسجد لأيقونة • ووقع نظرها على الامير جالسا في صدر الفسطاط، وهو خفيف العضل والشعر اسود اللون حاد العينين ذو مهابة ولباس حسن • وكان جالسا الاربعاء على بساط من السجاد الثمين فوق مقعد سوداني (عنقريب) • وارتدى بكساء من الحرير الملون ، وعلى رأسه عمامة تشبه التاج ، وبين يديه سيف قبضته من الذهب ، وحول عنقه عقد من الحجارة الكريمة بينها قطع من الذهب على هيئة تماثيل صغيرة لبعض الآلهة ، وفي اصابعه الخواتم •

وسلم النوبي على ابي حرملة بلسان البجة ، فأجابه هذا باللســــان

نفسه ، ولم تفهم دميانة شيئا ولا هي استطاعت ان تسجد كما فعـــل الترجمان ، لكنها سمعت ابا حرملة ينادي النوبي : «سمعان» • وهو اسم نصراني فاطمأنت لاعتقادها انه نصراني مثلها •

ووجه ابو حرملة نظره الى دميانة وتفرس فيها ، فأطرقت ثم سمعته يخاطب سمعان فالتفت هذا اليها يترجم كلامه فقال : «ان مولانا الامير أعجب بما شاهده فيك من الجمال والهيبة ، ويقول لك : انه سيبذل جهده فيما يرضيك ، فلا ينبغي ان تعدي نفسك سبية او غريبة فانه يعدك من خير نسائه» •

فارتجفت اضطرابا اذ اصبحت داخل العريـــن ولا يلبث الاسد ان ينشب أظافره فيها فاستعاذت بالله وظلت ساكتة • فأشار ابو حرملة الى سمعان وخاطبه ، فاتجه هذا الى دميانة وقال لها : «تعالي معي يا جميلة الى الخباء فقد أوصاني الامير بأن أخصك بخيمة تقيمين بها علـــى الرحب والسعة » •

وخرج فخرجت معه تتعثر بأذيالها ، ثم قالت له : «يظهر يا سمعان انك نصراني مثلي ، فأستحلفك بالسيد المسيح ان تنقذني من هـــذه المصيبـــة » •

فابتسم سمعان وخاطبها وهو ينظر الى الارض لئلا يلحظ احد انه يكلمها خوفا من الامير وقال : «ان لم اكن نصرانيا كما ظننت فقد ولدت في بلد النصارى فسموني باسم من أسمائهم ، وأنا أعرف كثيرين منهم في مصر والصعيد والنوبة • وقد رأيتك شديدة الخوف ، وأنا اؤكد لك انك ستكونين معززة مكرمة • فاصرفي خوفك وثقي بأني سأكون لك اخا أبذل جهدي في راحتك» •

فاستأنست بوعده وقالت : «اذا كنت تعدني أختا لك ، فأرجو منك ان تساعدني على الخلاص • هذا غاية ما أرجوه منك • فاذا انقذتني كان

لك فضل كبير لا يضيع أجره عندي ولا عند اهلي» •

قال : «يا حبذا ولكن الخلاص لا يستطاع ، ونحن بين رجال كالنمور يختطفون بسرعتهم الابصار ، فاصبري ولا ريب انك ستكونين راضية بعد قليل» •

وكان كلام سمعان عن اخلاص • فانه لم يكن يدرك ما في خاطر دميانة وما الذي يثقل على طبعها • فقد كان يجهل انها حريصة على عفافها ، تأنف ان تبتذل ، وانها عالقة بسعيد • وكلا الامرين مما يضحي لاجله بالحياة • فلما يئست من نصرة سمعان وتحققت من وقوعها في الفخ علمت انها لم يبق لها ملجأ الا الايمان وأخذت تراجع في ذهنها مواعيد الكتاب للمؤمنين في ايام الشدة بقوة الله ، وهي ماشية ساكتة وسمعان لا يتكلم ، فتجاوزا فساطيط الرجال حتى اشرفا على الاخبية وقد دنت الشمس من الغروب • وكانت الاخبية عديدة بينها خباء فخم اتجه اليه سمعان وأشار الى دميانة ان تتبعه ، فتبعته حتى أطل على باب الخباء، ونادى فخرجت له عجوز طويلة القامة شديدة العضل ملامحها اقرب الى الرجال منها الى النساء ، وعليها الدمالج والاساور والعقود ، وقد فاحت منها رائحة الطيب وأبرقت عيناها واحمرتا • فأثر منظرها في دميانة اكثر من تأثير منظر ابي حرملة ، ووقفت مبهوتة فابتدرها سمعان قائلا : «نحن الان عند خباء الامير ، وهذه قهرمانة بيته قامت على تربيته منذ صغره وتعد نفسها أمه وقد عهد اليها في امر نسائه ، وكأني بك قد اخافك منظرها فلا تخافي وأنا أوصيها بك خيرا» • ثم التفت الى القهرمانة وكلمها بلسان البجة كلاما بهذا المعنى ، فنظرت الى دميانة وابتسمت ابتسامة تطمئنها بها ، ولكن دميانة لم تجد بدا من السكوت • وأشارت اليها القهرمانة ان تدخل فدخلت وهي تنظر الى سمعان والدمع ملء عينيها كأنها تستغيث به • وقد أثر منظرها فيه لكنه كان يعتقد انها لا تلبث ان تمكث

بضعة ايام مع الامير حتى تعتاده وتألف البقاء معه .

ودخلت دميانة الخباء ؛ ومرت بعدة غرف من الجلد رأت في كل منها امرأة او نساء ؛ وبينهن النوبية والبجاوية والحبشية والقبطية . بين سرية وخادمة وجارية . فوقفن جميعا احتراما للقهرمانة حتى وصلت بها الى غرفة ليس فيها احد ؛ وفي بعض جوانبها بساط ووسادة من جلد محشوة بالقش ، وبجانب البساط وعاء كالجراب مفتوح وفيه آنية «التواليت» : السواك والمشط وحق الطيب ؛ وقد علقت بجدار الغرفة ركوة من جلد وبجانبها قربة ماء ؛ فلما توسطت دميانة الغرفة شعرت بانقباض شديد لم تعد تملك معه نفسها ؛ فجعلت دموعها تنحدر على خديها ونفسها تطلب البكاء وهي تحاول ان تمسكها . واذا بالقهرمانة تقول لها بلغة قبطية ركيكة : «اجلسي يا بنية على هذه الوسادة» . وربتت كتفها تحببا، فلم تعد دميانة تمالك فألقت نفسها على الوسادة وأخذت في البكاء بصوت عال كالاطفال ونسيت موقفها .

فاستغربت القهرمانة بكاءها بغتة ، فقالت لها : «هل تحتاجين الى شيء ؟»

ولما لم تجبها قالت : «هل انت خائفة ؟ لا تخافي يا بنية ان الامير يحبك كثيرا وبعد قليل يأتي اليك . قومي اصلحي شأنك . وهذه هي الاطياب والسواك والمشط وأنا أساعدك» . قالت ذلك ومدت يدها الى الجراب وهي تنظر الى دميانة فاذا بها تجهش بالبكاء ولا تعيرها التفاتا. فعادت الى تطييب خاطرها وملاطفتها وما زالت بها تارة تلاعبها وطورا تمازحها وآونة تهددها او تمنيها او تطمئنها حتى سكن روعها ، ولم يطمئن بالها ولكنها تجلدت وودت لو بقيت وحدها فتركتها القهرمانة ومضت وقد خيم الظلام ، فازدادت دميانة انقباضا ووحشة . ثم ركعت على البساط ركعة مؤمن صادق الايمان ، وبسطت يديها الى السماء ورفعت بصرها

وأخذت تصلي كأنها تخاطب شخصا تراه بعينيها وتثق بأنه يجيب طلبها، وجعلت تتضرع الى الله وتستجير بالمسيح وبالعذراء وسائر القديسين تطلب الخلاص من هذه التجربة التي اوشكت ان تقع فيها • وكانت تصلي بحرارة ودموعها تتساقط على خديها بصوت خافت تتخلله نبرات التوسل والالحاح في الرجاء • وقد حلت شعرها وكشفت عن صدرها واستغرقت في تضرعاتها ومناجاتها حتى نسيت موقفهـــا فصارت تطالب وتتضرع بصوت عال تعترضه غصة او بحة وتقرع صدرها وتعيد الطلب والدعاء كأنها تجردت عما يحيط بها •

وكانت القهرمانة قد تركتها ولم تبعد عن غرفتها فسمعت صلاتهـــا فاسترقت الخطى اليها حتى وقفت بجانب الباب بحيث ترى موقف دميانة وتسمع تضرعاتها ؛ ومع غلظ قلبها لم تتمالك عند رؤية دموعها تتساقط وسماع صوتها المخنوق من الانعطاف اليها انعطافا مقرونا بالاستغراب ، وكانت على موعد من قدوم ابي حرملة تلك الساعة وعليهـــا ان تهيىء العروس وتصلح من شأنها قبل قدومه فهست انها تدخل وتوقفها عـــن الصلاة ، واذا بها تسمع وقع خطوات عرفت انها خطـــوات الامير ، فتحولت نحوه وأشارت اليه باصبعها ان يمشي الهوينى ليرى دميانـــة بعينيــه •

فمشى حتى أطل على الفتاة بحيث يراها ولا تراه ، فرآها جاثيـــة وشعرها محلول وقد استرسل حتى غطى كتفيها وأعلى صدرها • ووقع نظره على جانب وجهها فرأى الاحمرار قد جلله والدمع بلله • وهـــي تبسط يديها نحو السماء تارة وتقرع بهما صدرها اخرى ، فنظر ابو حرملة الى القهرمانة مستغربا فبادلته مثل نظره ، وحمل ذلك من دميانة محمل الوحشة لبعدها عن اهلها ، وأراد ان يجاملها حتى تستأنس به وقد زاده منظرها رغبة فيها ، فتراجع وأوصى القهرمانة بتطييبها وباعدادها له على

ان يعود بعد قليل •

وطالت صلاة دميانة دون ان تمل ، ثم شعرت بعد حين بتعب يديها فانتبهت وقد سري عنها وذهب ما كان أحدق بها من الهموم والمخاوف ، وشعرت بشجاعة واطمئنان ، وتحققت ألا خوف عليها من حبائـــل الشيطان •

وفيما هي تتحفز للوقوف دخلت القهرمانة ضاحكة وهمت بدميانـة فقبلتها فاشتمت منها رائحة كانت تشتمها في المعسكر على الجمال ولكنها أحست بها قوية في وجه القهرمانة وهي رائحة بعض الاطياب الخاصـــة بأهل البادية • أما القهرمانة فأمسكت دميانة بيدها وأجلستها علــــى الوسادة بجانبها وقالت لها : «قد آن لك ان تتطيبي للقاء عريسك وهذه شمعة قد اختصك بنورها وكان قد حفظها لأعز أوقاته وأمرني ان اضيئها في هذه الغرفة ليرى وجهك الجميل عليها • وهذا اكرام اختصك به فانه لم يفعل مثله مع سواك من نسائه» • قالت ذلك وأخرجت قضيبا غليظا من الشمع مغروسا في شبه قاعدة ، وقدحت بالزناد وأضاءت الشمعة ووضعتها على كرسي صغير في جانب من جوانب الغرفة، وتناولت الجراب وأخرجت منه المشط والسواك والاطياب ، وأخذت تصلح لها شعرها وتمشطهـــا وتطيبها ، ودميانة ساكتة لا تتكلم ولا تمانع وقلبها مطمئن هادىء •

★ ★ ★

انتهت القهرمانة من تمشيط دميانة وتطييبها ، ثم اتتها بثوب مـــن الحرير الملون كان ابو حرملة قد بعث به اليها مبالغة في اكرامها فلبسته، فظنتها القهرمانة راضية مسرورة ، فخرجت الى ابي حرملة وجاءت به ، وكان قد خفف ملابسه واتشح بثوب من الحرير يشبه ثوبها وتطيب • ولما

دخل الغرفة اشار الى القهرمانة فخرجت وعادت وبيدها ركوة من جلد وقدح من خشب وضعتهما بين يديه وخرجت ، وبقي هو ودميانة ليس في الغرفة سواهما • فاختلج قلبها في صدرها خوفا برغم اتكالها على الله بعد الصلاة واستأنفت الاستغاثة بالعذراء في سرها •

اما هو فقعد على البساط وتناول الركوة فصب منها في القدح وقدمه الى دميانة وهو يقول بلغة قبطية مكسرة : «اشربي يا عروسة ، اشربي من هذه المريسة فانها تنعش القلب وتذهب الحزن !»

فظلت ساكتة مطرقة لا تعلم ماذا تقول ، فقال لها : «انا اشرب هذه الكأس عنك» • ثم شربها وصب قدحا اخر وقدمه لها وقال : «خذي اشربي» • وأدنى القدح من فيها فنفرت وظهر الاشمئزاز في وجهها فقال : «يلوح لي انك لم تتعودي هذا الشراب» • ووضع القدح من يده وزحف على البساط حتى دنا منها ووضع يده على ركبتها فاقشعر بدنها ونهضت فجأة ونفرت ، فأخذ يضاحكها فقال : «ما بالك •• لماذا تخافين وأنا احبك كثيرا ؟» • ومد يده ليمسك يدها ويجذبها اليه فتباعدت ، فتطاول حتى أمسك يدها فاذا هي باردة كالثلج وشعر بجاذبية زادته رغبة فيها • وأما هي فلما لمسها اقشعرت وكاد الدم يجمد في عروقها • ولم تجد فائدة من النفور فأطاعته وقعدت وهي تتجنب ان تلمسه وخاطبته والدمع في عينيها قائلة : «أتوسل اليك يا سيدي ان تتركني وشأني» •

قال : «ولماذا ؟•• ألا ترضين ان تكوني من نسائي ؟»

فلما سمعت سؤاله خافت ان تجيبه بالرفض فيغضب ، فقالت : «اني جارية حقيرة لا أستحق هذا الاكرام ، وأنت في غنى عني بمن عندك من النساء الكثيرات فاتخذني جارية أخدم في مطبخك او ارعى الماشية او اي شيء اخر» •

قال : «لا • لا • بل انت أحب النساء الي ، وسأجعلك في المقام

الاول فلا تجزعي فما انا بالوحش الذي تخشين وان لم اكن من اهل المدن نظيرك » •

فقالت : «يظهر لي من كلامك ومن علو منزلتك انك طيب السريرة . فلا يبلغ مقام الامارة والزعامة أسافل الناس • فاسمح لي برجاء أتقدم به اليك » •

قال : «قولي» •

قالت : «ان الحظوة عندك شرف يتمناه الكثيرون . وأنا اسيرة استخدمني كيفما تشاء للطبخ او الغسل او الحرث وارفع عني حظوة الزواج • أستحلفك بمن نعبد او بمن تحب ان تتركني وشأني» •

قال : «كيف اتركك وشأنك وقد وقعت لي من الغنيمة بعد استخارة الآلهه . ورأيت فيك جمالا لم أشاهده في سواك • اني أنصح لك ان ترجعي عن عنادك وتقبلي مودتي طائعة مختارة فأبو حرملة زعيم هذه القبيلة لا يعجزه ان يكرهك على ما يريد» •

فشعرت بتهديده وانه اذا عزم على امر لا يردعه رادع . فأطرفت ولم تجب فاستبطأ جوابها فقال : «هل رجعت عن غيك يا قبطية ، هل علمت بأني ادعوك الى السعادة ؟»

فرفعت عينيها اليه . وقد تكسرت اهدابها من البكاء وذبلتا من الحزن والقنوط وقالت : «قلت لك ان كثيرات من أمثالي يتمنين الحصول على هذه السعادة ومع ذلك فاني أستعفيك منها •• وأطلب مني ما شئت غير ذلك • قلت لك اني اكون خادمة جارية راعية . اكون اي شيء تريده غير الزواج» •

فقطع كلامها قائلا : «راعية خادمة ؟ ان الخدم كثير عندنا فاننا نبيع الارقاء بالمئات» •

فرفعت بصرها اليه وقد قنطت من الحياة . وكأن الهاما هبط عليها

فجأة فتغيرت سيماؤها وبان البشر والجد في محياها فقالت له :
«أأنت امير تقود رجالك الى القتال كثيرا ؟»
قال : «نعم ، وأي شيء في هذا ؟»
قالت : «وأظنك تخسر كثيرا منهم اثناء الحرب ؟»
قال : «كثيرا جدا» .
قالت : «وأنت ايضا لست في مأمن من الموت» .
قال : «اني لا اخاف الموت» .
قالت : «لم اقل انك تخاف الموت ، ولكنك تعرض نفسك للقتل» .
قال : «طبعا ، ولكن ما معنى هذا الكلام وما علاقته بما نحن فيه ؟»
قالت : «تمهل ايها الامير حتى النهاية . ألم يبلغك خبر العلوم السرية التي ورثناها عن أجدادنا الفراعنة علما وصناعة» .
قال : «اسمع بشيء كثير من هذا . ولكن ماذا يهمني من العلم ؟»
قالت : «ألا يهمك ان تنجو انت ورجالك من القتل اذا تساقطت عليكم الحراب كالامطار او وقعت عليكم السيوف كالجنادل ؟»
فضحك حتى بانت اسنانه البيضاء وهز رأسه ، وقال : «يهمني . وهل في علم المصريين ما يمنع الموت ؟»
قالت : «نعم ايها الامير . وذلك سر لا يعرفه الا القليلون» .
فشخص اليها ببصره استغرابا وقال : «وهل تعرفينه انت ؟»
قالت : «أعرفه» .
قال : «انك تحتالين علي للنجاة» .
قالت : «اسمع لي . انا لا ألقي كلامي جزافا ولا اطلب منك التسليم به الا بعد تجربة . ان سر هذا الدواء مودع في بعض الاديار بمصر وقد عرفته وتعلمته» .
قال : «وما هو ؟»

قالت : «ذهن اصطنعه واقرأ عليه . فاذا دهن امرؤ جلده به امن القتل فلا يقطع فيه سيف ولا رمح ولا سكين» .

فقال: «دعينا من هذا الكلام الهراء، ان هذه الاكاذيب لا نخدع بها».

قالت : «ليست اكاذيب يا سيدي ، هذا سر في يدي لا ابوح به الا اذا اقسمت لتكتمنه» .

قال والجد يتجلى في جبهته وعينيه : «أتقولين الحق ؟»

قالت : «نعم» .

قال : «اذا صدقت في امر هذا الدهن ، فاني اعطيك ما تطلبين» .

قالت : «لا اطلب الا اطلاق سراحي وايصالي الى بلدي وأهلي» .

قال : «لك ذلك ، وأقسم بالاهي لأبرن بقولي ، وكيف السبيل الى معرفة صحة هذا الدواء ؟»

قالت : «تجربه في رجل تدهن به جسمه وتضرب عنقه فاذا قطع كان الدواء كاذبا . واذا نبا السيف ولم يصب الرجل بسوء كنت من الصادقين فتفي لي بوعدك» .

قال : «وهو كذلك . لكن من يقبل ان يجرب هذا فيه ويعرض نفسه للخطـــر » .

قالت : «اذا لم تجد احدا أجربه انا بنفسي» .

فأطرق ابو حرملة عجبا ثم قال : «حسنا ومتى تصنعين هذا الدهان ؟ ومتى نجربه ؟»

قالت : «غدا ان شاء الله» .

فنهض وهو لا يصدق ما يسمعه وقال : «لنصبرن الى الغد . انـــي منصرف الساعة فاصنعي العقار وفي الغد نجربه فاذا صح قولك فلك ما تريدين » .

قالت : «لا أريد غير اخلاء سبيلي وارجاعي الى اهلي» .

قال : «حسنا» • وخرج توا الى فسطاطه •

فلما خرج من عندها تنفست الصعداء وأخذت في اعداد العقـــار فجعلته مزيجا من الاطياب التي بين يديها وأضافت اليها اشياء اخـرى حتى صار كالشحم ووضعته في قدح ، وباتت ليلها مضطربة لهول ما هي مقدمة عليه ولكن ايمانها كان قويا •

وفي اليوم التالي جاءتها القهرمانة فرأتها تصلي ، فأتتها بالطعام فأكلت قليلا • ثم جاء سمعان النوبي الترجمان موفدا من ابي حرملة في طلب دميانة . فأرسلتها القهرمانة معه • فلما رأته ارتاحت الى رؤيته وابتسمت ابتسامة حزين يائس فأثر منظرها في نفسه وقال لها : «ارجو ان تكوني قد غيرت رأيك في اميرنا» •

فتنهدت وأرسلت دمعتين انحدرتا على خديها وهي مطرقة تمشـــي وراءه . حتى بلغت خيمة الامير وقد خبأت قدح الدهان في جيبها ، فأمر ابو حرملة بادخالها عليه وحدها ، فدخلت وأراد سمعان ان يدخل معها فأشار اليه الحاجب ان يبقى خارجا فسكت وهو يتعجب من تلك الخلوة مع حاجة الامير اليه •

★ ★ ★

كان ابو حرملة حينما دخلت عليه دميانة جالسا على متكأ ، وقد مد رجليه . وهما حافيتان ووضع على رأسه عمامة صغيرة ، وبيده خيزرانة يلهو بها • فمشت حتى توسطت الخيمة ووقفت . فأشار اليها ان تتقدم فتقدمت حتى اقتربت منه . فأومأ اليها ان تقعد فقعدت فقال لها : «ذهبت بالامس الى خبائك فأطمعك ذلك فيّ وبعث على نفورك ، فأردت ان آت بك الى فسطاطي لعلك تثوبين الى رشدك • ألا تزالين خائفة ؟»

فقالت : «لست خائفة يا سيدي ولكننا اتفقنا مساء امس على امر

اراك نسيته ؟»

قال متجاهلا : «وما هو ؟»

قالت : «ألم تعدني باطلاق سبيلي اذا احضرت لك العقار الـــذي يسنع القتل ؟»

فضحك وقال لها : «لا أحسبك تجدين . دعينا من الادسان وارجعي الى رشدك» .

قالت : «بل أجد ، ووعد الامير دين» .

فاعتدل في مجلسه وقال : «أتصنعين دهنا يسنع القتل ؟ ما هو ؟»

قالت : «نعم يا مولاي» . ومدت يدها وأخرجت القدح من جيبهـا ودفعته اليه فتناوله ونظر في ذلك الدواء فاذا هو خثر كالشحم وله رائحة الطيب فقال : «أهذا عقار يقي من القتل ؟»

قالت : «نعم اذا دهنت به عنق رجل لا يقطعه سيف ولا خنجر» .

فهز رأسه وهو يتأمل ما في القدح تارة وينظر اليها تارة اخرى وهي مطرقة . فقال : «ينبغي ان تجرب» .

قالت : «جربه» .

فقال مهددا : «سأجربه فيك انت !»

قالت : «جربه يا سيدي فيمن شئت فأنا على يقين من النجاح» .

فرد القدح اليها وقال : «خذي ادهني المكان الذي تريدينه وأنـــا أضربه بسيفي هذا» . ووضع يده على سيف الى جانبه .

فأخذت القدح من يده وهي تقول : «جرد سيفك» . ورفعت شعرها الى اعلى رأسها وكشفت عن عنقها وأخذت من الدهن قليلا بطرف سبابتها وجعلت تمسح عنقها وأعلى صدرها . فلما فرغت جثت بين يديه وقالت: «اضرب بسيفك» .

فنهض واستل حسامه وقال : «أأضرب ؟»

فأجابته وهي مطرقة : «اضرب» •

فراعه بياض عنقها ورأى انكسارها وجرأتها فأبت رجولته ان يضرب بكف لم يخنها الحسام قط عنق امرأة عزلاء ، فتراجع وقال : «ارجعي الى رشدك ، ارى رأسك مقطوعا لا محالة» •

قالت : «لا تخف ، اضرب • ان السيف سينبو بكفك ••»

فغضب وقال : «ينبو بكفي ؟» • ورفع يده وهم بها واذا بصوت يناديه من الخارج : «لا تفعل يا مولاي» • وسمع وقع أقدام فالتفت فرأى سمعان داخلا مسرعا حتى حال بينه وبين دميانة ، فقال ابو حرملة: «ما بالك ؟»

قال : «ماذا تفعل يا مولاي ؟»

قال : «أجرب عقارا اصطنعته هذه القبطية تقول انه يمنع أثر وقع السيف وأكدت لي ذلك حتى طلبت ان أجربه في عنقها» •

قال : «وهل صدقت قولها ؟»

قال : «لم أصدق ، فأردت ان أجرب ذلك فيها» •

قال : «وتقتلها ؟»

قال : انها تدعي ان الدواء مجرب لا ريب في فعله • ولولا ذلك لم تعرض نفسها للقتل فقد ألحت علي ان اضرب بقوة» •

فلما سمع الترجمان قوله ابتسم وأدار وجهه حتى استقبل دميانة وهي لا تزال جاثية مطرقة ، وتمتم كمن يصلي ، فلما اقترب سمعان منها رفعت بصرها اليه وعيناها تتلألآن بالدمع فقال لها : «هل تعتقدين ما ذكرت عن هذا الدواء ؟»

قالت : «كيف لا وأنا اطلب تجربته في نفسي ، دعه يضرب ثم يرى ما يكون» •

فضحك سمعان وقال : «هذا لا يجوز علي يا دميانة • فقد عرفت

قصدك» . وتحول نحو الامير وقال : «لا تصدقها يا سيدي ولا تطلق المهند من يمينك الا اذا كنت تريد قتلها ، انها تعلم يقينا ان العقار لا ينفع ، وان الضربة من يدك تقضي عليها» .

فأجاب والدهشة ظاهرة في عينيه : «تعرف ذلك وتعرض نفسهـــا للقتل ؟ لا لا ، هذا لا يكون . دعني أجرب» .

فصاحت دميانة : «دعه يجرب وسترى صدق قولي فأستريح من هذا الاسر ويرجعني الى اهلي» .

قال : «لا تفعل يا سيدي انها تبغي الموت» .

قال : «كيف تسعى بنفسها الى القتل ؟»

قال : «تفعل ذلك فرارا من امر يحرمه دينها عليها وأنت تطلبه منها، فلما لم تجد وسيلة للنجاة آثرت الموت على العار» .

فجعل ابو حرملة ينتقل بنظره من سمعان الى دميانة ومن دميانة الى سمعان كأنه يتفحص ما يضمرانه ثم قال : «وكيف عرفت ذلك ؟»

قال : «عرفته لانه حدث قبل هذه المرة بصعيد مصر منذ اكثر من مائة سنة في دير من اديرة الراهبات» .

فلما سمعت دميانة قوله نظرت اليه ولسان حالها يعاتبه ويقول : «لقد وقفت في سبيل نجاتي من العار» .

فقال ابو حرملة : «وكيف ذلك ؟»

قال : «لما قام العباسيون على بني أمية وأرسلوا جيوش خراســان لمحاربتهم ، هرب كبير بني أمية مروان الى مصر وجعل يهاجم أديـــار الراهبات والرهبان ، فاتفق ان وجد رجاله في بعض الاديرة فتاة جميلة الصورة فأحضروها اليه فأعجبه جمالها ، فأرادها لنفسه وهي تأبى ، لان بنات النصارى يحرصن كل الحرص على صيانة عرضهن ، ولاسيمـــا الراهبات فان الواحدة تفتدي عفتها بنفسها . فلما ارادها الامير الاموي

وعلمت انها مغلوبة على امرها احتالت عليه وزعمت مثل زعم صاحبتنا هذه ان لديها عقارا اذا دهن به الجسم ارتدت عنه السيوف القواطع ، وانه اذا لم يمسسها وأطلق سبيلها كشفت له عن سر ذلك الدهن • فرضي واشترط ان يجرب ذلك فيها ، فقبلت ودهنت عنقها وأمر الجلاد فضربها فأطاح رأسها عن بدنها ، فعلم انها اقدمت على الموت انقاذا لعفتها • وتحدث اهل مصر بهذا الحادث زمنا طويلا» •

فلما سمع ابو حرملة هذا الكلام رد سيفه الى غمده ، وأطرق حينا ثم رمى السيف على البساط وتقدم الى دميانة وقال لها «قومي اخية • قومي • هل تسعين الى الموت ؟»

فقالت وهي واقفة وقوف المستعطف والدمع يتلألأ في عينيها : نعم أفضل الموت على العار» •

فأظهر الغضب وقال : «تؤثرين الموت على ان تكوني عندي ؟»

قالت : «كلا يا سيدي ، لا اشكو من شخصك فأنت امير على خلق عظيم ، ولكنني أتجنب» • وأطرقت حياء •

فتصدى سمعان للكلام وقال : «انها تبغي صيانة عفافها» •

فأحس ابو حرملة كأن في هذه الفتاة الضعيفة السبية قوة لم ير مثلها في الرجال غلبته على امره ، ولم يدر ان سر هذه القوة هو ثباتها على مبدئها وايثارها الموت على ما تظنه عارا ، فلم يتمالك عن النظر اليها نظر الاحترام وقال : «كيف تفضلين الموت ؟»

قالت : «أفضله لانه ينجيني من ارتكاب ما أعتقده مخالفا لمشيئة الله وتعاليم السيد المسيح» •

فالتفت ابو حرملة الى سمعان وقال : «فهي اذن نصرانية على مذهب سيدك صاحب النوبة ؟»

قال : «نعم يا مولاي ، والنصارى يعدون المحافظة على العفة من

اكبر الفضائل» .

قال : «فسلك النوبة اذن أولى بها منا ، واكراما لهذا الثبات قـــد عفوت عنها . لكنني لا أتكلف ارجاعها الى مصر ونحن قائسون بعد ايام الى النوبة فنسلمها الى ملكها» .

فلما سمعت دميانة كلامه اشرق وجهها وذهب انقباضها . وتناثـرت دموع الفرح من عينيها ، وهمت بيد الامير لتقبلها فزاده هذا الشعور شفقة عليها واعجابا بها ، لانه لم يكن يتصور انه يوجد في الدنيا امرأة تأبى ان تكون له فكيف وقد رآها تفضل الموت على ذلك ، فقال لها : «اتركك وشأنك ونحن ذاهبون بعد ايام قليلة الى النوبة ، فنكون على مقربة من دنقلة عاصمة ملكها فأدفعك اليه . هل يرضيك هذا ؟»

فأشارت برأسها وعينيها شاكرة ، وهي لا تعرف كم تبعد دنقلة عن ذلك المكان ولكنها كانت تود التخلص من محنتها بأية وسيلة . اما سمعان فكان يعرف المكانين وما بينهما من البعد فقال : «واذا كان الامير لا يرى بقاءها في معسكره فأنا نوبي وقد اشتقت الى بلادي فيأذن لي في السفر اليها وآخذ الفتاة معي وأوصلها الى النوبة» .

فضحك الامير وقال : «لقد طالما لحظت رغبتك في فراقنا وها قد سنحت لك الفرصة ، فامض واهد سلامي الى ملك النوبة وقل له : اننا باقون على العهد . وقل لغلامي أن يهيىء لكما الركائب وخذ من الخدم من شئتما» . والتفت الى دميانة وقال لها : «اسبلي ذيل المعذرة على ما حملناك من الهم يا جميلة ، واذكرينا عند اهلك بالخير متى بلغت بلدك» .

فتذكرت رفيقتها علية . فأرادت ان تسأل عنها لعلها تستصحبهـــا وتكافئها على جميل ابيها فقالت : «اشكرك ايها الامير ، وسأنشر في الملأ ما لقيته من نجدتك وكرم اخلاقك . ولي رفيقة كانت معي منذ أخذنا من حلوان ..»

فنظر ابو حرملة الى سمعان كأنه يستفهمه فقال : «أظنك تعنين علية : لقد تزوجت من ذاك الامير وهي راضية فقد تحققت موت ابيها وسائـر اهلها وهي من بنات البادية» .

قالت : «لعلها تحب ان ترافقني» .

قال : «سافرت هذا الصباح مع زوجها» .

فسكتت دميانة وخرجت مع سمعان ، واتكلت عليه في اعداد معدات السفر ، وحدثتها نفسها ان تطلب اليه ان يحملها الى مصر بدل بلاد النوبة فتصل الى اهلها . فلما خرجا نظرت اليه وهي لا تصدق انها نجت بعد ان كادت تقتل ، وشعرت بفضله عليها . اما هو فلعله كان اكثر سرورا اذ انقذها من الموت . فلما رآها تنظر اليه ضحك وقال لها : «هل انت مسرورة يا سيدتي ؟»

قالت : «الفضل لك يا سمعان في انقاذ حياتي» .

قال : «لا فضل لي . فاني قمت بما يفرضه علي الواجب» .

فقالت : «اني حالما وقع نظري عليك شعرت بارتياح لرؤيتك ، ثم تحقق ظني بما آنسته من طيب عنصرك كأنك مسيحي مثلي» .

فضحك وقال : «نعم انا كذلك . فقد ربيت تربية مسيحية» .

وكانا يمشيان وأهل المعسكر ينظرون اليهما وقد بلغهم ان الامير عفا عن الفتاة وأمر بتسريحها . فظل سمعان ماشيا حتى اتى خيمة وأمر الخادم ان يهيىء الاحمال ، ودعا دميانة الى الجلوس وأمر لها بطعام يعرف انها تأكله ، فاستأنست به وسألته : «الى اين نحن ذاهبون ؟»

قال : «الى دنقلة يا سيدتي» . وضحك .

قالت : «وأين هي من هنا ؟»

قال : «تبعد بضعة عشر يوما على الجمال» .

قالت : «هل هي من جهة مصر . فاذا وصلنا اليها نقرب مـــــن

الفسطاط ؟ »

فضحك وقال : «ان مصر الى يسيننا ودنقلة الى يسارنا فاذا كنا الان على بعد عشرين يوما من مصر ، فمتى صرنا في دنقلة نصبح على مسافة اربعين يوما عنها !»

فبغتت وانقبضت نفسها وأطرقت ، فابتدرها سمعان قائـــلا : «لا تجزعي ، اننا لا نذهب الى دنقلة ولكنني سأذهب بك الى أسوان ، وهي على يوم وبعض اليوم من هنا» . وخفض صوته وقال : «لانـــي عرفت من بعض المارين بنا ان ملك النوبة قدم الى جوار أسوان متنكرا، ومتى بلغناها لا نكون بعيدين من مصر كثيرا» .

فأشرق وجهها وقالت : «بورك فيك . وهل لي ان ارجو بعد وصولنا الى أسوان ان ترافقني الى مصر لأكافئك على صنيعك ؟»

قال : «سأكون في خدمتك حتى تصلي الى مأمنك» .

فشكرته وفي نيتها ان تكافئه خير مكافأة اذا هو رافقها الى مصر، ثم ذكرت ما كان من امرها في الفسطاط واضطهاد ابيها ، فكيف يكـــون مصيرها وهي تجهل ما دار بين زكريا وبين سعيد ؟. وكان زكريا قـــد تركها في حلوان وذهب الى بيت ابيها ليأتي بالاسطوانة ولقي سعيدا ، ولما رجع ليخبرها بما حدث وجد انها سبيت ، فلم تكن تعرف شيئا عن حال اهل مصر ، ولكنها توسمت في سمعان الرغبة في خدمتها فأرادت ان يصحبها الى مصر لتستخدمه في التفتيش عن زكريا او سعيد . فأخذت تتأهب للرحيل معه الى أسوان .

- ١٢ -

عند ملك النوبة

كانت أسوان اخر حدود مصر من الجنوب . وتبدأ بعدها بلاد النوبة . وكانت مدينة آهلة . فيها تجارة واسعة لما يتبادله فيها التجار على اختلاف مللهم من البضاعة بين مصر والسودان وكثيرا ما كان النوبيون يسطون عليها ليضموها الى بلادهم فيحاربهم المسلمون ويردونهم عنها . وفيها مغارس النخيل الخصبة . وعندها يبتدىء الشلال الاول في النيل وهو جنادل تعترض مجرى الماء فيسمع لها دوي وخرير . ويتعذر فيه السير على السفن فيجرونها او يحملونها حملا حتى تتجاوز تلك المضايق . وعند أسوان كثير من آثار الفراعنة اهمها هيكل انس الوجود. وفي عهد روايتنا هذه كان هناك تجاه أسوان في البر الغربي دير يقيم به بعض الرهبان . لا تزال آثاره باقية الى اليوم . ناهيك بالجبل المجاور لأسوان من جهة الصحراء وفيه المناجم الصوانية يقطعون منها الاحجار، وتراها الى الان باقية وفيها الاحجار المقطوعة والحفر المنقورة .

وكان ملك النوبة يومئذ يسمى فيرقي . او (قيرقي) وكان طامعا في امتلاك مصر واخراجها من يد المسلمين واعادتها الى ملك الروم . فكانت الرسل والرسائل تروح وتجيء سرا بين الروم والنوبة بوساطة أسقف مقيم بأسوان . وأحب ملك النوبة في ذلك العام ان يأتي بنفسه ليتصل بالاسقف . فتنكر ونزل بلدة «مسلحة» على حدود النوبة وراء أسوان. ولا يعرفه بها غير نفر من خاصته . وبلغ الامر سمعان من جماعة كانوا مع قافلة الملك عند خروجها من دنقلة وتركوها قاصدين مناجم الزمرد .

وبعد يومين من اذن ابي حرملة لدميانة بالرحيل . أعدت الركائب

لها ولسعان : واستصحبا خادما وجملا يحمل المؤونة ، والمسافة الـــى أسوان قصيرة . فأشرفوا عليها في الاصيل فقال سعان : «اننا على مقربة من أسوان وهذا جبلها المشهور يقطعون منه الاحجار لنحت التماثيل ، فينبغي ان نتجاوز أسوان الى الجنوب» .

قالت : «ولماذا لا ننزلها ، فقد بلغني ان فيها ديرا ذا كرامة احب ان ازوره » .

قال : «ان الدير على البر الاخر لا نصل اليه الا بعد اجتياز النيل . ولا بد من ذهابنا اليه اما الآن فعلينا ان نقابل الملك» .

قالت : «وأي ملك ؟»

قال : «ملكنا .. ملك النوبة» .

قالت : «ألا يقيم بأسوان ؟»

قال : «كلا انه لا ينزل أسوان ، فهي ليست في مملكته ولكنه ينزل في بلدة مسلحة وراء الشلال ، وفيها حامية من رجاله» .

فهمت بأن تتكلم ثم سكتت وظهر من ملامحها انها تكتم امرا لا تحب اظهاره فقال : «أظنك تتعجلين السفر الى مصر» .

فضحكت وقالت : «هل تلومني على ذلك ؟ وقد فارقت اهلي يبكون فراقي وربما يئسوا من وجودي» .

قال : «لا ألومك يا سيدتي . ولكننا أحوج الى نجدة الملك منا الى السفر الى مصر ، ثم اني مكلف برسالة من ابي حرملة اليه لا بد مـــن تبليغها » .

قالت : «افعل ما بدا لك» .

فلما اشرفا على النيل من بعيد رأيا سطحه يلمع كفرنـــد السيف ، والجبال تحده من الضفتين ، ويتخلل ذلك أنقاض الهياكل الفرعونية فيها الجدران والاساطين . ولما اقتربوا من أسوان سمعوا هدير الماء عنـــد

الشلال من تزاحمه في سيره بين الجنادل . وقد مرت على وادي النيل دول شتى وتوالت عليه أحوال مختلفة من عز وذل ونزل به ملوك وقواد من عهد الفراعنة العظام الى اليونان فالرومان فالمسلمين . وهدير ذلك الماء واحد ، ومجراه على وتيرة واحدة ؛ لا يمل من الجري ولا يمل جاره من السمع .

مروا بالقرب من الجبل وقد كادت الشمس ان تغيب فقال سمعان : «لا نزال بعيدين عن مسلحة . فأرى ان نبيت هنا الليلة . فما قولك ؟»

قالت : «لا رأي لي يا عماه . افعل ما تشاء» .

فأشار الى الخادم ان ينصب خيمة صغيرة كالمظلة تبيت دميانة تحتها. ويبيت هو خارجها ، وأن يعقل الجمال وينام بينها ، فقال الخادم : «اين أنصبها ؟ »

قال : «انصبها في سفح هذا الجبل في مكان ممهد» . قال ذلك وترجل وأنزل دميانة عن الجمل وقد تعبت ، فأخذ يحدثها ليشغلها عن التعب . وألقت هي نظرها على ما هنالك من المشاهد الطبيعية . فلما رأت النيل تنسمت رائحة الفسطاط وتذكرت حبيبها وتاقت نفسها الى اللقاء لترى ما يكون من امرها .

وبعد قليل جاء الخادم وأنبأها بنصب الخيمة على مصطبة من الصخر في سفح ذلك الجبل ، فقال له سمعان : «امكث انت هنا مع الجمال حتى الصباح وكن متيقظا لئلا يسطو عليك اللصوص» .

قال : «حسنا» . ومضى .

وصعد سمعان ودميانة للمبيت تحت المظلة ، وهي لا ترى بأسا من الانفراد بسمعان لانها كانت تعده مثل خادمها زكريا وقد آنست فيه اخلاصا ولاسيما انها عرفته وهي في أشد الضيق وتوسمت فيه طيب العنصر وانه نصراني مثلها ، والدين من اهم اسباب التقارب .

حمل سمعان معه بعض الزاد وجلسا تحت المظلة فتناولا شيئا من الطعام . ثم غلب عليهما النعاس فنامت دميانة على بساط فرشه لها سمعان تحت المظلة ، وتوسد هو ارضا رملية على بضع أذرع منها وجعل رأسه على ذراعيه . وفيما هو يوشك ان ينام سمع دويا فألصق أذنه بالارض وأنصت فسمع وقع خطوات ، فرفع رأسه وقد خيم الظلام وأصاخ بسمعه فسمع لغطا بعيدا فنهض ومشى حافيا نحو الصوت وهو يتلمس طريقه حتى أطل من وراء الجبل على خيام منصوبة ونار مشبوبة ، فحدق نظره فاذا هي خيام نوبية ، فلم يشك في انها مضارب الملك ، فحدثته نفسه بأن يسير اليها لعله يلقى فيها اكراما وحفاوة ويبلغ رسالته . ولكنه خاف ان يترك دميانة وحدها فعاد الى متوسده ولم يكد ينام حتى سمع دويا قريبا فنهض فرأى ثلاثة فرسان يسوقون أفراسهم في طريق يؤدي الى المضرب ، وتفرس فيهم فلم يعرفهم لانهم متنكرون فعاد الى منامه .

وقبيل الفجر جاءه الخادم فسأله : «هل شاهدت احدا مارا في الليل ؟ »

فقال : «شاهدت ثلاثة رجال ، ومر بي خادمهم فسألته هل هم ممن يخشى منهم ؟ فقال : كلا . لا خوف منهم ، لانهم أسقف المدينة واثنان من رجاله ، وقد رجعوا في اخر الليل ولم نشعر بهم» .

فلما سمع سمعان قوله أطرق هنيهة يفكر ، ثم ابتسم وأشار اشارة معناها «عرفت السر» . ثم التفت وقال له: «امكث هنا حتى نعود اليك» . وقال لدميانة : «هل تأتين معي الى هذه الخيام وراء هذا الجبل فانها مضارب ملك النوبة لنقابله ونستأذنه في السفر ثم نعود» .

قالت : «اذا كنت ترى فائدة من ذهابي أذهب» .

قال : «الاجدر ان تأتي معي ، وأظنك تحبين مشاهدة ملك النوبة فان الناس يتمنون رؤيته» . وأشار ان تتبعه فمشيا حتى تجاوزا الجبل الى

بقعة منخفضة فيها بضع خيام احداها كبيرة ، فتقدما حتى اقتربا منها ، فتصدى لهم رجل نوبي غليظ البدن قوي العضل حافي القدمين . التحف شملة لف بعضها حول حقويه وأرسل باقيها من جهة صدره الى كتفيه نظهره . وقد عاق سكينا في كوعه وشك سهاما في شعره المتلبد وعلق قوسا في كتفه . ولما رأى القادمين تصدى لهما فتقدم سمعان اليه وكلمه بلسانه فبغت الرجل عند رؤيته وتولته الدهشة وصاح : «سمعان» وهم به فضمه الى صدره وصافحه مثنى وثلاث . وبين كل مصافحة والتـــي تليها يقبل الواحد منهما يده على عادة النوبة في التسليم . فأخذ سمعان يكلمه بالنوبية وهما متصافحان كلاما لم تفهمه دميانة ، وكلم سمعـــان الرجل وهو يشير الى دميانة فأسرع اليها ودعاها ان تتبعه ، فأومأ اليها سمعان ان تفعل فذهب بها الى خيمة فيها نساء استقبلنها احسن استقبال.

***

مضى سمعان الى الخيمة الكبرى فاستأذن في الدخـــول فأذن له ، فوجد هنالك «فيرقي» ملك النوبة . وكان بدينا كبير الهامة عليــه لباس مزخرف ، وعند رأسه زنجيان يحملان مراوح من ريش النعام يروحان له. وهو جالس على جلد اسد لا يزال رأسه معلقا فيه وقد عولج حتى يظهر للرائي كأنه اسد رابض . ولم يكن «فيرقي» في لباس الملك لانه جاء متنكرا ولكنه وضع على رأسه قبعة على هيئة التاج ، وعلق على صدره صليبا من الذهب المرصع ، واتشح بمطرف من الخز عليه صور ملونة اكثرها صور القديسين وأهمها صورة القديس جاورجيوس لابس الظفر. وكان الملك قد جلس الاربعاء ووضع السيف في حجره . وأصلح مـــن شأنه فاكتحل وتطيب ونزع النعال من رجله . وكان في اواخر الكهولة وقد شاب شعره وخف ، ولكنه كان صحيح البدن مشرق الوجه . وقد

احاط خصره بمنطقة من الخز لم يعهد مثلها في تلك البلاد . فلما رأى سمعان داخلا رحب به وقال : «مرحبا بخادمنا الامين سمعان» .

فأكب سمعان وهو جاث حتى قبل ركبة الملك ، فأشار هذا اليه ان ينهض ودعاه للجلوس فجلس بين يديه حتى حصير جميل من سعف النخل فقال الملك : «من اين انت قادم ؟»

قال : «من المهمة التي انفذني سيدي الملك فيها» .

قال : «من بلاد البجة ؟ من هو صاحبها الان وكيف وجدته ؟»

قال : «هو ابو حرملة» .

فقطع الملك كلامه قائلا : «ابو حرملة النوبي ؟»

قال : «كلا يا سيدي ان صاحب البجة تسمى بهذا الاسم تقليدا بذلك القائد العظيم» .

قال : «وكيف سياسته ؟ هل هو معنا ؟»

قال : «لم يكن معنا في بادي الرأي . ولكنني جعلته يصير نوبيا أكثر من النوبة . فان هؤلاء القوم لا يغريهم الا الكسب بالنهب ، فاذا علم ان محاربتنا للمسلمين تبيح له النهب صار معنا» .

قال : «هل افهمته ما نرمي اليه من مناوأة المسلمين ؟»

قال : «انهم لا يفهمون الانضمام الى الروم لانهم لا يدينـــــون بالنصرانية ، وانما اتفقنا على انه اذا قامت حرب بيننا وبين المسلمين كان معنا . ورأيت منه ميلا وعطفا» .

فقال : «ان البجة من اصدقاء النوبة من عهد أسلافنا ، واذكر اني ذهبت على عهد ابي مع رئيس البجة السابق وكنت غلاما يافعا الى بغداد عاصمة المسلمين ليشكو الى الخليفة ظلم عماله في اقتضاء الجزية . فنلنا منه كل رعاية وأهدانا الهدايا والتحف وبالغ في اكرامنا . وقد شاهدنا من خيرات العراق ما لا مثيل له هنا . ولما رجعنا اهداني فرسا وسرجا

ولجاما وسيفا محلى هو هذا الذي معي ، وثوبا ثمينا وعمامة من الخز لم ألبسها وهي هذه . (وأشار الى المنطقة حول خصره) . عدا ما اعطى حاشيتنا . وأهم من ذلك كله ان الخليفة نظر الى شكوانا فوجد عامله بمصر يأخذ منا فوق ما يجب فأمره ان يخففه . ولقد كان هذا الخليفة ـ والحق يقال ـ على خلق عظيم : فاستتب الحال في عهده ولكن الاحوال تغيرت بانتقال الخلافة الى سواه . فعاد عامل مصر الى مناوأتنا . وحق العذراء ان ملك الروم خير لنا من هؤلاء المسلمين فانهم على دين غير ديننا ولا يدخرون وسعا في سبيل اخذ أموالنا واسترقاق رجالنا . ولا أظنني في حاجة الى زيادة التفصيل يا سمعان» .

فحنى سمعان رأسه مؤمنا ، وقال : «فالبجة معنا الان وقد آنست من رئيسهم ميلا الى حلفنا ، ولم يكن يعلم اني جئته لاتجسس احواله فاتخذني مترجما له ، وقد اغتنمت فرصة سنحت والتمست منه الاذن بالسفر الى دنقلة وأنا أعلم ان مولاي الملك هنا» .

فقال الملك : «لقد اتيت متنكرا لأرى أسقف أسوان وأكلمه وجها لوجه فهو واسطة التحالف بيننا وبين ملك الروم كما تعلم ، وقد جاءني بالامس ليلا وتشاورنا مليا فرأيت منه سعيا حميدا ، وبقي البطريرك ميخائيل في مصر» . قال ذلك وتنهد .

فقال سمعان : «ألم تتصلوا به بعد ؟»

قال : «ارسلنا له رسلنا ورسائلنا مرارا فلم يأتنا منه جواب» .

قال : «طبعا هو معنا لانه ..»

فقطع الملك كلامه وقال : «لا تقل طبعا ، فلو كان معنا لرد على كتبنا اليه» .

قال : «ربما ضاعت الكتب خلال الطريق ، او ضاع الرد عليها» .

فأطرق الملك حينا وهو يحك عثنونه الشائب بسبابته ، ثم رفع بصره

اليه وقال : «صدقت ان الكتب قد تضيع في الطريق ، فهل تكون رسولي الى البطريرك ميخائيل لتبلغه الامر شفاها وتأتيني بالجواب النهائي ، ولك ان تستخدم مهارتك في اقناعه . هل تفعل ؟»

فأشار سمعان برأسه مطيعا وقال : «افعل ذلك يا سيدي» .

قال : «أتعلم مقر البطريرك ميخائيل ؟»

قال : «أظنه الان في دير ابي مقار في بادية النطرون» .

قال : «هل تعرف الدير ؟ وهل انت واثق من وجود البطريرك هناك؟»

قال : «أعرف الدير ، واذا لم يكن البطريرك فيه أذهب اليه حيثما يكون . كن مطمئنا» .

فابتسم الملك وقال : «انك محب صادق ، واذا ظفرنا بما نؤمله اجزلنا لك الجزاء» .

فوقف سمعان وانحنى شاكرا وقال : «اني لا ألتمس على ما أفعله أجرا ، فاني اقوم به حبا لمولاي الملك وتأييدا للدين» .

قال : «ومتى تسافر ؟»

قال : «عندما يأمر الملك ، وأنا أرفع الى مقامه ان معي فتاة من قبط مصر وقعت سبية عند سيد البجة ، وعهد الي ان اعيدها الى اهلها ، فأحب ان أصطحبها ونسافر في قافلة بالبر الغربي ، فيكون طريقنا توا الى وادي النطرون » .

قال : «اصطحب من شئت وما تريده من مال وركائب من بيت مالنا » .

قال : «لا حاجة بنا لركائب فان الطريق الذي ذكرته لا يخلو من قوافل التجار مارة بأحمال الريش والصمغ والعاج الى مصر ، فنرافق واحدة منها ، على ألا يعرف القوم غرضنا وأجعل نفسي خادما للفتاة التي ذكرتها» .

قال : «احسنت ، ومن هي هذه الفتاة ؟»

قال : «ذكرت لمولاي انها سبية غنمها البجة من حلوان بجـــوار القسطاط وأتوا بها الى اميرهم فأرادها لنفسه فأبت» • وقص عليه حديثها الى اخره •

فأعجب الملك بما سمعه من تمسكها بالمبادىء النصرانية وأثنى على عفتها وتقواها وقال له : «هل هي معك هنا ؟»

قال : «نعم هي في الخيمة الاخرى» •

فصفق الملك فدخل غلامه فأمره ان يأتي بالفتاة القبطية وقال لسمعان: «سأجعل سفرك الى مصر في خدمتها اكراما لكما» •

ثم عاد الغلام وقال : «ان الفتاة بالباب» • فنهض سمعان فاستقبلها مشجعا لها على ملاقاة الملك . فدخلت وهي مطرقة فابتدرها الملك قائلا : «مرحبا بالفتاة الطاهرة النقية ، لقد سمعنا بصدق تدينك وعفة نفسك داحببنا ان نراك ونهنئك . حفظك السيد المسيح وجعلك من مختاريه» •

فطأطأت رأسها حياء واحتراما فقال لها : «قد أوصيت محبنا سمعان ان يذهب معك فيوصلك الى مأمنك» • قال ذلك باللغة القبطية لانه كان يعرفها •

فاستأنست دميانة وفرح قلبها لاهتمام ملك النوبة بأمرها ، وشكرت له تنازله وخرجت ومعها سمعان الى مبيتهما ، فاستقرا هناك حتى أتيح لهما تعدية النيل الى البر الاخر بدير هناك اقاما به اياما ينتظـران مرور قافلة ذاهبة الى مصر يصطحبانها •

★ ★ ★

خشي ملك النوبة ان يتأخر سمعان عن اداء المهمة التي كلف بها ، فأمر باعداد قافلة سير فيها جماعة من رجاله يحملون بعض أصناف التجارة

الى الفسطاط ، وأمرهم ان يسيروا في طريق البادية على البر العربي للنيل حتى يأتوا الجيزة تجاه الفسطاط ، ومنها يعبرون النيل اليها فيبيعـــون بضاعتهم في اسواقها ، ويذهب سمعان بدميانة الى حيث تريد ثم يبحث عن مكان البطريرك ميخائيل ويبلغه رسالته .

فلما أعدت القافلة سار سمعان ودميانة معه ، وكل منهما على جمله مع من يحتاج اليه من اسباب الراحة . وفي الطريق محطات تقف القافلة عندها للطعام او الراحة او النوم . ولم تكن دميانة تعرف احدا في ذلك الركب الا سمعان . فكانت تزداد استئناسا به وتقديرا له . وهو لا يفتر عن القيام على خدمتها ومؤانستها بالاحاديث المختلفة وهي تقص عليه ما تعرفه او ما مر بها ، وتطرقت الى سرد حكايتها وسبب خروجها من بيت ابيها ، وبالغت في الثناء على زكريا لما اظهره من الغيرة عليها والتفاني في خدمتها ، حتى اخر عهدها به في حلوان . ثم ذكرت انها لا تعلم عنه شيئا بعد ذلك .

فاهتم لامرها وسألها : «والى اين تقصدين الان ؟»

قالت : «لا ادري . واذا اقتربنا من الفسطاط نسأل عن المهنـدس سعيد بين رجال ابن طولون في القطائع فاذا عثرنا عليه عرفت منـــه ما أريد» .

قال : «واذا لم نجده ؟»

قالت : «نبحث عن زكريا» . وتذكرت مصائبها فانقبضت نفسهـــا وتنهدت .

وكان جملاهما سائرين متحاذيين وراء القافلة لا يسمع لخفافهما وقع. واذا التفت الراكب الى يساره رأى رمالا وصخورا ، وأما الى اليمين فيقع البصر حينا بعد حين على المزارع عند ضفة النيل وقد يرى النيل جار يا والعمارة على ضفتيه اكثرها قرى صغيرة .

وكانا قد اقتربا من الجيزة ومرا في طريقهما على الهــرم المدرج • وأشرفا على أهرام الجيزة ووقع نظرهما الى اليمين وراء النيل علــى حلوان ، وظهر لهما المقطم وعليه قبة الهواء وتحتها قطائع ابن طولــون فأذكرها ذلك يوم الاحتفال الذي اخذ فيه سعيد فهاجت أشجانها وبان الانقباض في وجهها وتلألأ الدمع في عينيها ولحظ سمعان ذلك فشاركها في احساسها وأخذ في التخفيف عنها ، وكان قد عرف انها بنت وجيه غني وأعجبته انفتها وعزة نفسها فقال لها : «لا بأس عليك يا سيدتي ، اشكري السيد المسيح على نجاتك من الاسر والعار» •

فقالت : «أشكره كثيرا • ومن نعمه انه سخرك لانقاذي ولكنــي تنقبض نفسي كلما أتذكر شقائي واني اصبحت طريدة شريدة لا اخ لي ولا اخت ولا أم • وقد عاداني ابي واضطهدني اقرب الناس الي» • وتنهدت وسكتت وظهرت في وجهها ملامح الخجل واليأس معا لانهـا تذكرت سعيدا وأرادت ان تذكره وترجو لقاءه فغلب عليها الحياء ؛ ولحظ سمعان ذلك فأحب ان يخفف عنها وقد تذكر مصائبه وكان قد تناساها مع الزمان فقال : «ان الانسان يا سيدتي عرضة للمصائب ، والمسيحي الحقيقي يتأسى بالسيد المسيح فقد تألم وصلب من اجلنا واحتمل كل ذلك بالصبر فينبغي لنا ان نصبر » •

فاقتنعت بحجته ولكنها بقيت مكبوتة العواطف وتود ان تقول شيئا عن سعيد والحياء يمنعها فقال سمعان : «ولا يخفى علي انك تضمرين امرا يمنعك الحياء من التصريح به • لعل سعيدا مرجع آمالك فاذا لقيته نسيت كل شيء أليس كذلك ؟»

فأجابت وقد غلبت على امرها : «نعم صدقت ولكني لا ادري اين هو : أفي السجن ام أطلق سراحه ؟» • وأطلقت لنفسها عنان البكاء فخاف سمعان ان يسمع احد من الركب صوتها فأخذ يتباطأ في سيره وهي تجاريه

حتى سبقتهما القافلة مسافة بعيدة وصارت على مقربة من أهرام الجيزة. وكانا قد اشرفا عليها وعلى ابي الهول من بعيد فاستبشرا بقرب الوصول.

اما دميانة فاستأنست بسمعان واتخذته عونا لها كما كانت تفعل مع زكريا ، وزادها تعلقا به مشابهته له في ملامحه وأخلاقه فقالت : «وهل تظنني انسى هذه المتاعب يا سمعان ؟»

قال : «ارجو ذلك من الله . أما انا فلا أتخلى عنك حتى ابلغك مأمنك ويطمئن قلبي» . قال ذلك وتنهد وقد تغيرت سحنته وسكت ، فسألته عما طرأ عليه فقال : «اني لا أمر من هذا الطريق وأنظر الى الفسطاط الا وتنقبض نفسي وتهيج أشجاني .. لحادث أتذكره مع رغبتي فـــي تناسيه .. فلا تهتمي بهذا الامر.. عودي الى حديثنا عن المهندس سعيد».

فضحكت ومالت الى معرفة كنه امره ، وحسبت الحاحها عليه بذلك مما يخفف وقع ذكرياته فقالت : «لقد شغلت خاطري بما ظهر عليك من الانقباض فلعل لك قصة غريبة» .

قال : «حديثي غريب ولكنه قديم وقد كدت انساه» .

قالت : «ألا تقصه علي فيساعد على تقصير الطريق ؟»

* * *

قال سمعان : «سأقص عليك حديثي عسى ان يسليك ، لقد نشأت مع اخ اصغر مني في بلاط ملك النوبة جد هذا الذي رأيته بالامس ، وكنا في رغد وهناء لا هم لنا غير الاكل والشرب واللعب ، وجعلنا الملك من خاصة خصيانه . وكنا غلامين يافعين عندما اتى الى هذه البلاد خليفـــة المسلمين الذي يسمونه عبد الله المأمون لامر اقتضى ذلك ، وتبودلت الرسائل بينه وبين ملكنا . فقد كان ملكنا يشكو من جور صاحب مصر في تحصيل الخراج فاغتنم مجيء الخليفة وتقرب اليه بالهدايا من العاج

والريش والرقيق ، وأرسلني انا وأخي في جملة الهدية فجيء بنا الى هذه المدينة (الفسطاط) فقبل المأمون الهدية وفرق بعضها في رجاله وأطلق بعض الارقاء وأنا منهم ، وكنت احسبه يطلق اخي معي او يأخذنا جميعا لاني كنت مولعا بأخي ، لكنه لم يفعل فبكيت كثيرا ، وبعد قليل علمت ان المأمون ذهب الى الارياف وانه اخذ اخي معه ثم علمت انه عاد الى بغداد ، فشق علي ذلك ورجعت الى الملك وأقمت في خدمته . وما زلت تنقبض نفسي كلما سمعت اسم الفسطاط فما بالك اذا رأيتها ؟»

فقالت : «يحق لك ان تحزن على فقد اخيك ، ما اسمه يا سمعان ؟»

قال : «اسمه ابراهيم» .

وهمت بأن تستزيده ايضاحا فاذا به ينظر الى الاهرام متفرسا وقد تغيرت سحنته ، فرأت القافلة قد تبعثرت وأحاط بها شرذمة من الفرسان علمت من ألبستهم انهم من الجند فقالت : «ويلاه .. سطا الجند على القافلة » .

فقال سمعان : «قبحهم الله سطوا عليها وسلبوها . وهل جعل الجند لحماية الناس او لسلبهم ؟. اني اراهم يسوقون الرجال والاحمال جميعا. والاجدر بنا ان نلتجيء الى مكان نختبيء فيه لئلا يمسونا بسوء ، ولو كنت وحدي لما تخلفت عن الرفاق ولكنني أوثر حمايتك على كل شيء اخر » .

قال ذلك وتحول معها الى أنقاض بناء قديم من آثار الفراعنة ، فترجلا وأدخلا الجملين في مخبأ بالقرب منه ، وجلسا على بعض الاحجار، ودميانة ترتعد من الخوف ، فأخذ سمعان يخفف عنها ويشجعها وقال : «لا تخافي ، ان الجند لا يأتون الى هنا وهم لم يرونا ولا أظنهم يتعرضون لاي عابر سبيل . وبعد قليل تغرب الشمس ويخيم الظلام فنخرج خلسة الى هنا وراء الاهرام وننزل الجيزة فنبيت في خان هناك ونذهب في الغد

الى الفسطاط» .

قالت : «اخاف ان يلقانا احد من هؤلاء» .

قال : «لا تخافي . تتجسس الطريق قبل السير فاذا رأينا احـــدا اختبأنا » .

قعدا في الخربة وفيها الأساطين والتماثيل مهملة مبعثرة ، وكـــأن الجملين هالهما المنظر فتهيبا فأخذا في الهدير ، وسمعان يسكتهما لئلا ينم هديرهما على المكان . فوضع لهما العلف يشغلهما به ولم يمض الا يسير من الوقت حتى مالت الشمس نحو الافق فاستطالت الظـــلال حتى اذا توارت الشمس اختلطت وصارت ظلاما فاستولت الوحشة على تلــك الخرائب . فلجأت دميانة الى الصلاة تستجير بالسيد المسيح وبالعذراء ، وأخذ سمعان يهتم بالانتقال من ذلك المكان وهو لا يخلو من الحشرات السامة ، فضلا عما يعتقدونه من وجود الجان او العفاريت فيه . ولولا الايمان والصلاة لما اطاقا المكوث هناك لحظة فضلا عما قاسياه مـــن العطش فان قرب الماء كانت محمولة مع القافلة وأخذت معها .

فلما اشتد الظلام قال سمعان : «هيا بنا نركب الى الاهرام اني لا ارى شبحا ولا أسمع اصواتا ، ولا ريب ان القوم رجعوا الى الفسطاط» .

فنهضت دميانة فأركبها جملها وركب جمله بحيث تبقى هي في اثره . وسارا هكذا وهما لا يتكلمان وقد تهيبا الصمت التام المستولي على تلك الرمال وما يجاورها من المغارس . فاذا التفت الناظر رأى الى يساره الافق تعترضه التلال الرملية والصخرية ، والى يمينه البساتين حتى النيل ووراءه المقطم وفي سفحه القطائع والفسطاط ، وعلى ضفتي النيل شجر النخيل يناطح السحاب .

* * *

كان سمعان يتطاول بعنقه من فوق جمله ويشخص ببصره ويتفرس فيما امامه مخافة ان يكون هناك متربص من اللصوص او الجند ، فكان يرى ابا الهول والهرمين الكبيرين تقترب اليه وتتجلى صورها بالتدريج وهو يصيخ بسمعه فلا يسمع الا صوت وقع خفاف الجمل على الرمال وصوت شخيره او تنفسه . حتى اذا اقتربا من ابي الهول أمسك سمعان بزمام جمله ليسير الهوينى . ولم يتجاوز ابا الهول ويشرف على الهرم الكبير حتى رأى شبحا يتسلق الهرم متلصصا ، وظهر له من قيافته انه من العامة ولم ير وجهه ليتبين سحنته . فلما رآه يتلصص أوقف الجمل فوقف الرجل هنيهة ثم عاد الى الصعود فتأكد سمعان انه لا يفعل فعل المتلصص الخائف فساق الجمل نحو الهرم حتى استقبل الجانب الذي رأى الرجل يتسلقه فرآه قد اتجه اليهما ونزل الى اسفل الهرم ووقف . فخطر لسمعان ان يسأله عن الماء ليتطرق من ذلك الى اسئلة اخرى فقال له باللغة القبطية : «من الرجل ؟»

فأجاب : «من اهل القرى ومن انت ؟»

قال سمعان : «غرباء نطلب ماء هل تعرف مكانا فيه ماء بهذا الجوار؟»

فتقدم الشيخ وقال : «ان في هذا الجوار عينا ذات ماء كثير ، تعاليا فأدلكما عليها» .

وكانت دميانة مصغية تخشى ان يكون الرجل من طلائع الجند فلما سمعت صوته خفق قلبها وأجفلت لانه يشبه صوت زكريا . فلما رأته مشى وخلفه سمعان ، صبرت حتى تسمع كلامه ثانية . فعاد سمعان الى سؤاله عن اقرب الطرق الى الفسطاط فقال : «تنحدران من هذه الاكمة بين هذه المغارس الى الضفة فتجدان هناك جسرا من السفن المتحاذية تقطعانه الى جزيرة الروضة ومنها تقطعان جسرا اخر الى الفسطاط» .

وكانت دميانة تسمع كلام الرجل وقلبها يزداد خفقانا لانه صوت زكريا

بعينه ، وتفرست في مشيته عن بعد فتحققت انه هو فلم تعد تعلم ماذا تعمل من الدهشة والفرح ، فتجلدت وقالت : «هل تريد ان ترافقنا في هذا الطريق يا عماه ؟» • قالت ذلك بصوت مختنق من شدة التأثر •

فعجب سمعان لتصديها للكلام ومن اختناق صوتها ، اما الرجل فلما سمع الصوت وقف والتفت الى دميانة والظلام يحول بينهما وكانت هي قد استعدت لامعان النظر فيه فلم يبق عندها ريب من امره • وأما هو فاختناق صوتها اخفى عليه امرها ، فقال : «اني في خدمتكم الى حيث تشاءون • فهل نذهب توا ؟» • وأصغى ليسمع الجواب •

فقالت : «نشرب اولا ثم نسير الى المعلقة» •

فلما سمع ذكر المعلقة اضطرب وتراجع حتى أمسك بزمام الجمل وسمعان يستغرب • وقال : «من انت • مولاتي دميانة ؟• دميانة ؟»

فصاحت هي : «زكريا ! عمي زكريا» • وكادت للهفتها ان تقع عن الجمل فلما سمعها سمعان تذكر زكريا بهذه اللهفة ادرك انه خادمها الذي كانت تحدثه عنه ، فنزل عن الجمل وأناخ جملها وساعدها على النزول فأكب زكريا على يدها يقبلها وكاد لولا الحياء ان يضمها اليه لتلهفه لرؤيتها ، وظن نفسه في حلم اذ لم يدر في خلده ان يراها بجوار الاهرام في مثل هذه الساعة وهو يظنها في أسر البجة • فأكثر من السؤال ومن ترديده ، وفعلت هي مثله ، فقال : «سيدتي دميانة ! انت هنا ؟ شكرا لله على سلامتك • كيف جئت • من أنقذك ؟»

قالت : «لا تقل سيدتي فانك عمي ، وهذا عم اخر انقذني من بلاد البجة وتكلف المشقة حتى وصلنا الى هنا» •

فصافحه زكريا وسلم عليه وأثنى على فضله لكنه لم يتبينه لشدة الظلام •

ولم يكن سمعان أقل منهما دهشة لهذه الصدفة فقال : «الحمد لله

اذ سر امري فأهنئكما بهذا اللقاء» .

فقال زكريا : «امكثا عند قاعدة الهرم حتى آتيكما بالماء تشربان ، ثم نسير الى الفسطاط معا» . قال ذلك ومضى . ثم عاد اليهما بالماء فشربا ودميانة تود ان تعرف ماذا جرى لسعيد والحياء يمنعها فقالت : «اين كنت هذه المدة وكيف حالك ؟»

فأدرك غرضها فقال : «ان حديثي طويل سأقصه عليك . اما حالي فانها على ما يرام والحمد لله وسيدي سعيد ينتظر لقاءك على مثل الجمر . وهنيئا لك ما ناله من الحظوة عند امير مصر فهو صاحب الكلمة النافذة والمقام الرفيع» .

وكان زكريا يتكلم وقلب دميانة يرقص فرحا ، ولما فرغ من كلامه بسطت يديها نحو السماء وقالت : «اشكرك اللهم لانك حرسته وحفظته فحق علي وفاء النذور» .

فقال سمعان : «لا أقدر ان اصف لكما فرحي بجمع شملكما ، والآن وقد اكملت لكما تعينكما فاني أنطلق قافلا» .

فاعترضته دميانة قائلة : «كلا . انني لم اقم بحق جميلك ولم اكافئك على بعض ما فعلت» .

قال : «لم أفعل ما يصح ان تكافئيني عليه ، وأنا ذاهب الان في مهمة لا بد لي من قضائها وسأعود اليكم بعد ذلك» .

قال زكريا : «لم تنقض مهمتك بعد يا اخي فأنا لست حرا طليقا لاكون في خدمتها» .

فقالت دميانة : «وكيف ذلك ؟»

قال : «اني سجين يا سيدتي» .

قالت : «سجين ! اني اراك حرا طليقا» .

قال : «ولكني خرجت من السجن على ان اعود اليه» .

قالت : «ترجع اليه ؟ أتكون حرا وتقيد نفسك ؟»

قال : «خرجت من السجن على ان آتي هذا الهرم لآخذ منه شيئا ودعته فيه وأعود الى السجن ولا بد لي من العودة اليه ، لاني وعدت الرجل الذي سهل خروجي بذلك» .

قالت : «صدقت ان وعد الحر دين . ولكن كيف حبست ولماذا ؟ اني لم افهم ما تقول» .

قال : «حديثي طويل سأقصه عليك اثناء الطريق ، اما الان فانـــي أصعد الى باب الهرم ثم اعود » .

وصعد ثم عاد وقال : «هيا بنا الى أسفل هذه الاكمة فان لي حمارا ربطته هناك فأركبه ونسير معا» .

فنزلوا جميعا وركب حماره ومشى بين الجملين وأخذ يروي لهما ما وقع له بعد فراق دميانة في حلوان ، منذ ذهب الى بيت ابيها وأخذ منه الاسطوانة ثم ذهب الى دير ابي مقار ورأى البطريرك ميخائيل وأخذ منه كتابا الى ملك النوبة وضعه في الكيس مع الاسطوانة ، وكيف خانه ذلك اليهودي وأتى بالجند فقبضوا عليه فخبأ الكيس بباب الهرم وحمل الى السجن ، فأقام حينا وتوصل الى سعيد وأخبره عن الكيس وانه يريد ان يأتي به ، فتوسط له عند السجان على ان يخرجه ويعود الى السجن في تلك الليلة ــ الى ان قال : «قابلت خلسة لاخذ الكيس من باب الهرم ، فرأيتكما وخفت ان تكونا عينا علي ثم حدث ما تعلمانه ، وقد ذهبت الان الى باب الهرم وأتيت بالكيس وهو معلق بعنقي تحت أثوابي» .

وقصت عليه حديثها ، ونوهت بمكارم اخلاق العم سمعان . وكان هذا قد سمع حديث زكريا وما يتخلله من كلام البطريرك ميخائيل وانه لا يرى رأي ملك النوبة في اخراج مصر من حكم المسلمين الى حكم الروم، ففترت همته عن الذهاب اليه ، ولكنه اراد التثبت فقال : «حقا لقـــد

قاسيت كثيرا في ذهابك الى دير ابي مقار . هل البطريرك هناك الان ؟»

قال : «سمعت انه قادم الى الفسطاط ليجتمع بصاحب مصر» .

قال : «ألا يزال كتابه الى ملك النوبة معك ؟»

قال : «في الحقيبة (الكيس) مع الاسطوانة» .

قالت دميانة : «اراك كثير العناية بهذه الاسطوانة حتى عرضت نفسك للخطر من اجلها ، فأي شيء فيها ؟»

قال : «ستعلمين بعد حين» .

وظلوا في الحديث حتى وصلوا الى جسر الجيزة فعبروه الى الروضة ومنها الى ضاحية الفسطاط عند بابلون قرب دير المعلقة . فلما صاروا هناك قال زكريا : «لا بد من رجوعي الى السجن لان فأين تمكثان لأراكما اذا خرجت ؟»

قالت دميانة : «انا أفضل النزول في هذا الدير» .

قال : «لا ارى ذلك فان اهله يعرفونك ، فأخاف ان ينقلوا خبرك الى الاسقف المعهود او ابيك او اسطفانوس فيسعون في ضررنا والاوفق ان تنزلا في كنيسة بابلون هنا الى ان آتيكما» .

- ١٣ -

كشف السر

كان زكريا عقب سجنه قد أرسل الى سعيد يطلب منه ان يوافيه لامر ذي بال ، فلما جاءه أطلعه على ما وقع له وانه وضع الكتاب الذي جاء

به من البطريرك الى ملك النوبة مع الاسطوانة في مدخل باب الهرم الكبير وان لهذه الاسطوانة شأنا مهما يختص بدميانة ۰ فأجمعا امرهما على ان يستأذن له سعيد السجان ليذهب سرا الى الهرم فيأتي بالاسطوانة ويودعها عند سعيد ويرجع الى السجن ۰ وتم ذلك بما لسعيد من النفوذ في الدولة ۰ وعاد زكريا بوديعته من الهرم وقصد الى منزل سعيد رأسا بعد توديعه دميانة وسمعان ، فدخل عليه فوجده في انتظاره وقد استبطأه ، فأخذ يسأله عن السبب في الابطاء ، وزكريا يتلعثم ولا يعرف كيف يبدأ الحديث لفرط لهفته ۰ وكان السرور باديا في حركاته وسكناته وقد ذهبت الغمة التي كانت تغلبت عليه ۰ فلم يكد يأخذ مقعده حتى ابتدره سعيد وقال : «لقد ابطأت وأنت تعلم اني ضمنت للسجان رجوعك عند العشاء وها قد انتصف الليل ولا يخفى عليك ان الشكوك محيطة بنا من كل ناحية» ۰

وكان زكريا يسمع ويضحك كأنه لا يبالي ما يحدق به من الخطر ، فاستغرب سعيد استخفافه فقال : «ما بالك تستخف بما اقول ؟ هل أسكرك عثورك على الاسطوانة ؟»

قال : «لا ۰ لا ۰ ليس الاسطوانة بل دميانة ۰۰»

فأجفل وصاح فيه : «دميانة ! دميانة ۰ ماذا تعني ۰ ما بالها ۰ اين هي ؟ »

قال : «دميانة هنا» ۰

فلم يتمالك ان وقف فجأة وصرخ : «دميانة هنا ؟۰ اين ؟۰ اين هي؟۰ وهم بالخروج من الغرفة وهو يحسب دميانة في الدار فاستوقفه زكريا وقال: «ليست في المنزل هنا، وانما هي في البلد۰ هي قريبة جدا من هذا المكان دعنا منها الان» ۰

فنظر اليه وأخذ يحدق في وجهه وقد ظنه يمزح وقال : «قل الصحيح

يا زكريا اين دميانة ؟»
قال : «قلت لك انها قريبة من هذا المكان ولكن لا سبيل اليها الان ولا تلبث ان تأتي» .
قال : «وأين هي الان ؟»
فنظر اليه جادا وقال : «اصبر يا سيدي حتى اخرج من السجن وعند ذلك أجمعك بدميانة وهذه هي الاسطوانة» . وأخرج الكيس من تحت ابطه ، ثم اخرج منه الاسطوانة والكتاب وقال : «هذه الاسطوانة التي اخبرتك عنها ، وهذا هو كتاب البطريرك ميخائيل الى ملك النوبة فاحتفظ بهما» .
فتناول سعيد الاسطوانة وأخذ يقلبها بيده وهي مختومة وتناول الكتاب . وبينما هو يقلبه سمع دبدبة في صحن منزله وعلا صياح الخدم يستغيثون فخرج ليعلم السبب فرأى شرذمة من الجند دخلوا المنزل وقال رئيسهم · «هذا هو اللص امسكوه» . وأشار الى زكريا وأكب على الاسطوانة وأراد ان يخطفها من يد سعيد وقال :
«وهذه هي الاوراق المسروقة» . فقبض سعيد على الاسطوانة وجذبها اليه . وعرف ان الرجل الذي يكلمه اسطفانوس فانتهره قائلا : «اذهب في سبيلك يا غلام ، وقف عند حدك» .
فصاح احد الجنود قائلا : «اتينا بأمر الوالي للقبض على هذا السجين الهارب وما معه . وهذه الاسطوانة وهذا الكتاب كانا معه فينبغي ان نأخذهما ونأخذه الى السجن ، وفي صباح الغد ينظر الوالي في امره» .
فقال سعيد : «خذوا الرجل الى سجنه ،وأما هذه الاشياء فتبقى عندي حتى اضعها بين يدي الوالي او القاضي» .
فصاح اسطفانوس : «بل نأخذها الان ، وان أبيت وعصيت فان هذا الجند يأخذونك انت ايضا الى السجن ، فقد تواطأت مع السارق على

الخروج من السجن وساعدته على اخفاء السرقة» .

وقبل ان يتم كلامه رفسه سعيد فألقاه في الخارج وصاح برجال قصره ان يخرجوه من المنزل والتفت الى عريف الجند وقال : «لا يغرنك كلام هذا الغر واصغ الى ما اقوله لك . كنت عازما ان أسلم السجين اليكم تأخذونه الى سجنه ، وقد رأيت الآن ان أحتفظ به عندي فمن كان له عليه طلب فليطلبه مني» .

فتهرب العريف سعيدا ، وخرج ومعه اسطفانوس يصيح ويهدد ويتوعد ، ولما صار خارج البيت قال العريف : «اشهدوا ان اللص وما سرق عند صاحب هذا القصر» .

وكان مرقس قد اخبر اسطفانوس بسرقة الاسطوانة وأفهمه انها اذا وقعت في يد دميانة قضت على ثروته ومستقبله ، فأخذ اسطفانوس يراقب حركات زكريا والذين حوله فعلم بمجيء سعيد اليه وبالاذن في خروجه لكنه لم يره ساعة الخروج وانما علم انه برح السجن على ان يعود اليه بعد ان يمر ببيت سعيد فاستخدم اسم ابيه بغير علمه وأعد شرذمة من الجند ترابط قرب بيت سعيد وقال لهم : «اذا دخل زكريا المنزل فاقبضوا عليه واتهموا سعيدا بالاشتراك معه» . وسار هو معهم لعله يتمكن من خطف الاسطوانة . وقد اخرج هذا التدبير الى حيز الفعل لكنه لم ينجح في اخذ الاسطوانة والسجين ورجع مخذولا يتميز غيظا ، وسار توا الى مرقس وقص عليه ما جرى واستحثه على الشكوى من سعيد لانه خالف القوانين باخراج اللص من السجن ورفض تسليمه الى الجند . ولانه فوق ذلك تواطأ مع البطريرك ميخائيل على مساعدة ملك النوبة في اخراج مصر من أيدي المسلمين وارجاعها الى ملك الروم . وكتاب هذا البطريرك الى ملك النوبة موجود مع الاسطوانة عند سعيد .

فركب مرقس في اليوم التالي الى القطائع ، وطلب الدخول على

المعلم حنا كاتب الماردائي والد اسطفانوس ، فسلم عليه ثم قص عليه امره وطلب اليه ان يساعده في حمل الوالي على الاقتصاص من سعيد لجرأته على انقاذ السارق واخفاء السرقة .

ولم يكن المعلم حنا يجهل اسباب هذه الخصومة ، وكان في شاغل عنها بمنصبه وأعماله . ولم يكن ابنه اسطفانوس يجسر على مخاطبته بشأن من الشؤون حتى انه كان اول من زهد ابا دميانة في خطبتها الى ابنه . فلما سمع شكوى مرقس قال له : «هذا القضاء امامك ارفع شكواك الى القاضي وهو ينظر فيها ولا يضيع حقك» .

فقال : «ربما انحاز القاضي الى سعيد لانه حائز على رضى الوالي اليوم فلا ينصفنا» .

قال : «القاضي غير متهم في ذمته ، فاذا كانت دعواك حقا نلت حقك» . قال ذلك وحول وجهه يتظاهر بالاهتمام بأمور اخرى .

فقال مرقس : «قد لا تهمك هذه الشؤون ظنا انها خاصة بنا . ولكن سعيدا وزكريا يتآمران بدولة المسلمين ، يساعدان البطريرك ميخائيل في ارسال كتبه الى ملك النوبة لقلب الدولة واعادة البلاد الى ملك الروم . وقد وقف الجند على كتاب معهما من البطريرك الى ملك النوبة فأبى سعيد تسليم الكتاب وقال انه عنده مع الاسطوانة يقدمهما عند الحاجة» .

فمل المعلم حنا الحديث وقد ساءه سعي مرقس في هذه الوشايات ، لكنه استنكف ان يقول له ذلك في وجهه فتلطف وقال : «اذا كان لديك مثل هذه الادلة ، فقدمها للقاضي» .

فخرج مرقس ولقيه اسطفانوس فخجل ان يعترف بما ناله من الفشل لاستخفاف المعلم حنا بأقواله فقال : «ان أباك اشار علي باقامة الدعوى» .

فقال : «نعم الرأي . وها أنذا ذاهب لأشكوه» . وكان اسطفانوس مسموع الكلمة عند أرباب المناصب اكراما لوالده فرفع الدعوى الى

القاضي باسم مرقس مدعيا ان الخادم زكريا الذي كان قد سجن لسرقة بيت سيده خرج من السجن خلسة بمساعدة سعيد المهندس الفرغاني ، ولما ذهب الجند للقبض عليه طردهم سعيد وأهانهم ولم يسلم السارق •

فلما طلبَ من القاضي النظر في هذه الدعوى ، دعا هذا المتهمين فجاء سعيد وقال : «اني اطلب ان تنظر دعوانا امام الوالي نفسه لان المسألة ذات شأن» •

★ ★ ★

لم يسع القاضي الامتناع ، فرفع الامر الى ابن طولون ، فطلب هذا حضور الجميع في غرفة خاصة من قصره ، فحضر مرقس وزكريا وسعيد، فأمرهم بالجلوس وهو يتفرس في وجوههم ، فتذكر انه رأى زكريا مرة قبل هذه ، فسألهم : «بأي لسان تتداعون ؟» • فقالوا : «بالعربية فاننا نفهمها جميعا» فقال : «من منكم المدعي ؟» • فوقف مرقس وقال : «انا يا مولاي» •

قال : «وما دعواك ؟»

قال : «دعواي على هذا النوبي ، فقد عرفت عنه انه تآمر على سلامة ولي امير المؤمنين مولانا الامير مع هذا المهندس الفرغاني» •

فالتفت ابن طولون الى سعيد وتفرس فيه كأنه يعاتبه ، فرآه مطمئن البال لم يتغير ، فأمر ابن طولون كاتبه ان يدون دعوى المعلم مرقس ثم قال له : «اشرح لنا اولا دعواك على هذا الرجل» • وأشار الى زكريا •

قال : «انه كان خادما في منزلي فاختلس اثناء غيابي عن طاء النمل كثيرا من نقودي وأوراقي ، ومن بينها اسطوانة فيها اوراق مختومة لا يجوز فتحها» •

فالتفت ابن طولون الى زكريا فرآه مطرقا متأدبا فقال : «ما تقول يا

رجـــل ؟ »

قال : «انا أعترف يا مولاي اني سرقت من منزله هذه الاسطوانة • (وأخرجها من جيبه) ولم أسرق شيئا اخر ولا أظنه يستطيع اثبـــــات السرقة علي » •

فلما رأى مرقس الاسطوانة في يد زكريا تقدم ومد يده ليأخذها منه، فامتنع زكريا ودفعها الى ابن طولون وقال : «ان لهذه الاسطوانة حديثا سنصل اليه في اثناء الدفاع فلتبق مع مولانا الامير» •

فرجع مرقس مدحورا ، وازداد حنقا فقال ابن طولون : «وماذا تعلم من دسائس هذا النوبي علينا ؟»

قال : «لما سرق الاسطوانة وغيرها من منزلي فر الى دير ابي مقار ، فأرسلت في أثره رجلا تعقبه فعلم انه حمل كتابا من البطريرك ميخائيل الى ملك النوبة جوابا على كتاب جاء من ذاك يحرضه فيه على السعي في اخراج مصر من حكم المسلمين وارجاعها الى ملك الروم» •

فلما سمع ابن طولون الشكوى مال الى تصديقها لانه كان قد سمع بشيء من هذه الوقائع من قبل فأراد ان يكون نقاشها بحضور البطريرك نفسه فقال : «علمت ان البطريرك ميخائيل جاء الفسطاط بالامس ، والاولى بنا احضاره ليكون الكلام في وجهه» • وصفق فجاء غلام أمره ان يدعو البطريرك ميخائيل الى الجلسة لتأدية الشهادة •

فتقدم زكريا عند ذلك وقال : «لا يزال بعض المدعى عليهم غائبين فاذا رأى مولانا ان يستقدم الباقين فعل» •

قال : «ومن ايضا ؟»

قال : «ابنة المعلم مرقس هذا فانها شريكة في سرقة هذه الاسطوانة» •

فقال : «من يحضرها ؟»

قال : «انا احضرها» •

فوقع الكلام وقع السهام في قلب مرقس ، فأراد ان يعارض في احضارها فقال : «لا يا سيدي اذا ذهب لا يرجع فانه سريع الهرب» .

قال زكريا : «يرسل مولاي من يشاء من الجند معي حتى اعود ، فان الفتاة على مقربة من هذا المكان» .

فأمر ابن طولون بعض الحراس ان يذهبوا مع زكريا ويعودوا به ، ومكث الامير وسعيد ومرقس في انتظار مجيء البطريرك ودميانة . وشغل ذهن ابن طولون بما سمعه من اشتراك سعيد في الدسائس على الدولة فنظر اليه وقال : «سعيد . ألم نرفع قدرك ونجعلك من خاصتنا ؟»

قال : «ومن ينكر ذلك ؟ اني غارق في نعم مولاي الامير وحاش الله ان اسعى في غير خدمته» .

قال : «فالمعلم مرقس كاذب فيما يقول ؟»

قال : «سيظهر ذلك قريبا يا سيدي . وهذا هو الكتاب الذي يزعم ان زكريا حمله من البطريرك ميخائيل الى ملك النوبة» .

قال ذلك ودفع الكتاب مختوما الى ابن طولون فوضعه بين يديه بجانب الاسطوانة وأجل فضه حتى يحضر البطريرك .

وبعد قليل جاء الحاجب يقول : «ان البطريرك بالباب» . فأمر ابن طولون بدخوله ، فدخل وعليه لباسه الرسمي ، وقد بدت الدهشة في وجهه ، فوقف له الحضور وابن طولون ايضا ، ودعاه الى الجلوس على كرسي بجانبه فجلس ، وأول ما وقع بصره على كتابه الى ملك النوبة بين يدي ابن طولون استغرب ذلك والتفت فوجد المعلم مرقس وكان يعرفه ويعرف قصة ابنته مع اسطفانوس وكذلك سعيدا .

ولم يكد يستقر به المقام حتى دخل الآذن ينبىء بمجيء زكريا ودميانة، فدخلا وفي أثرهما سمعان النوبي ، فوقف في بعض اطراف القاعة . فلما وقع نظر البطريرك على زكريا ودميانة ادرك الغرض من حضوره ، فوجه

ابن طولون كلامه الى البطريرك اولا لعظم شأن تهمته ، وقال : «أليس هذا الكتاب منك ؟» • وأراه كتابه الى صاحب النوبة •

فنظر البطريرك في الكتاب وقال : «بلى» •

قال : «أليس خاتمك عليه ؟»

قال : «بلى يا سيدي» •

قال : «وأرسلته الى ملك النوبة وحدثته فيه عن اخراج هذه البلاد من حوزة المسلمين ؟»

قال : «نعم يا سيدي» •

قال : «ابلغ من امرك ان تتواطأ مع عدونا علينا ؟»

فتبسم البطريرك وقال : «ان الامير يتهمني بما سمعه من الوشاة ، وهم لسوء الحظ من ابنائي ورعيتي • فقد قالوا اني خائن واني اتآمر بك وأدس الدسائس ، وقد استولوا على كتابي هذا على غير علم مني ، فما على الامير الا ان يفضه ويأمر بتلاوته فيعرف الحقيقة ، فان كنت خائنا فقد حق علي ما ضربتموه من الاموال التي أثقلت كاهلي ، وان اكن بريئا فالامر مفوض للامير» • قال ذلك وقد بدا التأثر في عينيه وفي كل كيانه •

فقال ابن طولون : «صدقت • وأشار الى الكاتب بين يديه وقال : «انت تقرأ القبطية ؟»

فوقف الكاتب وقال : «نعم يا سيدي» •

فدفع اليه الكتاب ففضه وأخذ يقرؤه ويترجمه والكل ساكتون يسمعون وهذا فحواه :

«ولدنا بالروح (فيرفي) ملك النوبة •

«جاءنا منك كتب غير قليلة تدعونا فيها الى خلع طاعة حكامنا المسلمين والرجوع الى سلطان الروم • ولو كان خيرا من سواهم لما

خرجنا من طاعتهم ورضينا ان يحكمنا غيرهم • وهؤلاء العرب قد تعودناهم وتعودونا وهم خير لنا من اولئك • ولا أنكر ان بعض الولاة المسلمين كانوا اهل ظلم وقسوة ، ساموا ابناءنا الاقباط العذاب ، ولكنهم على الاجمال اهل عدل ورفق وأخص اميرنا الحالي احمد بن طولون فانه ما انفك منذ تولى مصر يرفع المظالم ويكف الاذى عن طائفتنا • على انك لو تدبرت ما لحقنا من الاذى على عهد هؤلاء العرب لوجدت الحق علينا نحن لفساد نياتنا وانقسامنا فيما بيننا ، اذ يتهم بعضنا بعضا ويشي بعضنا ببعض لضغائن في الصدور • وأقرب شاهد على ذلك ما وقع لنا ، فان بعض الاساقفة قصر في واجبات الكنيسة فحرمته ، فحقد علي ، ووشى بي الى الوالي زاعما اني صاحب مال كثير ، وأشار عليه ان يطالبني بأموال تلزمني للدولة ، فضربوا علي ضرائب يعلم السيد المسيح اني عاجز عن نصفها وربعها ، ولكن الوالي لا يصدق قولي • هذا مثل ضربته لك فاعتبر به • ورأيي ان نقنع بالرضوخ لحكامنا هؤلاء فهم خير لنا من سواهم ، واذا وجدنا في بعضهم عيبا فقد كان في ولاة الروم قبلهم ما هو شر وأدهى • وفي الختام أهديك البركة والدعاء ، ونطلب الى المولى ان يصلح نياتنا ويجمع قلوبنا فنحسن معاملة حكامنا لنا والسلام» •

كان الكاتب يقرأ ويترجم ، والحضور يسمعون ، والبطريرك مطرق ينتظر النتيجة • ولم يأت الكاتب على اخر الكتاب حتى انبسط وجه ابن طولون بعد ان كان منقبضا ، فالتفت الى البطريرك وقال : «لقد اسأنا عشرتك وسمعنا الوشاية فيك • والله لو كان كل ابناء طائفتك على رأيك لكانوا أسعد حالا وأنعم بالا ، فوجب علينا التخفيف عنك وقد اتت هذه الشكوى لك لا عليك» •

قال : «هذهارادة الرب» •

فالتفت ابن طولون الى مرقس وقال : «هذه دعواك يا معلم مرقس قد

سقطت ، فأين هي الاخرى» •

فوقع مرقس في حيرة ، ثم اراد ان يحتال لايقاع زكريا فقال : «ان أبانا البطريرك قد تبرأ بنص كتابه ، ولكن حامل الكتاب لا يبرأ لانه حمل الكتاب الى ملك النوبة وهو يظن فيه تآمرا وقبل ان يكون وسيطا فيه• وما كان يسعى له ان يحمله : ولكنه نوبي يخدم مصلحة ملكه ولو علم ان الكتاب بالمعنى الذي سمعنا لم يحمله» •

فقال ابن طولون : «الواقع ان الكتاب واضح المعنى والمبنى وليس في حمله الا خدمة لحكومة المسلمين جزاه الله عنا خيرا • والآن ننتقل الى دعواك الاخرى ، ولا بأس من بيانها بحضور البطريرك» •

فقال زكريا : «بل حضور غبطته ضروري» •

فتغيرت سحنة مرقس وبدا الاضطراب عليه وتلعثم لسانه والحضور يتسمعون لسماع دعواه ، ولما ابطأ تقدم زكريا فقال : «أستأذن سيدي الامير في ان انوب عن المعلم مرقس في الكلام» •

فقطع مرقس كلامه قائلا : «من أنابك عني ؟ انا اتكلم عن نفسي» •

فسكت زكريا وتراجع ودميانة واقفة وقلبها يخفق شفقة على ابيها ، وطال سكوت مرقس فقال زكريا : «للمعلم مرقس شريك في الدعــوى فليأمر الامير باحضاره» •

قال : «من هو ؟»

قال : «اسطفانوس ابن المعلم حنا كاتب الخراج» •

فأمر ابن طولون باحضاره ، فجاءوا به وأوقفوه بجانب المعلم مرقس• ولم يفتح عليه هو ايضا بالكلام واعتذر بألم اصابه يمنعه من التكلم • فأمر ابن طولون باجلاسه والتفت الى زكريا وقال : «قل يا اسمر مـــا تعرف من امر هذه القضية ؟»

فتقدم زكريا وأخذ الاسطوانة بيده وقال : «ان الخصام كله علي ما

في هذه الاسطوانة . وهي رق مكتوب لمصلحة هذه العذراء الطاهرة ابنة المعلم مرقس ، فقد ماتت والدتها وهي طفلة وكانت لها مربية وأظنكم تعرفونها وهي مارية القبطية صاحبة قرية طاء النمل التي مر بها الخليفة المأمون عند زيارته مصر وبالغت في اكرامه . وكان المأمون لما شرفها بالضيافة قد اهدى اليها بعض الجواري والخصيان وأنا منهم فقد كنت خصيا حملت اليه هدية من ملك النوبة مع خصيان اخرين . وربيت في منزلها . وكان اسمي ابراهيم فسمتني زكريا . فلما ولدت امرأة المعلم مرقس هذه الفتاة سمتها دميانة تيمنا باسم القديسة دميانة . وكانت مارية قدس الله روحها تعرف سفه هذا المعلم وفسقه فأرادت ان تضمن لابنته الصغيرة مستقبلها فوهبتها قرية طاء النمل وقرى اخرى بقربها ، وكتبت بذلك صكا مسجلا حفظته في هذه الاسطوانة» . قال ذلك واستأذن ابن طولون في فض الختم فأذن له ففضه وأخرج رقا مكتوبا بالقبطية دفعه الى الكاتب وطلب اليه ان يترجمه الى العربية ، وكان فيه ما يلي :

«ان مارية القبطية وهبت ابنتها بالروح دميانة بنت المعلم مرقس قريتها طاء النمل كلها وما يلحقها من المغارس . وتدار هذه القرية بارشاد ابيها، ولا يحق له ان يتصرف فيها . فاذا بلغت ابنته رشدها وتزوجت آلت ادارتها اليها ورفعت يد ابيها عنها .. الخ» .

وكان الحضور يسمعون ما يتلوه الكاتب وعيونهم على مرقس وهو مطرق والعرق يتقطر من وجهه ، وصدره يعلو ويهبط من عبر تنفسه، فلما فرغ الكاتب من القراءة قال ابن طولون : «ألا يوجد شهود ؟»

قال الكاتب : «نعم يا سيدي اني اقرأ اسمي ميخائيل ومنقريوس» .

فقال البطريرك : «ان ميخائيل اسمي ، وكنت لا ازال أسقفا . وأشهد ان مارية القبطية وهبت الفتاة تلك القرية . وأما منقريوس فانه قسيس طاء النمل وهو مقيم هناك حتى الساعة» .

فقال ابن طولون : «نكتفي بشهادتك» . والتفت الى زكريا وقال : «هل فرغت من حديثك يا اسمر ؟»

قال : «كلا يا سيدي ؟ لا ازال في اول الحديث فهل أتمه ؟»

وكان ابن طولون قد توسم الصدق في لهجته فقال له : «اتمه» .

قال : «ولرغبة ماريا في رعاية هذه الفتاة وهبتني لها ، وأمرتني ان ابقى في خدمتها حتى تشب وتتزوج ، فأطعتها ولازمت البنت من طفولتها ولا ازال الى الان وسأبقى ما دمت حيا . فنشأت الفتاة في كنف تربية حسنة غرستها فيها والدتها رحمها الله ، فانها كانت تقية طيبة العنصر . فنشأت ابنتها مثلها تحب الصلاة والعبادة وفيها ميل الى البر والاحسان، وبلغت هذه السن ولم تعلم بما في هذه الاسطوانة ، لان أباها كان يبالغ في اخفائها عنها ، وأنا صابر عليه لعله يرعوي . فرأيته بعد ان ماتت زوجته أم دميانة قد عكف على التسري واقتناء الجواري وتعاطي المسكر والانغماس في القصف واللهو ، والبنت تكره ذلك فيه وهو لا يلتفت اليها . وأخيرا اراد ان يزوجها بشاب على شاكلته هو هذا الواقف امامكم (وأشار الى اسطفانوس) تقربا لابيه مع ان أباه يتبرأ منه ، فتواطأ مع اسطفانوس على اخفاء امر الوصية والتمتع بالاموال وكلاهما سكير فاسق » .

فلما وصل الى ذلك تنفس الصعداء ليستريح ، ثم تحول الى سعيد فأمسكه بيده وأتم حديثه قائلا : «وأما الفتاة فعرفت هذا الشهم ، ولا أزيدكم تعريفا بمناقبه ، وكان مقيما عند جارهم ابي الحسن البغدادي ، وتواعدا على الاقتران ، وكان هو يعمل في حفر العين بالمغافر . فعلم اسطفانوس بذلك وخاف اذا نجح سعيد في حفر العين ان يعظم في عيني الامير ويأخذ دميانة ، فكاد له كيدا لا يرتكبه اعظم الاشرار . أوصى بعض رجاله بأن يضع قصرية الجير في المكان الذي يعلمه الامير حتى

حدث ما حدث من اجفال جواده ووقوعه ، وظن يومئذ مولاي ان ذلك من تقصير سعيد فأمر بضربه وسجنه ثم أطلق سراحه لأجل بناء الجامع. ولعل الامير يذكر اني ذكرت له اسم سعيد وانه أقدر من يبني الجامع على ما يريده مولاي» .

فهز ابن طولون رأسه موافقا.

فعاد زكريا الى الكلام قائلا : «وبعد ان أوقعوا سعيدا في الفخ . ارادوا اكراه الفتاة على الزواج باسطفانوس ، ولم يطعني ضميري على ذلك وأنا عالم بالحقيقة ففررت بها فخبأتها في حلوان ، وذهبت وأخذت هذه الاسطوانة لأطالب بحق الفتاة . ولما رجعت الى حلوان رأيت الفتاة قد اخذها البجة سبية ، فرأيت ان أوسط أبانا البطريرك في استنجاد ملك النوبة على البجة فسرت اليه الى دير ابي مقار : فأعطاني هذا الكتاب وفي ذيله توصية بي لملك البجة . فحملتها ، وكان يتعقبني جاسوس أرسله هذا المعلم في أثري كما قال وأنا لا ادري ، ولما وصلت الى الاهرام جـــاء برجاله للقبض علي فلما تحققت وقوعي في قبضتهم اخفيت الاسطوانة والكتب في مدخل الاهرام . وقبضوا علي وسجنوني ثم احتلت علـــى الخروج بوساطة مولاي سعيد المهندس لآتي بالكيس فعثرت على مولاتي دميانة ومعها هذا النوبي (وأشار الى سمعان) وهو الذي جاء بها من بلاد البجة . وعلم هؤلاء بخروجي فاحتالوا ليأخذوا الاسطوانة فلم يفلحوا وأرادوا الشر فعاد عليهم . وأنا لا أرب لي في كل ما تقدم الا القيام بالمهمه التي عهدت بها الي السيدة مارية ، فقد تعهدت ان اخدم هـــذه الفتاة وأرعى مصلحتها وقد بذلت جهدي في ذلك والامر لمولانا» .

قال ذلك وتراجع ووقف والجميع سكوت كأن على رؤوسهم الطير ينتظرون ما يصدر من الحكم . فاذا بابن طولون يقول : «ان حديثك يا اسمر مع طوله لا يمل . لقد كشفت عن خفايا كثيرة» . والتفت الى مرقس

واسطفانوس وقال : «هل لديكما ما تدفعان به عن نفسيكما ؟»

وكان مرقس مطرقا يكاد يذوب خجلا وقد ارتج عليه ، امـــا اسطفانوس فعظم عليه السكوت فقال : «ان التهمة التي وجهها الي هذا النوبي لا دليل على صحتها • وكيف يتأتى لي ان أدس قصرية الجير ؟»

فتقدم زكريا وقال : «انا لا اقول اني نظرتك تفعل ذلك ، ولكنني أستدل من قرائن كثيرة انك انت الفاعل» •

فقطع ابن طولون كلامه قائلا : «انا ايضا أؤيد هذا القول بدليـــل تذكرته الان هو ان بعض الناس من ابناء طائفتك ولعلهم من ذوي قرباك كانوا يقبحون عمل هذا المهندس لدي ويبغضونه الي بكل وسيلة وأنا أسمع لهم معتقدا اخلاصهم • فلما كنا جوادي في قصرية الجير ، وذكروا ان سعيدا فعل ذلك عمدا ليقتلني فصدقتهم ، وانني أشكر زكريا لانه كان الوسيلة الى اخراجه من السجن والى ارشادي الى مقدرته في فـــن الهندسة • لله درك من خادم امين نصوح» •

وكان البطريرك مصغيا فلما سمع قول ابن طولون هز رأسه متعجبا وهو يمشط لحيته بأنامله وقال : «سبحان الله •• ان الضرر لا يأتينا الا منا • يسيء بعضنا الى بعض ويفسد بعضنا اعمال بعض» •

فصاح اسطفانوس : «ا نهذا الشاب (وأشار الى سعيد) لطمـــي ورماني في صحن الكنيسة ليلة الاحتفال بعيد الشهيد فأغضيت عنه ولم أرد اذيته فكيف اسعى ضده ؟»

فقال زكريا: «اغضيت عن عجز ، ولو استطعت قتله ما تأخرت ولكنك جبان خسيس» •

فصرخ اسطفانوس : «أتهينني في حضرة الامير ؟»

فأشار ابن طولون فسكتا وقال : «ان ادعاءك ان سعيدا ضربك ، مع ما ظهر لنا من اخلاقك يؤكد لنا انك تعمدت اذاه بوضع قصرية الجير» •

- ١٤ -

زواج الحبيبين

كان مرقس يسمع ما يقولون ويترقب فرصة تخوله الكلام ليغطي خجله ، فلما رأى التهمة تثبت على اسطفانوس وجه كلامه اليه وقال : «اسكت يا اسطفانوس فانك حقا لئيم الطبع ، قد خدعتني كما خدعت سواي ، فأنا اشهد انك تعمدت اذى جارنا وولدنا سعيد . اردت ان تتخلص منه لتبقي دميانة لك . هذا هو الصحيح» .

فلما سمع اسطفانوس هذه الشهادة عليه من زميله وصديقه وشريكه في سيئاته حمي غضبه وقال له : «أتقول هذا وأنت الذي اغريتني به ؟. وكم حببت الي الزواج بابنتك وأنا اجيبك انها لا تحبني فأبيت وأصررت على ان اتزوجها ، لا لسبب غير طمعك في مالها ؟»

فقال مرقس : «هذا غير صحيح ..» . وضحك ضحكة استخفاف. وقال : «طمعا في مالها ؟. أليس مالها ومالي سواء ؟»

قال : «أوتضحك ايضا ؟ وتقول ان مالك ومالها سواء ؟ ألم تخبرني بهذه الوصية وتتفق معي على ان نكون شركاء في ارث الفتاة وهي لا تعلم ؟ انت اغريتني وغششتني . فأنت وحدك سبب هذا الشقاء . لتتمتع بالملذات والشهوات» . قال ذلك وقد بح صوته وخرج عن طور العقل لشدة الغضب .

فانتهره ابن طولون قائلا : «يكفي . قد عرفناكما ، وعرفنا فضل مهندسنا الحكيم . وسنرفع منزلته ونعوضه عما لحقه من الاذى بسبب تلك الوشاية . وسنزف اليه عروسه على نفقتنا باحتفال ينسيهما ما قاسياه ، ويتولى عقد الاكليل غبطة البطريرك الجليل» . قال ذلك ونظر

الى دميانة وكانت جالسة على مقعد بالقرب من زكريا تسمع ما يدور من الاحاديث ولا تفهم الا تتفا قليلة لجهلها اللغة العربية • فكان زكريا يترجم لها باختصار • على ان اشتغال قلبها بسعيد وتتبعها حركاته وسكناته كانا يشغلانها عن سماع كل شيء • اذ مضت عليها مدة وهي لم تره • واتفق انها رأته للمرة الاولى في تلك الجلسة فاضطرت الى ان تغالب عواطفها وتصبر على نفسها الى اخر الجلسة • وقد اهمها من الجهة الاخرى الاطلاع على ما كان محدقا بها من الاسرار ولاسيما مسألة الاسطوانة وما فيها • فلما اطلعت على فحواها طار قلبها من الفرح ولاسيما حين سمعت ما قاله ابن طولون لخطيبها وانه سيرفع قدره وينفق على العرس من ماله • فان ذلك فوق ما كانت تتمناه •

على ان غضب ابن طولون على ابيها نغص عيشها وكدرها ، وزادها حزنا وأسفا ما شاهدته في ابيها من الانكسار والتذلل بعد ظهور جرمه• ونسيت ما قاسته من استبداده وعنفه وما اراده من ضياع حقها • فلما قال ابن طولون ما قاله ووجه خطابه اليها بغتت وهي تحدث نفسها بتلك الامور ، والتفتت الى ابيها فرأته ينظر اليها بعين الحزين الذليل فنهضت وتقدمت خطوتين حتى وقفت ووجهت كلامها الى الامير وتكلمت بالقبطية قائلة :

«اني لا استطيع التعبير عن افكاري بالعربية فأقولها بالقبطية وأتقدم الى ابينا البطريرك ان ينقلها اليكم بالعربية • لقد غمرتنا ايها الامير بفضلك ، وأنا شاهدت العصي تتساقط على سعيد (وأشارت اليه) شاهدتها بعيني ولم يخطر لي ان اضع الحق عليك ، وقد علمت من ذلك اليوم انها دسيسة • انك ايها الامير اتيت نعمة لبلادنا كما قال ابونا البطريرك ، وأحمد الله لانه اظهر الحق على يد العم زكريا ، فان لهذا العم الطيب القلب فضلا كبيرا في كشف هذه الاسرار ، وقد فعل ذلك لا لمطمع غير

القيام بوعده ونصرة الحق» .

وظهرت دمعتان في عينيها وأشارت بيدها الى ابيها وقالت : «نعم ان ابي قد اساء الي ولا ادري أكان ذلك من تلقاء نفسه او باغراء ابن طبوام. فمهما يكن فاني اتقدم الى مولاي الامير بأن يعفو عنه ، فاني لا اكون سعيدة ان لم يكن والدي ايضا سعيدا» .

فترجم البطريرك كلامها . اما والدها فلما سمع قولها غلب عليه البكاء لفرط ندمه وقال لها : «لقد جمعت نارا على رأسي . اني قد اسأت اليك من كل وجه ، ولا شك ان عنصرك أطيب من عنصري فقد كنت أريد ان اكون سعيدا ولو شقيت انت . اما انت فتقولين انك لا تسعدين ان لم يكن ابوك سعيدا . فاصفحي عن ذنوبي ، وها انذا أشهد الامير وسائر الحاضرين على اني سأرجع عن كل ما يغضبك في سلوكي ، وأكون طوع ارادتك لانك اقرب مني الى الرشاد وأدنى الى الصواب» .

فلما رأى اسطفانوس ما جرى صاح : «وأنا يا دميانة وأنا ؟»

قالت : «اني اترك امرك الى سعيد فانه صاحب الشأن معك» .

فتقدم سعيد وقال : «اذا جاز لي يا مولاي ان أتكلم ، فاني ألتمس من مولاي ان يصفح عن اسطفانوس فانه فعل ما فعله بدافع الضعف الانساني ، ولا يجديني ان اراه يذوق العذاب ولاسيما وقد ظهر عليه النـدم » .

فقال اسطفانوس : «نعم ندمت . ومن ذا الذي يرى هذه الاخلاق العالية وهذه الصدور الرحبة ولا يندم ؟» اني احب ان اكون من أحقر اصدقائك » .

فقال : «دعنا من الصداقة فقد صفحت عنك والسلام» .

فأشار ابن طولون اشارة سكت لها الجميع وأصغوا لما يقول فقال : «يسرني انكم تصالحتم وسأؤيد هذا الصلح باحتفال العرس الـذي

سأقيمه بعد قليل بحضور الاب البطريرك» .

وفهم الحضور انه يريد الانصراف فنهضوا ، واذا بصوت خرج من طرف القاعة فالتفت الجميع فرأوا سمعان النوبي وكان واقفا يسمع ما يقال ، فلما سمع ما قاله زكريا عن اصله وانه كان من جملة هدية ملك النوبة للمأمون ، علم انه اخوه الضائع وأحب ان يتصدى للكلام فلم يسعفه المقام فظل صابرا حتى فرغ القوم من المحاكمة فتقدم وقال : «يأذن لي الامير في كلمة ، اني رسول ملك النوبة الى البطريرك لأحضه على ما حضه عليه سواي من قبل ، اما بعد ان شاهدت من عدلك وعظيم خلقك ما شاهدت فاني ارى غير رأي ملك النوبة وأنا عائد اليه لأثنيه عن عزمه وأعيد العلاقة بينه وبين المسلمين الى خير ما تكون» .

فقال ابن طولون غير مكترث : «لك ذلك» . وتحول وخرج من باب خاص في تلك القاعة وبقي الحضور يتصافحون ويتصالحون والبطريرك يباركهم ويخفف عنهم ، فقبلت دميانة يد ابيها ، فقبلها هو وبكى ووعدها بأن يخرج من في منزله من السراري والجواري وأن يعيش لله ولها ويكون طوع ارادتها . وتقدم اسطفانوس الى سعيد يستغفر لذنبه ويصالحه فقال له : «ليس في نفسي شيء منك وقد صفحت عما فعلته ، لكنني لا أميل الى مصادقتك لان من كان لا يغضب لنفسه ولا يحفظ كرامتها لا يليق بالصداقة» . فلما سمع اسطفانوس قوله كاد يذوب من الخجل وتحول وخرج وهو يبكي ، فأشفق سعيد عليه وقال له : «اذا شئت ان نكون اصدقاء فاصغ لما يقوله ابوك فانه من اطيب الناس قلبا وأحسنهم خلقا فاذا عملت برأيه كنت من اصدقائنا» .

وأما سمعان فأكب على زكريا وجعل يقبله ويقول له : «اخي ابراهيم ! ابراهيم !»

فبغت زكريا والتفت الى سمعان وتفرس فيه وقال : «اخي سمعان»

اخي حقيقة» • وتعانقا •

وكان اجمل منظر بين اولئك المجتمعين وأوقعه في النفس هو اجتماع سعيد بدميانة ، فقد تخاطبا وتشاكيا طويلا بلسان لا يفهمه سواهما أعني لسان العيون فضلا عن الكلام ، وطال وقوفهما وفرغ الاخرون من احاديثهم وهما غارقان في حديث المحبين • فتقدم زكريا اخيرا وقال : «هل تريد مولاتي ان تخرج والى اين ؟»

فانتبهت لنفسها وسألت سعيدا فقال : «هل تأتون الى قصري هنا؟»

فخجلت دميانة من هذه الدعوة وأدرك زكريا خجلها فقال : «نذهب الان الى دير المعلقة لان سيدتي تحب الاديار ، وأظن ابانا البطريرك نازلا هناك ؟» • فأشار البطريرك ان نعم فقال : «فنذهب اذن الى هناك للتبرك ريثما يأمر الامير بعقد الزواج فنجتمع ونقيم بقصر المهندس الفرغاني» •

فصاح ابوها : «بل تقيم بقريتها طاء النسل حيث تأمر وتنهي» •

ففرحت بكلام ابيها ، ومشت هي وزكريا والبطريرك الى دير المعلقة ومعهم سمعان ، وذهب سعيد الى قصره ، ومضى اسطفانوس كاسف البال الى ابيه يستغفره ويرجو عفوه • وبقي مرقس فقال لابنته : «هل أرافقك الى الدير ؟»

فضحكت وقالت : «ان لهذا الدير فضلا علي فقد بدأت متاعبي فيه، ولكن قد مضى ما مضى فتعال معنا فأنت ابي وسيدي» • فمشى معهم ، واحتفلت رئيسة الدير بقدومهم •

وبعد ايام أمر ابن طولون باعداد معدات العرس لزفاف دميانة الى سعيد • فبعث سعيد الى صديقه ابي الحسن البغدادي فأتى وقد فرح بما جرى ، وبعثت دميانة الى الاب منقريوس قسيس قريتها ليفرح معها فأتى • فزينوا القطائع كلها بالانوار والرياحين وكان احتفالا مثل احتفالات الملوك ، وظل اهل الفسطاط يتحدثون به أعواما • وسكنت دميانة مع سعيد في قصره اياما ثم انتقلا الى طاء النمل وسكنا في قصر ابيها او قصر

مارية القبطية . وكان ابوها قد اخلاه من السراري والجواري وجعله لائقا بذينك العروسين الطاهرين .

وقضى مرقس بقية عمره يبذل وسعه في ارضاء ابنته وزوجها . وكان زكريا من اعظمهم سرورا بذلك . وعاش بقية عمره معززا مكرما . وأما اخوه سمعان فانه رجع الى بلاد النوبة ليثني ملكها عن مناوأة المسلمين فأفلح وعاد وأقام بطاء النمل . وأما الاب منقريوس قسيس تلك القرية، فقد فرح بظهور الحق لانه كان من الذين شهدوا وصية مارية .

سلسلة روايات تاريخ الإسلام

تأليف جرجي زيدان

١ - فتاة غسان
٢ - أرمانوسة المصرية
٣ - عذراء قريش
٤ - ١٧ رمضان
٥ - غادة كربلاء
٦ - الحجاج بن يوسف
٧ - فتح الأندلس
٨ - شارل وعبد الرحمن
٩ - أبو مسلم الخرساني
١٠ - العباسة أخت الرشيد
١١ - الأمين والمأمون
١٢ - عروس فرغانة
١٣ - أحمد بن طولون
١٤ - عبد الرحمن الناصر
١٥ - فتاة القيروان
١٦ - صلاح الدين الأيوبي
١٧ - شجرة الدر
١٨ - الانقلاب العثماني
١٩ - أسير المتمهدي
٢٠ - المملوك الشارد
٢١ - إستبداد المماليك
٢٢ - جهاد المحبين